





# صليل السيوف

## رحلة مع الفتوحات الإسلامية الأولى

فراس حامد نوبران

**نوع العمل: تاريخ**

**اسم العمل: صليل السيوف**

**اسم المؤلف: فراس حامد**

**الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى**

**الطبعة: الأولى أكتوبر 2016**

**تصميم الغلاف: مروان محمد**

**تدقيق لغوى: فراس حامد**

**تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:**

**[http://herufmansoura2011.wix.com/ebook](http://herufmansoura2011.wix.com/ebook)**

**كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:**

**[http://facebook.com/herufmansoura](http://facebook.com/herufmansoura)**

**كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:**

**Herufmansoura2011@gmail.com**







بسم الله الرحمن الرحيم
المملكة الأردنية الهاشمية
*The Hashemite Kingdom of Jordan*
وزارة الثقافة
*Ministry of Culture*
دائرة المكتبة الوطنية
*Department of the National Library*

الرقم: م أ/١٤٤٣/١/١
التاريخ: ٢٠١٦/٣/٣١
الموافق: ...............................

السيد / **فراس حامد الخوالده**

تحية طيبة وبعد،

أرجو إعلامكم بأن الكتاب المقدم من قبلكم قد تم منحه رقم الإيداع ، واستخلصت بيانات الفهرسة الأولية له:

**اسم الكتاب: صليل السيوف ( رحلة مع الفتوحات الإسلامية الأولى)**

**إعداد: فراس حامد الخوالده**

يرجى العمل على تثبيت هذا الرقم وبيانات الفهرسة على ظهر صفحة عنوان الكتاب كما هو مبين أدناه، **وتسليم مركز الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية ثلاث نسخ على سبيل الإيداع**، حال الانتهاء من طباعة الكتاب وقبل عرضه للبيع أو التوزيع، **استنادا لأحكام المواد ( ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١) من قانون حماية حق المؤلف رقم (٢٢) لسنة ١٩٩٢ وتعديلاته، وأحكام نظام إيداع المصنفات رقم (٤) لسنة ١٩٩٤**، مبينا بأن دائرة المكتبة الوطنية تعتمد في التصنيف الطبعة الثالثة والعشرين المترجمة والمعدلة من نظام ديوي العشري

واقبلوا فائق الاحترام،،،،

**المدير العام**

**محمد يونس العبادي**

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/٣/١٤٤٣)

نسخة / مركز الإيداع

**٩٥٦**
الخوالده، فراس حامد
صليل السيوف ( رحلة مع الفتوحات الإسلامية الأولى) / فراس حامد الخوالده .- المفرق: المؤلف، ٢٠١٦

**( ) ص .**
**ر. إ. : ٢٠١٦/٣/١٤٤٣.**
**الواصفات : /الفتوحات الإسلامية//التاريخ الإسلامي/**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

تلفون : ٥٦٦٢٨٤٥(٦-٩٦٢) فاكس : ٥٦٦٢٨٦٥ (٦-٩٦٢) ص .ب (٦٠٧٠) الرمز البريدي ١١١١٨ عمان – الأردن
P.O.Box:(٦٠٧٠) Code No : ١١١١٨ (Amman – Jordan) Fax : (٩٦٢-٦)٥٦٦٢٨٦٥ Tel:(٩٦٢-٦)٥٦٦٢٨٤٥
www.nl.gov.jo E-mail: nl@nl.gov.jo



# صليل السيوف

## رحلة مع الفتوحات الإسلامية الأولى

فراس حامد نويران

**2016**



((وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِين)) (آل عمران: 140).

((وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور)) (الحج: 40، 41).

## إهداء

**إلى أبي وأمي الغاليين...**

**إلى العصفورتين الجميلتين سارة وديمة...**

**إلى أشقائي وشقيقاتي...**

**إليهم جميعا"... أهدي أول أعمالي.**



# الفهرس

# مقدمة

الحمد لله، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، الرسول الأمين، وإمام المجاهدين، وقدوة الحكام والمصلحين، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد:

إن التاريخ مليء بالمفارقات المذهلة، والتناقضات العجيبة، والتحولات الكبيرة، وهي جميعا" تظهر لنا، على نحو جلي، حكمة الله سبحانه وتعالى، الذي بيده أسباب كل شيء، ولا شك أن تقلبات الأيام وتصاريف الأقدار هي، في جانب منها، أكثر مدعاة للتفكر بآلاء الله سبحانه وتعالى من أشياء كثيرة في هذه الدنيا الفانية، وبتأمل أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)) (فصلت: 53)، نجد أنها تمثل في جزء

منها دعوة لتأمل سنن الله تعالى التي رسمت، منذ عهد آدم عليه السلام، حركة الأمم والدول والمجتمعات والأفراد، واستنباط العبر والحكم منها، بما يقرب الناس، فرادى وجماعات، من منهج الله سبحانه وتعالى، أما آيات الأرض المذكورة في قوله تعالى: ((وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ)) (الذاريات: 20)، فهي لا تقتصر على الجبال والبحار والنباتات والحيوانات وغيرها، بل تشمل أيضا" " الآيات التاريخية "، ولذلك كله لم يجانب الشاعر الصواب حين قال:

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارا" إلى عمره.

ومما يدعو للأسف الشديد، أن المناهج البالية التي طبقت في مدارسنا، وأسلوب التدريس البائس والجامد الذي مارسه علينا أساتذتنا، هما اللذان تسببا بالدرجة الأولى في تنفيرنا من قراءة التاريخ وتأمله، فقد أصبحت الصورة المتشكلة لدى أجيال متعاقبة عن هذا العلم العظيم بأنه علم أصم وجامد وممل، يعج بالأرقام والأسماء والحوادث المتعاقبة، التي يعسر

استيعابها أو استذكار تسلسلها الزماني والمكاني، وبات الكثيرون يرون أنه ما من طائل من وراء دراسة تاريخ أموات قد تحولوا إلى رميم، وبلدان وممالك لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة.

ولا زلت أذكر كيف كان بعض أساتذتي في المدرسة والجامعة يلقنوننا التاريخ تلقينا"، ويختزلون دروسه العظيمة في مجموعة من الشروح والتعليلات السطحية، دون أن يحاولوا أن يحببونا إليه، وأن يحولوه إلى رحلة ممتعة على رقعة الزمان الكبرى، قوامها الإثارة والتأمل والفائدة، وأن يبثوا في قلوبنا وعقولنا القدرة على تناوله كجسم حي لا كمومياء جافة.

وقد غفلوا عن أن دراسة التاريخ هي في حقيقة الأمر دراسة للحاضر والمستقبل معا"، بما تتضمنها من استخلاص للدروس والعبر، وسعي لعدم استنساخ محن الماضي ومآسيه، والاستفادة من تجارب الأجداد، الذين كانت الكثير من أخطائهم

**نتيجة لعدم دراستهم واعتبارهم بتاريخ من سبقوهم، وقد أصاب هيغل كبد الحقيقة وعينها، عندما رأى بأن الدرس الأكبر الذي نستخلصه من التاريخ هو أن الشعوب لا تحسن الاستفادة من عبر وتجارب ماضيها.**

**ولنا أن نتخيل ما يحل بأي مجتمع من المجتمعات إذا أهمل قراءة تاريخه – وتاريخ سواه - والاستفادة من دروسه، فلا شك أن حاله سيكون كحال أي شخص فقد القدرة على الاستفادة من تجاربه، حيث ستكون النتيجة الحتمية تكرار الأخطاء تلو الأخطاء، إلى أن تتحول هذه الأخطاء إلى كارثة تحيق به وتدمر حياته برمتها، ولن يختلف حاله كثيرا" لو فرضنا – جدلا" – أنه لا يستفيد إلا من تجاربه هو فقط، أي أنه لا يتعلم إلا من " كيسه " وفق المصطلح العامي.**

**كما غفل أولئك عن أن قراءة التاريخ وتأمله هو أمر في غاية المتعة، فليس هناك أجمل من السفر إلى الماضي**

والسياحة فيه، من قطر إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، والتنقل بين مخادع الأمراء وسوح المعارك وأسواق العامة.

إلا إذا كانت القراءة الممتعة بالنسبة لهم لا تخرج عن نطاق قصص الحب المشبعة بالإيحاءات الإباحية والمشاعر الساذجة، وكتب الأبراج التي تصدرت واجهات المكتبات الورقية والرقمية على حد سواء، فعند ذلك تغدو أية محاولة لتحبيبهم إلى هذا العلم ضربا" من العبث ما بعده عبث.

ومما يؤسف له أيضا" أن أبناء جيلنا من المسلمين لا يلمون من تاريخنا إلا بنتف قليلة من هنا أو هناك، ومعظم هذه النتف لقنوها تلقينا" أيام المدرسة، أو سمعوها من أحد خطباء المساجد وهم ينتظرون بكل لهفة خروج عبارة " وأنت يا أخي أقم الصلاة " من بين شفتيه.

إن معلومات أبناء جيلنا عن تاريخ أمتهم لا تتجاوز، على الأغلب، أسماء بعض القادة والمعارك، وبعض القصص

الطريفة التي قد لا تصمد أمام التحقيق العلمي، وقد شاركتهم أنا أيضا" في هذا الجهل، مما شكل مهمازا" دفعني إلى البحث والدراسة في المصادر والمراجع التاريخية، باحثا" عن إجابات عن الكثير من الأسئلة التي كانت تلح علي، خاصة عندما يتعلق الأمر بمسألة أشم من خلالها رائحة الاستشراق، وما سار على دربه من الاتجاهات والمدارس الفكرية. ومما يدعو إلى الأسى الشديد، أن شريحة ليست بالصغيرة من شبابنا المسلم تستهويها قراءة سير الإسكندر ونابليون وغيفارا وأحداث الحرب العالمية الثانية ـ على سبيل المثال ـ أكثر مما تستهويها قراءة أحداث مهمة ومفصلية في تاريخ أمتنا العظيم، ولا شك أن هذا يعود، في جانب كبير منه، إلى حالة " التغرب " التي يعيشها الكثير من القراء في بلادنا، والإعجاب الشديد الذي يكنونه لكل ما هو أجنبي، أو غربي على وجه التحديد.

والملاحظ أن هناك نقصا" كبيرا"، كما" ونوعا"، في الكتب والدراسات ذات الصلة بالمرحلة التاريخية التي تناولها

**هذا الكتاب (مرحلة الفتوحات الإسلامية)، وذلك بالقياس إلى عظمة وأهمية هذه الفترة بالنسبة لنا كمسلمين، إضافة إلى ضعف وركاكة وسطحية العديد من الكتب والدراسات، وتواكلها المطلق على المصادر التاريخية الأولى، دون تمييز بين غث وسمين، أو استسلامها المخزي لآراء وترّهات المستشرقين والعلمانيين.**

**إن ما ينبغي على كل مسلم أن يعيه ويؤمن به، أن تاريخنا – خلال القرون الأولى التي تلت البعثة الشريفة – هو تاريخ مشرق وعظيم، رغم كل ما يثار حول الفترات المظلمة منه، بل إننا لن نبالغ إذا ما قلنا أنه تاريخ " مثالي " بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، بمقارنته بتاريخ الفراعنة والإغريق والأوروبيين والصينيين والهنود وسواهم من الأمم، خاصة عند إلقائنا نظرة شاملة عليه، تتناول مختلف الجوانب الحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقبل كل شيء، الدينية؛ لأن هذه النظرة كفيلة بوضع كل شيء في**

نصابه، دون تشويه للحسنات والإيجابيات، أو تهويل للأخطاء والعثرات.

إن ذلك التاريخ الباهر لا يستحق منا أبدا" هذا الإهمال الكبير، والتهاون في دراسته وتأمله واستنباط الدروس والعبر منه، الأمر الذي كان أحد أسباب تأخرنا وضعفنا وهواننا منذ عدة قرون، وأحد أبرز العوامل التي جعلت الأمة في حالة قطيعة مع نفسها.

لقد تعمدت أن اخصص موضوع كتابي هذا للحديث عن أكثر مراحل التاريخ الإسلامي إشراقا"، وهي فترة البعثة النبوية والعهدين الراشدي والأموي، متناولا" بالتحديد الغزوات والمعارك والفتوحات الإسلامية لغاية العهد الأخير من الدولة الأموية، أو ما يمكننا أن نسميها مرحلة الفتوحات الإسلامية الكبرى والأولى، تمييزا" لها عن الفتوحات التي تمت في حقب لاحقة في آسيا الصغرى والبلقان وغيرها، وذلك في محاولة غير مباشرة للرد على أولئك الذين تعمدوا تسليط

الضوء على الأحداث المثيرة للجدل والخلاف في نفس تلك الفترة، مثل الفتن التي عمت العالم الإسلامي منذ عهد عثمان رضي الله عنه، متجاهلين في الوقت نفسه الإنجازات العظيمة والفتوحات الكبيرة التي تم تحقيقها في نفس الفترة.

وقد حبذت أن أطلق على هذا الكتاب اسم " صليل السيوف "؛ لإيماني بأن علينا، كمسلمين، أن ننصت جيدا" لصوت تلك السيوف اللامعة التي صنعت قدرنا، وقدر العالم المعمور، قبل حوالي 14 قرنا" من الزمن، لأنه في ذلك الصوت سنجد أنفسنا، ونفهم ماضينا، وكذلك حاضرنا، وستتحدد أمامنا خيارات مستقبلنا...

كما سعيت لأن يكون أسلوب عرض موضوع الكتاب بسيطا" وعميقا" وشاملا"، دون الدخول في التفاصيل الدقيقة، التي قد تتسبب في تشتيت ذهن القارئ المبتدئ، أو تسلل الملل إلى قلبه، فقد كان الهدف الأساسي الذي وضعته لنفسي خلال رحلة تأليف الكتاب، وما أضناها وأروعها من

رحلة في آن معا"، هو تقديم صورة بانورامية شاملة وواضحة، بأسلوب ممتع، عن تلك الفترة التاريخية، لكنني في الوقت نفسه كنت مصرا" على عدم الأخذ بالأسلوب المدرسي الجاف، الذي تتسم به الكثير من الكتب التي ألفت في هذا المجال.

والحق أقول، أنني واجهت خلال تأليف هذا الكتاب العديد من الصعوبات، وصدمت لما وجدته من تضارب كبير في المعلومات بين المصادر التاريخية الرئيسية التي تتحدث عن تلك الفترة، كما صدمت لركون بعض المحسوبين على الباحثين التاريخيين لبعض المصادر دون تمحيص أو تحليل، وقد وجدت نفسي أقضي وقتا" طويلا" في التنقيب في المصادر والمراجع والدراسات في محاولة لتحديد التاريخ الأكثر دقة لحدوث معركة ما على سبيل المثال.

وقد تجنبت الحديث في هذا الكتاب عن التفاعلات السياسية والاجتماعية داخل الدولة الإسلامية، أو التطرق

**للمعارك التي خاضها المسلمون في إطار الصراعات الداخلية، كحروب الردة ومعارك الفتنة، أو الحملات التي شنوها ضد بعض الحركات الانفصالية التي قامت في بعض المناطق المفتوحة، كما لم أخض في الصراعات الطويلة التي قامت بين الأمويين والروم خارج إطار عمليات الفتح الإسلامي لمستعمرات الروم في الشام والجزيرة الفراتية ومصر وشمالي إفريقيا؛ وذلك لصعوبة تغطية كل ذلك بين دفتي كتاب واحد، دون التأثير سلبا" على عمق الموضوع وشموليته.**

**وقد استعرضت في الفصل الأول بعض الحقائق العامة التي ارتأيت ضرورة إبرازها أمام القارئ الكريم، قبل أن يبدأ رحلته في تتبع الإنجازات الباهرة لأجداده المسلمين، وهي حقائق تعرضت للكثير من محاولات التزوير والتدليس والتشويه من قبل جهات عديدة، وانساق خلفها للأسف الكثيرون من أبناء هذه الأمة عن حسن نية ممزوجة بجهل فاضح بالدين والتاريخ، بل وبأبسط حقائق العلوم الإنسانية.**

**أما الفصل الثاني، فقد خصصته للحديث عن أبرز المعارك التي خاضها المسلمون خلال الفترة النبوية، والتي أسفر عنها توحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية التوحيد، وتحول الدولة الإسلامية الفتية إلى قوة إقليمية صاعدة.**

**وفي الفصل الثالث تناولت فتحي الشام ومصر معاً؛ بسبب الارتباط الشديد بينهما لعوامل عدة يطول شرحها، ثم تحدثت في الفصل الرابع عن فتح العراق وفارس الذي عاصرت وقائعه ومعاركه فتحي الشام ومصر، أما الفصل الخامس فقد تناولت فيه فتح الشمال الإفريقي الذي استهلك وقتاً طويلاً، وشابه العديد من مراحل المد والجزر، ثم خصصت الفصل السادس للحديث عن فتح الأندلس (إسبانيا).**

**وفي الفصل السابع، ومراعاة للتسلسل الزمني، عدت بالقارئ إلى الشرق الإسلامي، لأتناول فتحي السند وبلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى)، ثم عدت في الفصل الثامن والأخير إلى الغرب، لأخوض في محاولات المسلمين لفتح**

**فرنسا وتوقفهم على مقربة من مدينة باريس، هذه المحاولات التي كانت، في حال نجاحها، ستغير وجه التاريخ الأوروبي والغربي، بل والعالمي، إلى الأبد.**

**وفي الختام، أدعو البارئ عز وجل أن أكون قد وفقت في تحقيق الهدف من وراء إخراج هذا الكتاب إلى النور، وإن أصبت فمن الله عز وجل، وإن أخطأت فمن نفسي المتواضعة ومن الشيطان.**

**والحمد لله أولا" وآخرا"، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.**

**فراس حامد نويران الخوالدة**

**حيان الرويبض – المفرق – الأردن.**

رجوع للفهرس

# الفصل الأول
# مدخل ضروري

في الوقت الذي ضربت فيه الفوضى أطنابها في القارة الأوروبية، بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وسقوطها بيد (البرابرة)، كان الشرق على موعد مع نور الإسلام، الذي انبثق من مكة خلال السنوات الأولى من القرن السابع الميلادي، وسط غفلة من العالم المعروف آنذاك، من إيرلندا غربا" وحتى اليابان شرقا"، مرورا" بالإمبراطورية البيزنطية العتيدة، وإمبراطورية الساسانيين العريقة.

وبعد أن انبثق هذا النور الوهاج من بين شعاب مكة وحرات المدينة وبساتين الطائف، آن له أن يشع في كل الاتجاهات، فتحمله قلوب المؤمنين، ودعوات الصالحين، وصفات المتقين، وسيوف المجاهدين، عبر الفيافي والجبال والبحار؛ لتخرج الأقوام والشعوب المطحونة منذ أزمنة طويلة

**من بحار الضلال وغياهب الظلم، وتخلصها من آهات الجوع وظلمات الجهل.**

**وقبل ذلك كان الشرق، المعروف حاليا" على نطاق واسع بالأدنى أو الأوسط، قد فقد مكانته الحضارية والسياسية لعدة قرون من الزمن، وتحول إلى عملاق مقيد، بعد أن غدت بعض أقطاره، التي كانت مهد الإمبراطوريات الأولى البائدة، مجرد أهراء لروما، ثم لوريثتها القسطنطينية، باستثناء فارس وبلاد الرافدين، اللتين انضوتا تحت حكم مجوسي استبدادي فاسد أسسه أردشير بن بابك سنة 226 م، وشبه الجزيرة العربية التي كانت قبائلها البدوية ككندة وقريش وتغلب وثقيف منغمسة في صراعات محلية لا نهاية لها، واليمن التي تراجع دورها التاريخي الريادي، بعد أن انهار سد مأرب، ثم غزاها الأحباش فالفرس لفترة من الزمن.**

**وإن ما يثير الدهشة والإعجاب، أن عملية الفتح الإسلامي الأولى والرئيسية والكبرى استغرقت قرنا" واحدا"**

فقط من الزمن، انتهى باحتلال المسلمين لكامل المنطقة الممتدة من كاشغر (على حدود الصين) شرقا" إلى المحيط الأطلسي غربا"، وبذلك تكون الدولتان الأموية والعباسية قد شملتا مساحات أكبر من تلك التي ضمتها الإمبراطوريات السابقة، ومن ضمنها المقدونية والرومانية، ومما يثير الدهشة أيضا"، أن ذلك القرن الذي استغرقته عملية الفتح، والذي يمتد منذ الهجرة النبوية المباركة وحتى إتمام غزو الأندلس والسند وبلاد ما وراء النهر، قد حدثت فيه العديد من الفتن الداخلية والاضطرابات السياسية، التي كادت أن تعصف بوجود الدولتين الراشدية فالأموية، كاستشهاد عثمان رضي الله عنه، والصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وفتنة الخوارج، وثورة عبد الله ومصعب ابني الزبير، غير أن جميع تلك الفتن والاضطرابات لم تتسبب في توقف كامل أو وضع حد نهائي لعمليات الفتح، إلى أن أوشكت شمس الدولة الأموية على الأفول.

ولو قارنا بين الإمبراطوريتين الرومانية من جهة، والإسلامية (في زمن الأمويين والطور الأول من عهد العباسيين) من جهة أخرى، لوجدنا أن الأخيرة تفوقت على سابقتها، ليس في المساحة التي بلغتها والبلدان والشعوب التي ضمتها تحت رايتها فحسب، وإنما في سرعة التوسع الحربي والسياسي أيضا"، إذ نلاحظ أن الإمبراطورية الرومانية احتاجت إلى عدة قرون قبل أن تصل إلى أقصى اتساع لها، بينما لم يستغرق ذلك بالنسبة للإمبراطورية الإسلامية سوى مائة سنة تقريبا" كما سبق أن أشرنا، فبين نشوء مدينة روما ككيان سياسي وبلوغها أقصى اتساع لها في عهد تراجان هنالك فترة زمنية تزيد عن السبعة قرون، حيث لم تصبح روما خلالها قوة دولية كبرى إلا في وقت متأخر، كما اتسمت إبان ذلك بالتذبذب الملحوظ بين القوة والضعف، لدرجة أنها كادت في مرحلة من المراحل أن تسقط بيد الغزاة القرطاجيين بقيادة هانيبعل.

ورغم أن الحديث عن أسباب توقف الفتوحات الإسلامية، ومن ثم تراجع القدرات الحربية للمسلمين عبر القرون التالية، يحتاج إلى عدة مجلدات ضخمة، فإن ما يجب أن ندركه هو أن العرب والمسلمين كانوا مع نهاية القرن الأول الهجري قد استنفدوا، كأمة وكدولة، كامل طاقاتهم الحربية والسياسية، بعد أن أخضعوا أغلب أجزاء العالم المعمور وقتئذ، ثم بدأت تسري عليهم سنن الكون والتاريخ، شأنهم في ذلك شأن كل الأمم السابقة واللاحقة.

وقد أجحف كثير من المؤرخين، بقصد أو بدون قصد، بحق التاريخ العسكري الإسلامي، محاولين طمسه عبر التقليل من وهج الإنجازات الحربية الباهرة للفاتحين والمحررين المسلمين، التي غطت معظم أرجاء العالم القديم، لدرجة أن موسوعة التاريخ العسكري الأمريكية لم تتحدث عن معركة اليرموك الفاصلة والعظيمة إلا باقتضاب شديد ومشين، وتحت عنوان فرعي عن معارك المسلمين في فارس! حيث اكتفت بذكر انتصار خالد بن الوليد فيها، بينما لا يتورع مؤرخونا عن

التعمق في دراسة سير حياة واشنطون وجياب وايزنهاور بمنتهى الحماس! ومما لا ريب فيه أبدا"، أنه إذا كانت معركة اليرموك غير ذات أهمية في تاريخ العالم، وهي التي أنهت السيادة العالمية للقسطنطينية، ومهدت لاستيلاء المسلمين على الشام ومصر وشمالي إفريقيا، فإن معارك أخرى، كالأرمادا وواترلو والعلمين والنورماندي، لا تعدو كونها حوادث هامشية خاملة الشأن ضمن المسار العام لتاريخ العالم.

لقد سعى المستشرقون والعلمانيون بكل السبل إلى تشويه تاريخنا العريق، ومن ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى طمس جوانبه المشرقة والتقليل من أهميتها، والتركيز على القليل من التجاوزات والأخطاء التي ارتكبت في بعض المراحل، ثم يحاولون تعميمها على مجمل المسار التاريخي الإسلامي، بل بلغ الأمر لدرجة أن أحد المؤرخين الغربيين (إغناسيو أولاغي) شكك بصحة حدوث الغزو الإسلامي للأندلس، ووصفه بـ " الخرافة "! وقد كان المستشرقون - كهاملتون جب وزويمر - ينظرون إلى التاريخ الإسلامي بمنظار غربي بحت، قوامه

الحقد والعداء وضحالة المعلومات، كما أنهم اعتقدوا – أو تعمدوا إظهار هذا الاعتقاد والترويج له – أن جنود الفتوحات الإسلامية ومقاتلي الشواتي والصوائف لم يكونوا يختلفون في دوافعهم واتجاهاتهم وأخلاقياتهم عن جنود الاستعمار الأوروبي الحديث، الذين عاثوا فسادا" في سائر أنحاء الدنيا، قبل أن يقاتلوا بعضهم بعضا" في حربين عالميتين مدمرتين، سيكتب التاريخ أنهما كانتا إحدى المسامير الأولى في نعش الحضارة الغربية.

ومن ناحية أخرى، فإن كثيرا" من الذين تناولوا تاريخ الفكر العسكري نظروا إلى مرحلة العصور الوسطى - التي كان العرب والمسلمون خلالها هم أسياد العالم ورموز الحضارة دونما منازع - على أنها مرحلة تأخر وانحطاط بالنسبة للفن والفكر العسكري، ومما يدعو للأسف أن بعض الباحثين والمؤرخين العرب ساروا على نهجهم وطرحهم دون وعي أو تمحيص، فتناسوا أن الأمر كان كذلك بالنسبة لأوروبا فقط، فحتى الجيوش الصليبية، التي تدفقت على البلاد العربية

**كالسيل الجارف منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، كان يعوزها التنظيم، إذ لم تكن سوى مجموعات من المرتزقة الساعين وراء المال والسلب والنهب، والحجاج المسيحيين، والهاربين من الواقع الإقطاعي المرير في بلدانهم، ومن المعروف أن العالم الغربي لم يعرف جيوشا" نظامية بمعنى الكلمة إلا لاحقا".**

**لقد كان العرب والمسلمون إبان العصور الوسطى، المظلمة بنظر الغربيين، الممتدة منذ سقوط شعلة الحضارة في الغرب (روما)، وحتى انبلاج فجر عصر النهضة في أوروبا الغربية، ينعمون في عصرهم الذهبي الذي كانوا خلاله أسياد فن وعلم الحرب ورواد الإستراتيجية، مثلما كان حالهم في شتى الميادين الحضارية، فأخرجوا للعالم العديد من عباقرة الحرب وأساطين السياسة، من أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي وعقبة بن نافع الفهري وطارق بن زياد وأسد بن الفرات ونور**

**الدين زنكي وصلاح الدين وقطز، بينما كان أشهر زعماء العالم الغربي في تلك الفترة الإمبراطور شارلمان أميا".**

**ولو تناولنا ليدل هارت، المفكر العسكري الإنجليزي المعروف، سنجده يتحدث عن الإستراتيجية على أنها من صنع وإبداع أبناء الغرب، بدءا" من حروب اليونانيين القدماء وحتى الحرب العالمية الثانية، فهو رغم إبحاره خلال دراسته للإستراتيجية في بحار التاريخ وحديثه عن الكثير من القادة مثل مارلبورو ونابليون، نلاحظ أنه لم يذكر العرب والمسلمين أبدا"، ونعتقد أنه في قرارة نفسه لم يكن غافلا" عن أنه وعلى الرغم من أن (الإستراتيجية) كمصطلح لم تستخدم إلا منذ قرنين من الزمن، فإنها طبقت على نطاق واسع وفي مختلف الحروب منذ أيام الفراعنة والسومريين.**

**وحري بنا القول، أن كثيرا" من المصادر التاريخية الإسلامية، التي تناول مؤلفوها التاريخ السياسي والحربي**

للمسلمين، كان ينقصها العديد من سمات المنهج العلمي في البحث التاريخي، وهو منهج لم تتكامل سماته إلا في القرون الأخيرة، وتحديدا" منذ أيام ابن خلدون، فنجد أن بعض هذه المصادر استعرضت مراحل التاريخ الإسلامي بشكل عام يفتقر إلى كثير من التفاصيل الضرورية، وبأسلوب خالٍ من التعمق الفكري والتحليل العلمي الرصين، فاكتفت بذكر الحوادث وفق تسلسل السنوات، أو وفق الأحداث البارزة، كفترات حكم الخلفاء والسلاطين أو الفتن والحروب، كما اختزلت الأحداث في أشخاص محددين، وتجاهلت العوامل العديدة والظروف المتشابكة التي وجدوا خلالها، بل إننا نلاحظ أيضا" تفاوتا" في تحديد التاريخ الذي وقعت فيه أحداث كبيرة كمعركة أو تعيين قائد أو استشهاده، وقد يصل هذا التفاوت في بعض الأحيان إلى عدة سنوات، كما هو واضح في تاريخ فتحي الشام وإفريقية، إضافة إلى التفاوت في تقدير أعداد الجيوش أو القتلى، والذي وصل في بعض الأحيان إلى الضعف، مما يضيف عبئا" كبيرا" على الباحث التاريخي، ويتسبب في إرباك شديد للباحث والقارئ على حد سواء، ونلاحظ أيضا" أن بعض

المؤرخين كان يحشو كتابه بالأخبار والروايات دون تمحيص لمعرفة مدى دقتها أو صحتها، كما كان بعضهم يركز على الأحداث الثانوية، مهملا" في الوقت نفسه أحداثا" أخرى أكثر أهمية لا يكتمل البحث التاريخي إلا بإشباعها تحليلا" ودراسة.

بل إننا قد نجد مراحل بأكملها من التاريخ الإسلامي، مثل فتحي الشام والسند، لا تتوفر لنا عنها سوى معلومات غير متكاملة ومشوشة وروايات متضاربة يصعب التحري من مدى صحتها، ومن ناحية أخرى، تسبب فقدان أكثر أعمال المؤرخين المسلمين، الذين وجدوا في الفترة الممتدة بين أواخر القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثالث الهجري، في إضفاء المزيد من الغموض على مراحل برمتها من التاريخ الإسلامي.

لقد ضمن بطرس البستاني في مقدمة كتابه (معارك العرب في الشرق والغرب) وصفا" دقيقا" وشاملا" لحالة المصادر التاريخية العربية، فيقول: " يقف الباحث في التاريخ العربي ودونه مجلدات قديمة ضخمة، متشعبة الدروب

والمسالك، مشتبهة المعالم والمجاهل، تختلط فيها الحقيقة بالأوهام، والحوادث بالأساطير، تتعدد الروايات فتختلف وتتناقض، وتثبت وتنفي. توجز في مواضع يحمد عندها الإسهاب، وتسهب في مواضع لا يضيرها الإيجاز. تدون أتفه الأخبار حينا"، وتغفل أحيانا" عظائم الأمور. تبني تاريخها على ما يجري من الأحداث المادية كل سنة كالولادة والزواج والولاية والحروب والفتن والوفيات، وتنسقه على قيام الدولة وذكر ما ينتابها من الخطوب حتى سقوطها وتغلب دولة أخرى عليها، دون أن تعنى بتعليل الأسباب التي أدت إلى قيامها وانهيارها كما يقتديه فقه التاريخ .. ".

أما الجنرال الباكستاني أكرم فيقول في مقدمة كتابه القيم عن خالد بن الوليد: " كان للسيف دائما" مكان الشرف في الثقافة الإسلامية. ومع ذلك فلا يعرف إلا القليل في العالم اليوم عن التاريخ العسكري الإسلامي، كذلك لا يوجد عمل واحد مكتوب من قبل مفكر عسكري ذي خبرة يستند على البحث الصحيح والدراسة الشاملة للأرض، والوصف التفصيلي

للمعارك الإسلامية الشهيرة. وفي الحقيقة لا يوجد بحث حقيقي، بل على النقيض يوجد فراغ "، ومن المعروف أن الجنرال أكرم، الذي كان خلال ستينات القرن الماضي مدرسا" في أحد أهم المعاهد العسكرية في بلاده، قد قام بزيارة السعودية والعراق والأردن والكويت ولبنان وسوريا؛ لكي يدرس بنفسه ميادين المعارك التي خاض خالد غمارها، وخلال زيارته لسوريا والأردن خلال سنة 1968 قام بالحصول على إذن رسمي للتجول في خطوط الجبهة مع إسرائيل؛ لكي يدرس طبوغرافية المنطقة التي دارت عليها ملحمة اليرموك، كما أنه ذهب إلى لندن للبحث عن المصادر التاريخية في المتحف البريطاني.

ولو أخذنا على سبيل المثال كتاب (فتوح الشام) المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي البغدادي (747 – 822 م) صاحب التصانيف والمغازي اللامع الصيت، فإننا، وبصرف النظر عما يقال حول صحة ودقة الأخبار والروايات الواردة فيه، أو الإضافات التي دست فيه في زمن متأخر، نجد أنه يتسم

بالأسلوب القصصي البحت الخالي من التحليل والتمحيص، والشبيه بالسيناريوهات الدرامية التاريخية في أيامنا هذه، وغير المستند إلى أي من الأساسيات العلمية والمنهجية في البحث التاريخي، فبينما يتجاهل الكاتب أحداثا" غاية في الأهمية، نجده يركز على الرؤى المنامية والبطولات الفردية والحوارات بين القادة والزعماء، ومما لا ريب فيه أننا لا نستطيع التسليم بصحة هذه الحوارات؛ بالنظر إلى طولها وحدوثها في مناسبات لم يحضرها الكثير من الشهود الذين يمكن التحقق من صدقهم.

ومن هذه الحوارات، ذلك الحديث الطويل الذي دار في غرفة مغلقة بين يوقنا ويوحنا حاكمي حلب قبيل حصار المسلمين لها، ذلك أن أحدا" من المسلمين أو الروم لم يشهد هذا الموقف، بينما نجد أن الكاتب قد أورده بكامل تفاصيله، وكأن أحد (الصحفيين) قد شهد الاجتماع وغطى تفاصيل مجرياته بالصوت والصورة، مثلما هو حاصل في زمننا الحاضر! وإن من أبرز الأدلة التي تجعلنا نعتقد بعدم صحة

الاستناد إلى هذا الكتاب وصاحبه في دراسة تاريخ فتح الشام، تلك القصة العجيبة التي رواها عن يوقنا صاحب قلعة حلب الذي لم يكن يفقه العربية، ثم رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في منامه، حيث طلب منه يوقنا بعد أن أسلم على يديه أن يعلمه اللغة العربية، وعندما استيقظ من منامه وجد نفسه يتكلم العربية بطلاقة!

غير أن علينا أن لا ننسى أن الأخطاء سالفة الذكر لم يرتكبها مؤرخو العرب والمسلمين فقط، بل نجدها كذلك لدى المؤرخين الغربيين الذين نقلوا إلينا التاريخ اليوناني والروماني والأوروبي الوسيط، كما نجدها واضحة وضوح الشمس في عز الظهيرة في ترّهات وتناقضات أمثال ديورانت وبروكلمان وبرنارد لويس عن تاريخنا.

أما مؤرخونا المعاصرون، فقد انساق بعضهم وراء كتابات المستشرقين، وكانت النتيجة أن الدراسات والمؤلفات التي

تناولت تاريخ المسلمين جاءت في كثير من الأحيان مبتورة وسطحية، وتعج بالمغالطات والمبالغات والتناقضات.

لقد آن الأوان لإنشاء مؤسسات علمية متخصصة في دراسة التاريخ الإسلامي بكافة مناحيه ـ ومن ضمنها العسكري ـ بعيداً" عن الروايات غير الموثقة، وبعيداً" كذلك عن ترّهات وأكاذيب المستشرقين وبعض المؤرخين والباحثين المسلمين المعاصرين، وسوف لن نبالغ إذا قلنا أن تاريخنا يجب أن يقرأ – قبل أن يكتب ـ من جديد، ومما يجب القيام به في هذا الحقل الهام إعادة تحقيق المصادر التاريخية القديمة، وإخراجها بقالب جديد يعتمد النهج الحديث في إعداد الكتب وإخراجها؛ لكي يسهل على الباحثين والقراء أن ينهلوا من ينابيعها الثمينة.

وننتقل الآن إلى محور آخر مهم ينبغي أن نتناوله قبل أن نبدأ رحلتنا التاريخية مع الفتوحات الإسلامية، ذلك أن الكثير من المؤرخين والباحثين سعوا إلى الادعاء بأن الإسلام لم

ينتشر بين الأمم والشعوب إلا بحد السيف ومنطق القوة، متجاهلين حقيقة أن معظم الثورات والاضطرابات التي قامت في جسد الدولة أو الدول الإسلامية كانت ذات بعد سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، ولم تكن ناتجة عن القمع والتمييز المستند إلى خلفية دينية، وأن أيا" من الشعوب التي اعتنقت الإسلام على امتداد قارات العالم القديم لم تحاول الارتداد عنه، بل إنها تمسكت به، ودافعت عنه لاحقا" أمام القوى الاستعمارية التي تداعت عليها من كل صوب، أضف إلى ذلك أن المسلمين لم يكونوا يجبرون أهالي البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، وعمدوا إلى وضع خيار آخر أمامهم تمثل في دفع الجزية، التي كانت ترمز إلى سيادة النظام الحاكم الجديد، وإلى واجب هذا النظام في حمايتهم من أي اعتداء داخلي أو خارجي، وقد كانت عبارة عن ضريبة رمزية، إذا ما قورنت بتلك التي كان يفرضها الروم والفرس وغيرهم من الأمم التي سبقتهم وتلتهم على مسرح التاريخ. ويحدثنا المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري في (فتوح البلدان) أنه عندما اضطرت قوات المسلمين في شمالي الشام إلى الانسحاب من بعض المناطق

المفتوحة، في بعض مراحل الصراع مع الروم، قام القادة المسلمون بإعادة أموال الجزية التي كانوا قد حصلوا عليها من أهلها؛ لعدم قدرتهم وقتئذ على حمايتهم من القوات الرومية، فهل نجد ما يوازي هذه اللفتة الإنسانية العظيمة في تاريخ الرومان أو الهولنديين أو الإنجليز مثلا"؟

ولا ننسى أن الإسلام انتشر بين أبناء البلدان المفتوحة كمصر والمغرب بالتدريج، مما يؤكد على أن ذلك تم بالأساليب الدعوية السلمية وباحترام حرية اختيار المعتقد، وليس عبر جر الأهالي بالسوط والسيف وأكياس النقود إلى المساجد، بل إن إندونيسيا المترامية الأطراف والمتناثرة الجزر، والتي تعد حاليا" من أكبر أقطار العالم من حيث عدد السكان، لم تصلها قوات الفتح الإسلامية نهائيا"، ولم ينتشر فيها الإسلام إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، التي كان يتّبعها التجار البسطاء وغير المنتظمين في مؤسسة أو جمعية ذات إمكانات مالية كبيرة، بعكس أصحاب النشاطات التبشيرية النصرانية في عصرنا الحالي، ولو كان السيف قادرا" على إجبار البشر على

تغيير دينهم، لكان الاستعمار الهولندي، المعروف بقسوته ودمويته، قد نجح في دفع الإندونيسيين إلى اعتناق النصرانية خلال الثلاثة قرون التي جثم خلالها فوقهم. أضف إلى ذلك أن النجاح الذي أحرزه الدعاة المسلمون في نيجيريا خلال القرن الماضي، ودفعهم للكثير من الوثنيين إلى اعتناق الإسلام بالوسائل الدعوية - رغم قلة الإمكانات المادية المتوفرة لهم - يؤكد ما نرمي إليه، خاصة إذا علمنا أن الإرساليات التبشيرية فشلت في ما نجح فيه هؤلاء في نفس المنطقة ونفس الفترة، رغم الدعم السياسي والمادي الهائل الذي تم تسخيره لها.

وخلاصة القول، أنه إذا كان " نفوذ " الدولة الراشدية فالأموية قد انتشر بحد السيف ومنطق القوة، وفق سنن البشر والتاريخ التي أودعها الله سبحانه وتعالى في دنيانا هذه، فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن الإسلام نفسه قد انتشر بالقوة والعنف أيضا"، وإن كان علينا أن نقر بأنه لولا القوة المادية التي اكتسبها المسلمون ونمّوها منذ معركة بدر لكانت الظروف السياسية والأمنية من حولهم قد باتت غير ملائمة

مطلقا" لممارسة عباداتهم، ناهيك عن نشر دينهم أو على الأقل حماية حق أبناء الأمم الأخرى في اعتناقه، إذ أن الإسلام لم يجد طريقه إلى أقاصي القبائل في شبه الجزيرة إلا بعد تحول الدولة الإسلامية في المدينة إلى قوة ذات بأس شديد، فتوفرت للمسلمين القدرة على الدعوة إلى الله عز وجل في مناخ آمن وبوسائل " قوة ناعمة " فعالة ونظيفة، وإذا كان الكثير من عرب شبه الجزيرة قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى دخول الإسلام بدافع الخوف أو المصلحة أو الخنوع للواقع المحيط بهم، فإن نسبة كبيرة منهم - والنسبة الساحقة من أبنائهم وأحفادهم – قد حسن إسلامها مع مرور الوقت، وأصبحت جزءا" من الطاقة البشرية الكبيرة التي حملت الدين الحنيف إلى أطراف العالم المعمور.

ومن ناحية أخرى لم يكن المسلمون أهل سلب ونهب وتنكيل وإبادة جماعية كما كان الهون والمغول والإنجليز وغيرهم، وقد عاملوا سكان المناطق المفتوحة بكل نبل وتسامح وإنسانية، ونقلوا إليهم خلال ذلك الكثير من القيم

السامية التي علمهم إياها دينهم الحنيف، فترجموا إلى أرض الواقع قوله تعالى: ((لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)) (البقرة: 256)، وقوله تعالى: ((وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِين)) (البقرة:190)، وتمثلوا بوصية خليفة رسول الله أبي بكر: " وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا" ولا شيخا" ولا امرأة ولا طفلا"، ولا تعقروا بهيمة.. ولا تغدروا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا".. فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم ".

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن القادة المسلمين، خاصة المبكرين منهم، قد تحلوا بأسمى الصفات الإنسانية المستمدة من روح الشريعة الإسلامية، بينما كان البطش والثأر والتنكيل هو محور حياة غيرهم من قادة العصور القديمة والحديثة منذ أيام لوغال زجيزي ورمسيس الثاني وحتى أيام هتلر وبوكاسو، ومن أبرز الإشارات التاريخية التي تؤكد ما نرمي إليه، أنه عندما اضطرت حامية حمص إلى عقد الهدنة مع القوات

**الإسلامية، إبان فتح الشام، فوجئ أهلها بأن الجنود المسلمين، الذين سمحت لهم بنود الهدنة بشراء حاجياتهم من سوق المدينة، كانوا يدفعون ثمن ما يشترونه، بدلا" من أن ينهبوا المتاجر والحوانيت، كما كان حال الجيوش المنتصرة والغازية!**

**وإذا كانت هناك بعض الأخطاء والتجاوزات التي ارتكبت في بعض المحطات المتأخرة من التاريخ الإسلامي، فإنها لا تعدو كونها مجرد استثناءات، يتحمل مسئوليتها بعض القادة، وليست سوى نقاط سوداء صغيرة وقليلة في صحيفة بيضاء مشرقة، ومن الغبن تحميل وزرها لكامل البناء الحضاري والسياسي للدولة الإسلامية، وإن وجود هذه الأخطاء والتجاوزات لا ينفي بأي حال من الأحوال حقيقة أن الإسلام لم ينتشر إلا بتأثير روحه السامية، الملائمة للفطرة البشرية، والقائمة على التوازن والعدل والحرية والمساواة، إضافة إلى الإشعاع الحضاري للدول الإسلامية، التي جعلت من دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وبخارى أعظم مدن العالم لفترة طويلة من الزمن.**

**وقد كانت أغلب الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون إما دفاعية وتحريرية كعمورية وعين جالوت وحطين، أو استباقية (ضرورية وعادلة) كفتح إفريقية وإسبانيا، وقد وجد المسلمون أنفسهم لما يزيد عن مائة عام من الزمن مدفوعين، وفق أحكام السياسة والجغرافيا، إلى وضع العالم المحيط بهم والغارق في دياجير الظلم والفوضى أمام ثلاثة خيارات لا رابع لها: الإسلام بروحه النبيلة وحكمه العادل وسموه الحضاري، أو الحرب العادلة والضرورية التي خلت من الوحشية والانتقام الأعمى، والتي يمكننا القول أنها مثلت استمرارا" للجهاد بوسائل عنيفة، ضرورية وعادلة، أو الجزية ذات القيمة الرمزية جدا" مقارنة بضرائب الفرس والروم والقوط، وعلى سبيل المثال، تؤكد الوقائع التاريخية أن الصراع الذي احتدم بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى كان حتميا"، حتى لو لم يفكر المسلمون حينئذ بنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية.**

**والجدير بالذكر، أن أغلب قادة الفتوحات الإسلامية الأولى كانوا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، بينما كان البقية من التابعين وتابعي التابعين، كما أن أغلب جنود جيوش الفتح الأولى كانوا يتمتعون بطاقة روحية عالية ندر نظيرها في التاريخ، جعلتهم يتعالون على حطام الدنيا، ويزهدون في الأموال والمناصب ورغد العيش، ويصبرون على مشقات الحروب ومخاطرها، ويستميتون في مجالدة الأعداء، ويندفعون وسط صفوفهم بلا خوف أو وجل، وكأنهم يخوضون حروبا" لا موت فيها! ولعل هذا هو العامل الأول والأساسي وراء تمكن المسلمين من بناء إمبراطورية مترامية الأطراف خلال فترة قياسية، الأمر الذي لم يتكرر في التاريخ إلا عدة مرات.**

**ومما ترويه المصادر البيزنطية في هذا الشأن، أن هرقل أنب أحد قادته لتعرضه للهزيمة أمام القوات الإسلامية في الشام، فرد عليه هذا قائلا": " إنهم أقل منا عددا" ولكن عربيا" واحدا" يعادل مائة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون**

في شيء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط، هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة، في حين نتعلق بأهداب الحياة ونخشى الموت ".

والملاحظ أن من أبرز أسباب الانتصارات الساحقة التي حققها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية في العهدين الراشدي والأموي – بعد العامل العقائدي طبعا" – المرونة الفائقة، والمناورة الإستراتيجية الطابع، وسرعة الحركة التي اتصفت بها جيوشهم بأحجامها الصغيرة بالمقارنة مع جيوش أعدائهم، ورشاقة خيولها العربية الأصيلة، وبساطة تجهيزاتها، وصبر جنودها، وفي مقابل ذلك نجد أن الجيوش التي انتصروا عليها كانت بطيئة الحركة، وعقيمة التنظيم، ومثقلة بتجهيزاتها الكثيرة، وقد أشار الجنرال الإنجليزي جلوب باشا إلى هذه النقطة في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى)، وذلك عند حديثه عن معركة أجنادين: " وهكذا كسب البدو، السريعو الحركة على إبلهم بتعودهم على شظف العيش

والرحيل ليلا" ونهارا" معتمدين في غذائهم على قصعة من الخبز، السباق مع الجيش الروماني البليد المترهل الذي يثقل سيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها "، ولم يخسر المسلمون تفوقهم المادي في أرض المعركة إلا عندما فقدوا هذه الميزة، وهو أمر يمكن ملاحظته بسهولة لدى دراسة معركة بلاط الشهداء والمرحلة الأولى من الحروب الصليبية.

ولا يغيب عنا أن المناخ القاسي والطبيعة الصعبة للصحراء العربية في الحجاز ونجد وغيرها قد عودت أبناء القبائل العربية، الذين انضووا في جيوش الفتح، على الصبر ومكابدة الصعاب، وتحمل مشاق المسير الطويل، والتأقلم مع الحياة الخشنة الخالية من أبسط مقومات النعومة والرفاهية.

وعلاوة على كل ما سبق، فإن العرب، وغيرهم من أبناء " الشرق الأوسط "، هم في حقيقة الأمر الرواد الأوائل في علم وفن الحرب، بوصفهم سليلي الحضارات القديمة التي نشأت في اليمن ومصر والشام والعراق وإيران، تلك

**الحضارات التي كانت أول من حمل مشاعل الحضارة، وسط ظلام دامس ساد بقاع الأرض الأخرى، وبفضلها تعلم الكريديون (الكريتيون) والإيجيون والإغريق أول دروس المدنية.**

رجوع للفهرس

# الفصل الثاني
# على شواطئ سيرة أعظم القادة

إن دراسة شاملة وعميقة للسيرة النبوية الشريفة تظهر لنا على نحو جلي أن الدولة الإسلامية الناشئة لم تكن مخيرة أبدا" بين اللجوء إلى حمل السلاح ضد قريش وغيرها أو عدمه؛ لأن مجرد وجودها ككيان سياسي في شبه الجزيرة، يحمل رسالة مناوئة للشرك والظلم والاستغلال، كان كفيلا" بجعلها في حالة صراع دعوي وسياسي واقتصادي مع جيرانها، ومن الطبيعي جدا" وفق قوانين التاريخ ونواميس الحياة وحقائق السياسة أن يتطور هذا الصراع، ويتخذ بعدا" حربيا" طال الوقت أم قصر، ذلك أن التاريخ البشري لم يحدثنا مطلقا" عن دولة قامت ونمت دون أن تخوض الحروب تلو الحروب مع جيرانها.

مع نزول الآية الكريمة: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز)) (الحج: 39-40)، دخل المسلمون في مرحلة جديدة وحاسمة ومصيرية من تاريخ البعثة النبوية الشريفة، وهي مرحلة الدفاع المسلح عن الدولة والملة، والاستعانة بالسيف في الدعوة إلى الله عز وجل إلى جانب الوسائل الأخرى، أو بعبارة أخرى، استخدام السيف في حماية الدعوة والدعاة ودفع شرور الطغاة والمفسدين والمنافقين.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتمتع بكل الصفات التي يحتاجها رجل الدولة، وقائد بل صانع الأمة، ومن ضمنها الصبر والإيثار والإخلاص والكفاءة القيادية والعبقرية العسكرية وبعد النظر السياسي، رغم أنه كان أميا"، ولم يتلق لحكمة إلهية ناصعة أي تعليم دنيوي ومن أي نوع، ولم يتأثر

بأي من العقائد والاتجاهات التي كانت سائدة في عصره، كما لم تكن له أية نشاطات سياسية أو قيادية قبل البعثة، ومما لا شك فيه أبدا" أنه صلوات الله عليه هو أعظم وأشهر وأنبل وأكثر القادة في التاريخ نجاحا" وتأثيرا" على مصير البشرية في شتى المجالات، وسيبقى كذلك حتى يرث الله عز وجل الأرض وما عليها.

لقد نجح الرسول الكريم بعبقريته الجامعة، المستندة إلى وحي إلهي لا ينطق عن الهوى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبعزيمته الخالية من أية مطامح دنيوية زائلة، في بناء مدرسة حربية جهادية نبيلة الأهداف ونظيفة الوسائل لا نظير لها في العصور السابقة واللاحقة، وقد استندت هذه المدرسة إلى دولة فتية ورائدة، بنيت خلال وقت قياسي بإرادة حديدية نابعة من إيمان عميق، وذلك بعد أن هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته رضوان الله عليهم من مكة إلى يثرب بعد أن ضاقت أمامهم سبل الدعوة، وتعرضوا لشتى أصناف الصد والتنكيل والحصار من قبل المشركين، حيث

تخرج من هذه المدرسة العظيمة المئات من القادة الأفذاذ من الصحابة والتابعين بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلا" من قبل أو من بعد، وقد أصبحت هذه المدرسة نموذجا" باهرا" سعت الأجيال التالية إلى الاقتداء به والسير على منواله، ولا شك أنه كلما اقتربت هذه الأجيال من هذا النموذج صارت أقرب إلى اقتطاف ثمار النصر والولوج إلى ميادين المجد والحضارة.

وقد اعتاد المؤرخون المسلمون على تسمية المعارك التي قادها الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه بالغزوات، أما التي لم يقم بقيادتها فقد سميت بالسرايا أو البعوث، غير أنه أُطلق على بعض السرايا في حالات قليلة اسم الغزوة، مثل سريتي مؤتة وذات السلاسل، حيث أحصى بعض المؤرخين 27 غزوة قادها الرسول الكريم بنفسه، كانت تبوك آخرها، وقد حصل قتال حقيقي في 9 منها، وذلك مقابل 38 سرية أو بعثا" (وفق بعض المصادر) كلف بعض صحابته رضوان الله عليهم بقيادتها.

مثلت معركة بدر الكبرى أول صراع مسلح بين المسلمين والمشركين، علماً" بأنه قد سبقتها بعض العمليات الاستعراضية والاشتباكات الصغيرة بين الطرفين، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكلف بعض الصحابة كحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنهم بالقيام بها، ويروى أن الأخير كان أول من رمى بسهم في سبيل الله، كما قام الرسول الكريم قبل بدر بتنفيذ عدة غزوات لم يحدث فيها قتال، عرفت في تاريخنا بأسماء الأبواء (ودان) وبواط والعشيرة وبدر الأولى.

عندما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بأن قافلة قريش التجارية باتت في طريق عودتها من الشام قرر أن يستولي عليها؛ بهدف استعادة الأموال التي كان المشركون قد صادروها ظلماً" من المسلمين على إثر هجرتهم إلى المدينة، فكلف بعض الصحابة بذلك، وكان المسلمون قد حاولوا

التصدي لهذه القافلة وهي في طريقها إلى الشام في منطقة العشيرة، إلا أنهم لم يدركوها فعزموا على ترقب عودتها.

وكان استيلاء المسلمين على القافلة التي يحرسها حوالي ثلاثين رجلا" سيمثل بدون شك ضربة اقتصادية قاصمة لسادة قريش، فبعض المصادر التاريخية تشير إلى أنها كانت تحمل ثروة كبيرة، تضم ما يوازي خمسين ألف دينار ذهبي وألفين وخمسمائة بعير.

غير أن قائد القافلة أبي سفيان بن حرب فطن إلى هدف المسلمين، فقام بسلوك طريق ثانوية قريبة من ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)؛ لكي ينجو بالقافلة، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى أولي الأمر في قريش يستنفرهم لنجدتها، وعندما وصل هذا إلى مكة جدع أنف جمله وقطع أذنيه وحوّل رحله، وأخذ يصيح: " يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث ". وقد أدرك سادة مكة عندئذ أن

**المسلمين أصبحوا يشكلون تهديدا" خطيرا" لطريق تجارتهم مع الشام؛ مما جعلهم مصممين على خوض المعركة معهم، خاصة بعد أن تعهدت قبيلة كنانة بعدم استغلال غياب مقاتلي قريش عن مكة فتشن الهجوم عليها.**

**وهكذا أصبح المسلمون في واقع يفرض عليهم الدخول في معركة ضد قريش، التي ظن زعماؤها أنهم سيتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم بسهولة، وأرادوا جعل عمليتهم الحربية ضدهم مجرد وسيلة لإظهار قوة قريش وهيبتها أمام القبائل الأخرى، نظرا" لأنهم تمكنوا من حشد جيش بلغ تعداده حوالي 950 رجلا" من بينهم 100 فارس، وكان هذا الجيش يعد جرارا" بمقاييس تلك البقعة المهملة والمجدبة والقليلة السكان من العالم، في ذلك الزمن الذي كان العرب فيه عبارة عن لوحة فسيفسائية صحراوية بائسة من القبائل المتنافرة الغارقة في الجهل والفوضى والضعف السياسي.**

خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من المدينة في الثامن من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة (624 م)، بقوة مؤلفة من ثلاثمائة وبضعة عشر صحابيا"، من بينهم بضع وثمانين من المهاجرين وفق بعض الروايات، ولم يكن برفقة المسلمين سوى فارسين اثنين فقط، كما أنهم اصطحبوا معهم سبعين من الإبل فقط، كانوا – ومن بينهم الرسول الكريم – يتناوبون الركوب عليها، وقد تعمد عليه الصلاة والسلام أن يسلك طريقا" فرعيا"؛ لئلا يلفت انتباه القريشيين إلى مناورته، كما أمر، لنفس الغاية، بنزع الأجراس من رقاب الإبل التي كان العرب يعولون عليها كثيرا" في حروبهم؛ بسبب الطبيعة الصحراوية لشبه الجزيرة.

من بين المواقف الكثيرة التي تدل على تمتع خاتم الأنبياء والمرسلين بنبوغ عسكري واستخباري منقطع النظير قيامه بتخمين حجم جيش العدو، من خلال سؤاله لشخصين اختطفا من معسكر قريش عن عدد أفراد قوات قريش، فزعما أنهما لا يعرفان ذلك، فسألهما عن عدد الإبل التي ينحرونها يوميا"

**لإطعامهم أثناء زحفهم من مكة، فأخبراه بأنها تسعة أو عشرة في كل يوم، ولما كانت الإبل الواحدة تكفي لإطعام عشرة مقاتلين قدر الرسول الكريم حجم جيش قريش ما بين التسعمائة والألف مقاتل.**

**عسكر الرسول عليه الصلاة والسلام بجيش المسلمين قرب آبار بدر، الواقعة على بعد حوالي 150 كيلو مترا" إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، وعلى بعد حوالي 20 كيلو مترا" عن ساحل البحر، وكانت العرب قد اعتادت أن تقيم حول هذه الآبار سوقا" سنويا". وبناء على نصيحة الصحابي الأنصاري الحباب بن المنذر بن الجموح رضي الله عنه، الذي كان بمثابة المستشار العسكري للرسول الكريم في عدد من مواقف تاريخ السيرة النبوية، وضع الرسول قواته في موضع يصبح من خلاله من الصعب على جنود قريش، المنهكين من طول السفر وقلة الماء، الوصول إلى الآبار، كما أمر المسلمين ولنفس الغاية أن يغوروا أكثرها بالحجارة. وقد دأب مؤرخو المسلمين على اعتبار أخذ الرسول بنصيحة الحباب نموذجا"**

مشرقا" لمبدأ الشورى، الذي اعتاد الرسول القائد على تطبيقه في سائر أحداث مرحلة النبوة، مثل معارك أحد والخندق وخيبر وحنين والطائف، وبمطالعة المصادر التي تناولت الفتوحات الأولى نلاحظ أن القادة المسلمين قد حرصوا على الالتزام بهذا المبدأ في مختلف المناسبات، وقد أثبت تاريخنا الزاخر بالعبر أن العديد من حالات الفشل التي تعرضنا لها في مختلف المجالات كان سببها عدم تطبيق القادة لهذا المبدأ، واستفرادهم باتخاذ القرارات، وإن من أبرز الأمثلة على ذلك معركة الجسر خلال فتح العراق، كما سيأتي في الفصل التالي. وفي حقيقة الأمر، فإن الشورى تعرضت على امتداد تاريخنا لعملية تفريغ لمضمونها من قبل أغلب حكام المسلمين، وقد تواطأ معهم في ذلك الكثير من العلماء.

بدأت معركة بدر صباح يوم الجمعة 17 رمضان بمبارزات فردية بين الطرفين تفوق خلالها مقاتلو المسلمين، ثم احتدم القتال بين الطرفين ليبدي المسلمون شجاعة منقطعة النظير، بقيت أخبارها ترن في أذن التاريخ إلى اليوم، وستبقى

**دون شك، وقد أمد الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين خلال المعركة بالملائكة الكرام عليهم السلام لنجدتهم ونصرتهم: ((إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِين)) (الأنفال: 9).**

**كانت معركة بدر (أو الفرقان) مثالا" للمعركة التي ينتصر فيها الجيش القليل العدد والفقير العدة؛ بفضل وحدة القيادة، والروح المعنوية العالية، المنبثقة من إيمان عميق لا يدانيه إيمان قدر لأتباعه " رهبان الليل وفرسان النهار " أن يرثوا العالم المعمور في غضون أقل من مائة عام، بعد أن يوحدوا بلاد العرب، ويقضوا بشكل نهائي على إمبراطورية الفرس، ويطردوا الروم من سائر ممتلكاتهم في بلاد الشام والبحر المتوسط وشمالي إفريقيا، ويحاصروا عاصمتهم القسطنطينية، ويندفعوا كالسيل باتجاه السند وبلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى)، وينهوا الحكم القوطي في إسبانيا، ويتوغلوا في الأراضي الفرنسية.**

ويمكننا الجزم أنه عندما حدثت هذه المعركة لم يكترث لها أبناء فارس والعراق والشام؛ لعدم أهميتها بالنسبة لهم، ولاعتقادهم بصغر شأن القوم الذين خاضوا غمارها، وكان جل اهتمامهم منصبا" على ذلك الصراع الدائر بين القوتين العظميين في ذلك الزمان (الفرس والروم). إن أعظم التحولات في التاريخ البشري كانت في بادئ أمرها تبدو كأحداث قليلة الأهمية وهامشية التأثير.

وبعيد المعركة، ازدادت ثقة المسلمين بقدراتهم، وتحولوا من مجموعة من اللاجئين المستضعفين، إلى قوة سياسية وحربية منتصرة وصاعدة، فأخذوا في التخلص بشكل تدريجي من أعداء الدعوة في المدينة، الذين مثلوا فيها طابورا" خامسا" وخطيرا" فضحه القرآن الكريم في العديد من الآيات، كما شرعوا في تهديد أمن القوافل التجارية لقريش، وعندما حاولت هذه أن ترسل إحدى قوافلها عبر الطريق المؤدية إلى العراق اعترضتها سرية للمسلمين، يقودها زيد بن حارثة رضي الله عنه، عند أحد آبار نجد واستولت عليها، أما القبائل

العربية المجاورة، كغطفان وبني سليم، فباتت تنظر إلى المسلمين بعين الخشية والذهول، بعد أن كانت منذ أشهر قليلة لا تكاد تحسب لهم حسابا".

كانت هزيمة بدر كارثة كبيرة بالنسبة لقريش أثرت على هيبتها بين قبائل الحجاز، خاصة أنها فقدت فيها حوالي سبعين رجلا" (وفق أغلب المصادر)، كان بعضهم من أصحاب الثروة والنفوذ وأهل الحل والربط في مكة، مثل أمية بن خلف الجمحي وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة العبشمي والوليد بن عتبة وأبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي) ونوفل بن خويلد بن أسد (أخو خديجة رضي الله عنها) وحنظلة بن أبي سفيان، بينما مات أبو لهب الذي لم يشترك في المعركة بعد عدة ليال، وهو غارق في الحزن والغيظ لما أصاب المشركين، كما سقط سبعون من أبناء قريش في الأسر، وكان من بينهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث تم قتل اثنين منهم، هما عقبة بن أبي معيط والنضر بن

الحارث؛ بسبب الأذى الشديد الذي كانا قد سبباه للمسلمين قبل الهجرة.

أما المسلمون، فقد استشهد منهم أربعة عشر صحابيا" فقط (ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار)، منهم عمير بن أبي وقاص وعبيدة بن الحارث وعمير بن الحمام رضي الله عنهم، ويروى أن الأخير كان يتناول شيئا" من التمر عندما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام يحث الصحابة على الجهاد في سبيل الله، فسارع إلى إلقاء الطعام من يده، واندفع يقاتل بمنتهى الشجاعة طلبا" للشهادة حتى ظفر بها. وقد تمتع الصحابة الذين اشتركوا في هذه المعركة بمكانة كبيرة بين المسلمين، وفق ما تجمع عليه كل الكتب التي تناولت السيرة الشريفة والعهد الراشدي، حيث جرت العادة على إطلاق لقب (بدري) على كل من شارك فيها من المسلمين.

بعد بدر، قام المسلمون بمعاقبة يهود بني قينقاع؛ لنقضهم العهد الذي أبرموه معهم، فحاصروهم لخمس عشرة

ليلة، ثم أجلوهم عن المدينة. وفي تلك المرحلة من تاريخ المسلمين عمد أبو سفيان إلى التقدم نحو المدينة على رأس مائتي راكب، وحال وصولهم إلى العريض قتلوا أحد الأنصار وحليفا" له، ثم عادوا إلى مكة هربا" من انتقام المسلمين، وقد أطلق مؤرخو السيرة النبوية على هذه العملية القريشية الفاشلة اسم (غزوة السويق)؛ لأن أبا سفيان ورجاله كانوا، لخشيتهم الشديدة من لحاق المسلمين بهم عند عودتهم إلى مكة، يلقون جرب السويق، وهو نوع من الطعام يحتوي على قمح أو شعير مقلي ومطحون؛ لكي يتخففوا من حملهم، فيستطيعون الإسراع في مسيرهم.

أخذت قريش في الاستعداد لجولة أخرى، بتحريض من أبي سفيان وزوجته هند بنت عتبة بن ربيعة، وقد جرى تسخير جميع موارد مكة لجمع حوالي ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وثقيف ومرتزقة الأحابيش وعرب تهامة وكنانة، وكان من بينهم مائتي فارس وسبعمائة دارع، وقد زودوا بثلاثة آلاف جمل، وزحف أبو سفيان، الذي أصبح أقوى شخص في

قريش بعيد بدر، بهذا الجيش باتجاه المدينة، ووصل إلى ذي الحليفة (ميقات أهل الشام) على بعد كيلو مترات قليلة عنها، ثم تقدم إلى جبل أحد المواجه للمدينة من جهة الشمال في بداية شوال من السنة الثالثة للهجرة، فقام بتقسيم قواته إلى قلب وميمنة وميسرة ومؤخرة، وحشد الفرسان بقيادة خالد بن الوليد على الميمنة، بينما كلف عكرمة بن أبي جهل بقيادة الميسرة، وضمت الحملة عددا" من النسوة التائقات للانتقام، مثل هند بنت عتبة، التي صاحت بملء فيها مشجعة القريشيين على الاستبسال في المعركة:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمـارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق.

ومن المفارقات التاريخية المثيرة للتأمل – وما أكثرها في تاريخ تلك الفترة الذهبية! – أنه، وبعد أقل من خمس عشرة سنة من هذه المعركة، وقفت هذه المرأة العنيدة والقوية الشخصية في ساحات اليرموك تحث جنود المسلمين على

**التضحية بمهجهم في القتال ضد الروم وحلفائهم، فسبحان من يغير ولا يتغير!**

**أما المسلمون، فكانت قد وصلتهم معلومات مبكرة عن استعدادات قريش عن طريق العباس بن عبد المطلب، الذي لم يكن قد أسلم بعد، وقد سارعوا بعد أن استقر رأيهم على التصدي للمشركين خارج المدينة إلى حشد حوالي سبعمائة رجل، من بينهم مائة دارع وخمسين فارسا" فقط وفق بعض الروايات، عسكر بهم الرسول عليه الصلاة والسلام على السفح الشرقي والشمالي الشرقي لجبل أحد الممتد لعدة كيلو مترات طولا"؛ وذلك بقصد الاحتماء به، كما أمر خمسين رجلا" من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير والفرسان الذين يقودهم الزبير بن العوام بأن يتخذوا موقعا" لهم على عينين، وهو تل صغير قرب أحد يبلغ ارتفاعه حوالي 12 مترا" وطوله حوالي 150 مترا"، وهو الذي أُطلق عليه لاحقا" اسم جبل الرماة، والملاحظ أن الكثير من زوار المدينة المنورة في أيامنا هذه يعتقدون واهمين أن هذا الجبل الصغير هو جبل أحد.**

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام راغبا" في البقاء في المدينة ومواجهة المشركين على أطرافها؛ بهدف الاستفادة من حصانتها الطبيعية، غير أنه قام بالخروج بالمسلمين لملاقاتهم نزولا" عند رغبة أكثرهم، الأمر الذي اعتبره بعض الباحثين نموذجا" تطبيقيا" للشورى، حتى في أصعب الظروف التي يمكن أن تمر بها الدولة.

وتشير المصادر إلى أن منافقي المدينة، الذين كان عددهم آنذاك حوالي 300 رجلا"، على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي عليه لعنة الله، نكصوا عن المشاركة في التصدي لقريش؛ بحجة أن لا أمل في الانتصار على جيشها الكبير، مما يمنحنا مؤشرا" حول الوضع الحرج الذي كانت تتسم به الجبهة الداخلية لدولة المسلمين، خاصة أن عدد أولئك المنافقين كان كبيرا" بالمقارنة مع عدد جيش المسلمين الذي قاتل فعليا" في أحد، وبطبيعة الحال فإن المنافقين، إضافة إلى اليهود، شكلوا حجر عثرة احتاج المسلمون فيما بعد إلى الكثير من الجهد المعنوي والمادي للتخلص منه.

بدأت المعركة في اليوم السابع من نفس الشهر بهجوم المشركين الذي نجح المسلمون في امتصاص صدمته، كما تمكن الرماة من صد قوة من جنود قريش بقيادة خالد بن الوليد حاولت مرتين أن تزعزع موقف الجناح الأيسر لقوات المسلمين، وقد تمركزت بعض المسلمات، وعلى رأسهن فاطمة بنت الرسول وأم عمارة الأنصارية رضي الله عنهما، في مؤخرة قوات المسلمين؛ لتزويد المقاتلين بالماء، إضافة إلى مداواة الجرحى، بل إن الأخيرة شاركت في بعض مراحل القتال وجرحت خلال ذلك.

وعندما بدا أن المشركين قد خسروا المعركة، وولوا الأدبار مدحورين مذعورين، شرع المسلمون، باستثناء حوالي ثلاثين منهم، بجمع الأسلاب على عادة المقاتلين في ذلك العصر، وعند هذه النقطة حدث الخطأ الفادح الذي حول انتصار المسلمين إلى هزيمة أراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحن بها قلوب المؤمنين ويمحصهم، ويلقنهم أحد أهم دروس الحرب والسياسة، إذ أن الرماة كانوا قد ظنوا أن المعركة انتهت

**لصالح المسلمين، فترك معظمهم مراكزهم، دون تلقيهم أوامر بذلك، بحيث لم يبق منهم على التل سوى قائدهم وتسعة منهم، فاستغل خالد بن الوليد حدوث ثغرة في موقف المسلمين وانكشاف صفوفهم فأغار عليهم بشكل مفاجئ، في الوقت الذي كانوا فيه منهمكين بجمع الأسلاب، كما نجح في إحكام سيطرته على التل ليحمي ظهر قواته، أما فلول المشركين الهاربة فإنها ما لبثت هي الأخرى أن عادت للمشاركة في القتال، بعد أن رأت النجاح التكتيكي الخاطف الذي حققه خالد، فانهارت صفوف المسلمين، وانقسموا إلى مجموعات مشتتة يسودها الاضطراب وتقاتل دون نظام أو خطة موحدة، خاصة بعد أن انتشرت بينهم إشاعة خطيرة وكاذبة عن استشهاد الرسول عليه الصلاة والسلام، وأصبحوا كما يقول الطبري رحمه الله: " أثلاثا"، ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث منهزم ".**

**وأخيرا" انتهت المعركة بهزيمة المسلمين، بعد أن أصيب الرسول الكريم ببعض الجروح في رأسه، ووقع في إحدى الحفر، وفقد المسلمون سبعين شهيدا"، كان من بينهم أسد**

الإسلام حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ومالك بن سنان (والد أبي سعيد الخدري) ومصعب بن عمير وحنظلة بن أبي عامر رضي الله عنهم وأرضاهم، وكان الأخير قد سارع في الالتحاق بالمعركة وهو جنب بعد أن جامع زوجته، فقامت الملائكة بغسله بعيد استشهاده، فلقب بحنظلة الغسيل. أما قريش فإنها لم تخسر في المعركة سوى اثنين وعشرين رجلا" وفق بعض الروايات.

وقد اعتبر المؤرخون المعاصرون أن خطة خالد بن الوليد في هذه المعركة كانت عبارة عن (نموذج مصغر) لإستراتيجية الهجوم غير المباشر، التي طبقها فيما بعد بأسلوب يدعو إلى الدهشة في العراق والشام.

إن الخطأ القاتل الذي ارتكبه الرماة يوم أحد كان درسا" قاسيا" وضروريا" للمسلمين، الذين تأكدت لهم أهمية الأسباب المادية والدنيوية في تحقيق النصر، مثلما مثلت معركة حنين بعد عدة سنوات مثالا" على أن هذه الأسباب وحدها لا تجلب

لهم نصرا" سهلا" ومؤكدا"، وإن مما لا شك فيه أن الدروس والعبر التي مثلتها هذه المعركة بالنسبة للمسلمين في كل زمان ومكان تحتاج إلى مجلدات لتبيانها، وإن تلاوة الستين آية من سورة آل عمران التي نزلت في هذه المعركة، وتدبرها وتأملها، تجعلنا قادرين على فهم هذه الدروس في أسطع صورها وأوضح معانيها، قال تعالى: ((وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء)) (آل عمران: 140).

وبعد انتصار أحد اتجهت أنظار المشركين إلى هدف أكثر طموحا"، وهو القضاء النهائي على الدولة الإسلامية في المدينة، بالتحالف مع بعض القبائل المجاورة في الحجاز ونجد ويهود المدينة، ويبدو أن قريش لم تفكر في استثمار نصرها في أحد فتحتل المدينة، رغم أن هذه المعركة حدثت على مشارفها؛ لأن هدفها كان على الأرجح انتقاميا بحتا"، كما أن قادتها كانوا يعرفون أن محاولتهم اقتحام المدينة ستقلب نصرهم الثمين إلى " بدر " أخرى، وليس أدل على ذلك من

**أنهم تجنبوا الاشتباك مع المسلمين، عندما عسكر حوالي خمسمائة من هؤلاء، رغم جروحهم التي أصيبوا بها، لثلاثة أيام بعد المعركة بوقت قصير في منطقة حمراء الأسد، على بعد عدة أميال عن المدينة، وذلك بهدف استعراض القوة واستعادة الهيبة العسكرية المفقودة في أحد، ثم عسكروا لثمانية أيام في بدر في شعبان من السنة الرابعة للهجرة، فيما عرف في السيرة النبوية باسم بدر الآخرة.**

**إن الفترة التي تلت معركة أحد وسبقت معركة الخندق (الأحزاب) لم تكن فترة سلام بالنسبة للمسلمين؛ فقد تعرضوا خلالها لاعتدائين اتسما بالغدر والخيانة من قبل قبيلتي عضل والقارة يوم الرجيع، ومن قبل بني سليم يوم بئر معونة، ولا شك أن هذه القبائل أرادت بعملها هذا أن تتقرب من سادة قريش.**

**وقد حاصر المسلمون في تلك الفترة يهود بني النضير؛ على خلفية محاولتهم قتل الرسول عليه الصلاة والسلام،**

وأجبروهم على مغادرة المدينة، فتركوها إلى خيبر، بينما توجه قسم منهم إلى الشام، كما قام الرسول عليه الصلاة والسلام بالتقدم على رأس ألف مقاتل باتجاه دومة الجندل شمالي نجد في مناورة استعراضية لم ترهب قبيلتي قضاعة وغسان – المقيمتين في تلك المنطقة - فقط، وإنما جعلت كل العرب تضع في حسابها القوة السياسية والحربية التي حققها المسلمون رغم هزيمتهم في أحد.

وأخيرا" قررت قبائل العرب أن توحد قواها للقضاء على الدولة الإسلامية، قبل أن يستفحل أمرها، ويعظم شأنها، ويصبح التخلص من خطرها صعب المنال. وقد لعب اليهود، وعلى رأسهم حيي بن أخطب زعيم بني النضير (ووالد صفية زوجة الرسول الكريم) وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن أبي الحقيق، دورا" ملحوظا" في تحريض القبائل لقتال المسلمين، والجدير بالذكر أن اليهود عرضوا على بعض القبائل العربية مثل غطفان منحها جزءا" من ثمار خيبر، نظير مشاركتها في الحلف المعادي للمسلمين. ويبدو أن القضاء على

دولة المدينة كان يشكل بالنسبة لقريش هدفا" هاما" جدا"؛ بالنظر إلى أن هذه الدولة سيطرت على طريق التجارة إلى الشام، فحرمت القريشيين من أحد أكبر مصادر ثروتهم.

زحف القريشيون وحلفاؤهم من عرب كنانة وتهامة وغطفان نحو المدينة في شوال من السنة الخامسة للهجرة، الموافق لآذار سنة 626 م، بقوة بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل، كان أكثر من ثلثهم من مكة، وقد كان الرسول الكريم على علم بتحركهم هذا، لحرصه على الدوام على بث العيون في كل مكان؛ لرصد أية نوايا أو تحركات معادية للدولة الإسلامية، بغية الإعداد لمواجهتها في الوقت والمكان المناسبين، وهكذا أخذ يعد العدة للتصدي لقريش وحلفائها من خلال حشد ثلاثة آلاف مقاتل، مثّلوا في ذلك الوقت الطاقة البشرية القصوى للمدينة، كما أمر بتحصين بيوت المدينة، وإبقاء النساء والأطفال فيها، وبحفر خندق دفاعي متعرج الشكل – اختلف المؤرخون حول طوله ومكانه – حول النقاط الواهنة من أطراف المدينة، التي كانت تحيط ببعض جوانبها

الحرات البركانية الصعبة الاجتياز، التي وفرت جدارا" دفاعيا طبيعيا"، ما زال بإمكان القوات البرية المدافعة الاعتماد عليه في أيامنا هذه؛ بسبب وعورة هذه الحرات وارتفاعها عشرات الأمتار عن السهل المحيط بها. ومن المثير للاهتمام أن عملية حفر الخندق، التي شارك فيها الرسول بنفسه، استغرقت ما يربو على ثلاثة أسابيع، رغم قلة الإمكانات المتوفرة.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيها عرب الحجاز إلى هذه الوسيلة، فقد كان سلمان الفارسي رضي الله عنه هو من لفت انتباه الرسول عليه الصلاة والسلام إليها، بعد أن نقلها من تجارب الفرس وعرب المناذرة؛ مما دفع أبا سفيان إلى الصياح من هول المفاجأة: " والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها "، ولا شك أن إقدام المسلمين على استخدام هذه الوسيلة غير المألوفة لدى العرب يمنحنا فكرة واضحة حول بعد المسلمين عن الجمود وسعيهم للابتكار والإبداع والاستفادة من تجارب الحضارات الأخرى منذ فترة مبكرة جدا" من

**تاريخهم، الأمر الذي يسر لهم الإمساك بمقاليد الحضارة العالمية بكافة ميادينها، خلال أقل من قرنين من الزمن.**

**ضرب المشركون حصارهم حول المدينة لعدة أسابيع، فعانى المسلمون الأمرّين، حتى أن بعضهم كانوا يربطون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع، أما المشركون فقد واجهتهم معاضل اجتياز الخندق، وطول خطوط مواصلاتهم وإمداداتهم، ونفاد مؤنهم؛ بسبب بعدهم بضع مئات من الكيلو مترات عن مكة، أما الإمدادات التي حاول يهود بني قريظة أن يزودوهم بها بعد أن غدروا بالرسول فقد وقع الكثير منها في أيدي المسلمين، الذين كانوا قد عسكروا على جبل سلع المطل على ما وراء الخندق من الجهتين الشمالية والشرقية، ويبدو أن القريشيين وحلفاءهم لم يكونوا يتوقعون أن يضطروا لضرب حصار طويل حول المدينة، لم تألفه العرب قبل ذلك، وأنهم كانوا يتصورون أن معركتهم لن تدوم سوى يوم أو يومين يتفرق بعدها المهاجرون في كل مكان، ويتخلى أهل**

المدينة تحت وطأة الهزيمة وتكالب العرب عليهم عن نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما المسلمون، فقد كانت هذه المعركة عصيبة جدا" بالنسبة لهم، ووضعتهم أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما: النصر أو الاندحار والفناء ككيان سياسي وعسكري، لأنهم اضطروا إلى خوضها على حدود مدينتهم، ومع جيش جرار ضم قبائل العرب قاصيها ودانيها، وفي الوقت الذي تعاني فيه جبهتهم الداخلية من خطر كبير، تمثل في الانضمام المفاجئ لبني قريظة للتحالف المعادي، بعد أن نجح حيي بن أخطب في إقناع زعيمها كعب بن أسد بذلك، ولا شك أن هذا التحول الخطير في الموقف الداخلي للدولة الإسلامية كاد أن يزعزع أركانها؛ لأنها أصبحت بذلك بين نارين كبيرتين، وغدت مؤخرة جيش المسلمين المرابط على الخندق مكشوفة، كما عرضت أهالي وبيوت المقاتلين لخطر وشيك، ومما يروى في هذا المجال أن عمة الرسول صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها قامت

بنفسها بالتصدي لأحد اليهود الذين حاولوا التسلل إلى داخل مساكن المسلمين، حيث ضربته بعمود وأردته قتيلا".

وفي حقيقة الأمر، من النادر أن ينجح كيان سياسي في الخروج سالما" من حرب كبيرة، في الوقت الذي تعاني فيه جبهته الداخلية من انقسام خطير، وقد أشار القرآن الكريم إلى موقف المسلمين في هذه المعركة بقوله تعالى: ((إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا)) (الأحزاب: 10- 12).

وقد لاقت جميع محاولات المشركين لاقتحام المدينة فشلا" ذريعا"، بالنظر إلى البسالة النادرة التي أبداها المسلمون في تصديهم لهجمات خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل. ومما تجب الإشارة إليه أنه، وعلى الرغم من طول مدة الحصار، لم تحدث اشتباكات حامية الوطيس بين الطرفين؛ لأن

الخندق والحرات البركانية كانت تمثل على الدوام حاجزا" بين مقاتلي الطرفين، فاقتصر القتال على تراشق النبال والحجارة الصغيرة؛ مما يفسر أن كلا" من المسلمين والمشركين لم يخسروا سوى عدة رجال، كما أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه بجرح مات متأثرا" به بعد فترة وجيزة من انتهاء المعركة.

وبسبب طول مدة الحصار دون إحراز أي تقدم عسكري، ورداءة الأحوال الجوية، ونجاح المسلمين عن طريق نعيم بن مسعود الغطفاني في إحداث صدع في التحالف بين قريش وبني قريظة، اضطر القريشيون وحلفاؤهم إلى فك الحصار والعودة إلى ديارهم بخفّي حُنين، ويلاحظ أن قريشا" ومنذ ذلك الحين لم تحاول شن أي هجوم على المدينة، كما لم تحاول التعرض للمسلمين قبيل صلح الحديبية، وانطوت على نفسها، لتفتح أبوابها يائسة بعد سنوات قليلة أمام جيش الفتح المبين.

لقد وطدت معركة الخندق مكانة المدينة المنورة ككيان سياسي، وأزالت الآثار النفسية والسياسية لهزيمة أحد، وبدأ

المسلمون بعد تطهيرهم للجبهة الداخلية، بتنكيلهم ببني قريظة وتطهيرهم للمدينة من اليهود، في الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، التي قادتهم خلال العقود التالية، على يد خالد وأبي عبيدة وقتيبة الباهلي وموسى بن نصير وغيرهم، إلى ربوع الشام وهضاب تركستان وجزائر المتوسط وسهول فرنسا.

ومما تنبغي الإشارة إليه، أن قبائل شبه الجزيرة العربية في ذلك الزمن لم تعتد أبداً على إقامة التحالفات الطويلة الأمد فيما بينها، فقد كانت تحالفاتها هشة ووقتية، سريعة النشوء وسريعة النقض أيضاً، ويعود السبب في ذلك إلى عدم وجود سياسات وإستراتيجيات ثابتة لها، كما أن هذه القبائل لم تكن تربطها أية وشائج قوية، رغم اشتراكها في أصل واحد ولغة واحدة وتقاليد دينية متشابهة، مما يفسر إلى حد كبير عدم قدرة قريش على تشكيل حلف قوي مع القبائل الأخرى، يشن حرباً شاملة وطويلة الأمد ضد الدولة الإسلامية، فالحلف الذي شكلته لغزو المدينة ما لبث أن انهار أمام خنادقها

**وحراتها، خصوصا أنه ضم الكثير من المرتزقة، الذين سرعان ما سئموا المقام الطويل أمام المدينة في حر النهار وبرد الليل.**

**وقد قام المسلمون بعد معركة الأحزاب ـ وكما هو شأنهم منذ إقامة دولتهم ـ بسلسلة طويلة من العمليات العسكرية الصغيرة، التي استهدفت تعزيز نفوذهم السياسي في المنطقة، مثل غزوات بني لحيان وذي قَرَد (موضع بين المدينة وخيبر) وبني المُصطلق (فرع من خزاعة).**

**وبعد أسابيع قليلة من عقد صلح الحديبية مع قريش، في السنة السادسة للهجرة، بات المناخ السياسي مواتيا" للمسلمين لفتح خيبر، أكبر حواضر اليهود في الحجاز، في محرم من العام السابع للهجرة، ومن المثير حقا" أن نعرف أن المؤرخ الإنجليزي واليهودي الأصل دافيد مرجليوث قال في هذا الشأن: " إن استيلاء محمد على خيبر يبين إلى أي حد أصبح الإسلام خطرا" يهدد العالم "، إن مرجليوث هذا يتحدث عن سقوط خيبر القرية الصغيرة والمغمورة، وكأنها كانت**

**عاصمة دولة كبرى كالقسطنطينية أو المدائن!! فماذا عساه يقصد بكلامه هذا؟!**

**وقد وجد المسلمون، الذين كانوا ينتظمون في أربع فرق، الكثير من الصعوبات خلال هذا الفتح، إذ كان عليهم أن يواجهوا قوة عسكرية موزعة على عدة حصون، وإن كان هذا التوزيع مثّل في بعض جوانبه نقطة في صالح المسلمين؛ لأنه حال دون استثمار اليهود للتفوق العددي الذي كانوا يتمتعون به.**

**وصل المسلمون إلى مشارف خيبر، بعد زحف استمر ثلاثة أيام فقط؛ مما شكل مفاجأة كبيرة لأهلها، فصاحوا: " محمد والخميس، محمد والخميس "، أي محمد وجيشه، وتركوا مزارعهم وبساتينهم، وسارعوا إلى حصونهم المقامة فوق الجبال، وقد أخذ الرعب منهم كل مأخذ، وكان المسلمون في تلك المرحلة مصرين كل الإصرار على حسم صراعهم مع اليهود في شبه جزيرة العرب إلى الأبد.**

**بعد سقوط حصني ناعم والقموص، على إثر قتال استمر حوالي أسبوعين، استعصى على الاحتلال حصن الصعب بن معاذ، الذي كان يضم الكثير من الأسلحة والمعدات القتالية، وقد أدى طول مدة الحصار إلى نفاد مؤن المسلمين، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى أكل لحوم الحمر الأهلية، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام نهاهم عن ذلك، ووجههم إلى أكل لحم الخيل.**

**وبعد أن نجح المسلمون في احتلال هذا الحصن، وجدوا فيه الكثير من المؤن التي ساعدتهم على حل معاضلهم الإدارية، ففرضوا سيطرتهم على الحصون الأخرى كالوطيح والسلالم، علما" بأن عملية احتلال خيبر وإجبار أهلها على الاستسلام استغرقت حوالي أربعة أسابيع.**

**وعلى أثر انهيار المقاومة اليهودية في خيبر، بسقوط جميع حصونها، سارع يهود فدك وتيماء إلى الاستسلام، أما**

**يهود أم القرى فقام المسلمون بإخضاعهم بحد السيف، بعد أن حاصروهم لعدة أيام.**

**كما أتاح عقد صلح الحديبية بين المشركين والمسلمين لهؤلاء أن يباشروا بمد نشاطهم العسكري إلى خارج شبه الجزيرة العربية، فعلى أثر إقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه الذي كان الرسول الكريم قد بعثه إلى حاكم بصرى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، وكرد فعل أيضا" على مقتل عدد من الصحابة في ذات أطلاح (على حدود الشام)، أرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى بلاد الشام جيشا" مؤلفا" من حوالي ثلاثة آلاف جندي، بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه، ومن المثير للاهتمام أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أوصى بأن تكون القيادة في حال استشهاد زيد لجعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة الخزرجي، على أن يختار قادة الجيش قائدا" آخر من بينهم، إذا ظفر الأخير بالشهادة، ولا شك أن تعيين القادة البدلاء بهذه الطريقة كان أمرا" نادرا" في التاريخ العسكري العالمي، وقد**

**عمد المسلمون إلى تقليده في بعض معاركهم اللاحقة، مثل نهاوند.**

**وتعد الوصية التي أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام زيدا" مثالا" رائعا" للقيم الإنسانية النبيلة التي تحلى بها المسلمون، حتى في وسط معمعة الحروب، وقد اعتبر المسلمون هذه الوصية بمثابة القانون الذي ساروا عليه في معظم جولاتهم مع أعدائهم في كل زمان ومكان، وهي تتفوق على كل مواثيق الأمم المتحدة واتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها في نقطة أساسية جدا"، هي أنها قد طبقت بالفعل.**

**في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الدنيا كانت بلاد الشام تخضع لنفوذ دولة الروم (الدولة البيزنطية)، التي تمخضت عن انقسام الإمبراطورية الرومانية في سنة 395 م إلى إمبراطوريتين، غربية عاصمتها روما، وشرقية عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حاليا")، وقد ضمت ممتلكات هذه الدولة (البيزنطية) البلقان وآسيا الصغرى والجزيرة الفراتية**

**والشام ومصر وبرقة، وكان الفرس (الساسانيون) يقومون بين الحين والآخر بالتوسع في بلاد الشام وآسيا الصغرى، إلا أن الروم كانوا يسارعون إلى طردهم منها، مثلما حدث سنة 628 م.**

**وصل الجيش الإسلامي الصغير إلى معان، وعسكر فيها لليلتين، ثم تحرك شمالا" إلى منطقة مؤتة، الواقعة حاليا" ضمن محافظة الكرك الأردنية، حيث وجد أمامه حشودا" كبيرة من جنود الروم وحلفائهم من القبائل العربية، وقد أشار الطبري إلى أن عدد هؤلاء كان مائتي ألف جندي، غير أننا نميل إلى الوقوف في صف المشككين بهذا الرقم، خاصة أن حجم خسائر الجيش الإسلامي كان صغيرا" جدا"، ولو كان هذا الجيش قد اشتبك مع جيش أكبر منه بعشرات المرات لكانت خسائره كارثية بدون أدنى شك، بينما يتحدث ابن هشام مثلا" عن خسائر لا تتجاوز اثني عشر شهيدا"، ولا تكون الروايات حول حجم الجيش الرومي صحيحة إلا إذا افترضنا أن المسلمين لم يشتبكوا إلا مع طلائع هذا الجيش، وإننا نعتقد أن**

جيشا" روميا" بهذا الحجم ربما كان مرابطا" آنذاك بقيادة الإمبراطور هرقل في بلاد الشام، وأنه كان قد فرغ لتوه من الانتصار على الفرس، واستعادة عمود الصليب المقدس الذي سلبه هؤلاء من القدس.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يهدف من وراء إرساله لهذا الجيش إلى فتح بلاد الشام وطرد الروم منها؛ فالموقف السياسي والعسكري للمسلمين لم يكن ملائما" أبدا" للقيام بهذه الخطوة العملاقة، خاصة أن مكة لم تكن قد فتحت بعد، والصلح الذي أُبرم في الحديبية قد يتحول (مثلما حدث فعلا") إلى لا شيء في أية لحظة، تماما" كما هو حال أي صلح آخر في التاريخ، كما أن العديد من القبائل العربية في شبه الجزيرة كانت لا تزال على دين الجاهلية، وتناصب دولة المدينة العداء.

لقد كانت سرية مؤتة عبارة عن مناورة إستراتيجية ذات طابع استطلاعي، كما مثلت من ناحية أخرى نوعا" من استعراض القوة، ليس أمام الروم والغساسنة فقط، وإنما

أيضا" أمام أعداء المسلمين في الجزيرة العربية، وعلى رأسهم قريش.

التحم جيش المسلمين مع أعدائهم في جمادى الأولى سنة 8 ه (أيلول 629 م) في معركة ضارية فوق ذلك السهل الخصيب الذي دخل اسمه التاريخ الإسلامي من أوسع أبوابه، وفي أبهى فصوله وأكثرها تدفقا" بمعاني الفداء والتضحية، وتشير الروايات إلى أنهم كانوا هم البادئين بالهجوم، مما شكل مفاجأة كبيرة لأعدائهم، ويبدو أن موقف المسلمين غدا حرجا" بعد عدة أيام من المناوشات؛ بسبب الفارق العددي بين الطرفين، كما أن القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول الكريم بنفسه ظفروا جميعهم بالشهادة في مواقف بطولية ساطعة، فاستقر أمر المسلمين على تسليم القيادة لسيف الله المسلول خالد بن الوليد الذي كان قد أسلم منذ فترة بسيطة.

نجح خالد في إيهام الأعداء بأن الجيش الإسلامي تصله التعزيزات المتتالية، من خلال تنفيذه لبعض المناورات التعبوية، كتبديل المقدمة مؤخرة والميمنة ميسرة، إضافة إلى

تعمد إثارة الغبار خلف الجيش، ودفع الجنود إلى التهليل والتكبير المستمرين؛ للإيحاء بأن تعدادهم أكبر مما هو في حقيقة الحال، ثم قام بالانسحاب بالجيش إلى الصحراء بأسلوب منظم، وبذلك نجح في تخليص المسلمين من هزيمة نكراء، يسببها التفوق العددي الهائل للأعداء، خاصة إذا أخذنا في عين الاعتبار أن المسلمين كانوا يقاتلون فوق أرض معادية لا تتوفر لديهم دراية كافية بها، ولم يسبق لهم أن زاروها في الجاهلية إلا كتجار مبهورين بخصوبتها وجمال نسائها.

ويبدو أن السبب الذي دفع الروم وحلفاءهم إلى عدم مطاردة الجيش الإسلامي أثناء انسحابه المنظم، هو خشيتهم من أن يكون هذا الانسحاب عبارة عن خدعة يهدف المسلمون من خلالها إلى استدراجهم إلى رمال الصحراء، وإجبارهم على خوض معركة بعيدا" عن قاعدتهم الإدارية، وفوق أرض تتسم بمناخ جاف وصعب لم يألفه جنودهم، الذين تعودوا على الاعتدال النسبي للمناخ في آسيا الصغرى وبلاد الشام.

**وبعد فترة قصيرة من هذه المعركة، كلف الرسول عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص بالتوجه إلى تخوم الشام، على رأس ثلاثمائة مقاتل، لتنفيذ بعض العمليات القتالية ضد قبيلة قضاعة، التي كانت قد بدأت التخطيط لمحاربة المسلمين، وأرسل له خلال ذلك تعزيزا" مؤلفا" من مائتي مقاتل بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، وقد نجحت هذه الحملة في فرض هيبة المسلمين في تلك النواحي، بعد أن انتصرت في معركة ذات السلاسل ثم عادت إلى المدينة محملة بالغنائم.**

**وفي رمضان من نفس تلك السنة (8 هـ) الموافق لشهر كانون الثاني سنة 630 م، وعلى خلفية نقض قريش لصلح الحديبية، بمساندتها لاعتداء حلفائها من بني بكر على قبيلة خزاعة الموالية للمسلمين، قام الرسول عليه الصلاة والسلام، وبهدف حسم الصراع مع قريش إلى الأبد، بالزحف إلى مكة المكرمة، بحوالي عشرة آلاف جندي، جمعهم من المهاجرين والأنصار، إضافة إلى القبائل التي أسلمت مثل بني سليم وأسلم ومزينة، والجدير بالذكر أنه عندما اقترب الجيش من مشارفها**

وعسكر في مر الظهران تم استخدام نفس أسلوب الحرب النفسية الذي اتبعه خالد في مؤتة، فقد أمر الرسول الكريم كل جندي بأن يشعل نارا" أثناء ساعات الليل؛ كي يظن المشركون أن عدد المسلمين أكبر مما هو في واقع الأمر، وعندما ذهب أبو سفيان إلى معسكر المسلمين ليتفاوض معهم أمرهم الرسول الكريم باستعراض الجيش أمامه؛ ليقتلوا في نفسه أي أمل بالانتصار عليهم، وليدفعوه إلى نبذ خيار المقاومة، فأسلم أبو سفيان، وأعلن الرسول عليه الصلاة والسلام لأهل مكة أن: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ".

قسم الرسول عليه الصلاة والسلام الجيش إلى أربع فرق تقدمت على أربعة محاور، وقد احتل المسلمون مكة دون عناء كبير، ولم يواجهوا أية مقاومة تذكر باستثناء جنود خالد بن الوليد الذين أمطرهم بعض القريشيين بالنبال، ويذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصا" كل الحرص على فتحها بدون إراقة دماء. والحقيقة أن مكة كانت بعد عدة

**سنوات من القتال المتقطع والصراع السياسي والدعائي المتواصل قد استنفدت كل طاقاتها، وانطوت على نفسها تنتظر قدرها المحتوم الذي مثل في الواقع بداية تاريخها المشرق، قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون)) (التوبة: 33).**

**وإن من الإشارات العظيمة إلى سمو الدعوة الإسلامية وتسامحها وعدلها وبعد نظرها السياسي والدعوي، أن الرسول الكريم لم يعمد إلى الانتقام من أولئك الذين أذاقوه وصحابته شتى ألوان العذاب، وتصدوا له بكل الوسائل خلال المراحل الأولى من عمر الرسالة النبوية، إذ أعلن عفوا" عاما" عن أبناء مكة، في زمن كان فيه السلب والنهب والبطش والسحل ينظر إليه على أنه " حق شرعي " للمنتصر، و" مكافأة " مغرية لجنوده، و" نهاية طبيعية وعادلة وحتمية " للطرف المنهزم، بيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام استثنى من العفو بضعة أشخاص عرفوا بجرائمهم الفظيعة بحق المسلمين، فقد أمر بقتلهم، ولو وجدوا**

**متعلقين بأستار الكعبة المشرفة، ثم جمع الرسول أهل مكة ونادى فيهم: " يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ "، فردوا وكلهم أمل ورجاء: " خيرا"، أخ كريم وابن أخ كريم "، فأجابهم: " اذهبوا فأنتم الطلقاء ".**

**وفور أن استتب الأمر للمسلمين في مكة سارعت هوازن وثقيف، جارتي قريش في الجنوب الشرقي، إلى إعداد العدة لمحاربتهم، فحشدتا جنودهما في وادي حنين، الذي يبعد مسافة ثلاثة أيام عن مكة، وتم توزيع هؤلاء الجنود في مضيق الوادي لإعداد كمين للجيش الإسلامي أثناء تقدمه، فخرج إليهم الرسول الكريم في الخامس من شوال سنة 8 ه في عشرة آلاف مقاتل من الأنصار والمهاجرين، إضافة إلى ألفين من أهل مكة، وقد لاقى المسلمون كربا" شديدا" في حملتهم هذه التي عرفت بمعركة حنين، إذ فقدوا تماسكهم في بدايتها بسبب تعرضهم لهجوم مفاجئ فجرا"، وغدوا قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة رغم قلة الإصابات في صفوفهم، مما دعا أبا سفيان الذي كان حديث عهد بالإسلام إلى القول متشفيا": " لا تنتهي هزيمتهم**

**دون البحر "، قاصدا" بذلك أن قوات المسلمين ستندحر حتى تصل فلولها إلى ساحل البحر الأحمر، بينما قال آخر: " الآن بطل السحر "!.**

**إلا أن الرسول الكريم نجح في إنقاذ الموقف، وتحويله خلال وقت قصير إلى نصر حاسم للمسلمين، بينما تفرقت فلول المشركين وتراجعت إلى الطائف وسهل أوطاس ونخلة، فطاردهم المسلمون إلى هناك، وفرضوا الحصار على ثقيف في الطائف، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله على أثر هذه المعركة: ((لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين، ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِين، ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيم)) (التوبة: 25- 27).**

**دام حصار المسلمين للطائف، المعروفة بين العرب بغناها وحصانتها ومناعة أسوارها، لمدة خمسة عشر يوما" (وفق البلاذري) أو أربعين يوما" (وفق ابن سعد)، وقد استخدم المسلمون خلاله، وباقتراح من سلمان الفارسي رضي الله عنه، المنجنيقات والدبابات، مستعينين في ذلك بمعدات وخبرات بني دوس المقيمين في أسفل مكة، وكانت الدبابات تستعمل في نقب الأسوار من خلال احتماء الجنود الذين يقومون بذلك بسقفها وجوانبها، لكن المشركين تمكنوا من إبطال مفعول هذه الأسلحة عبر إلقاء قطع الحديد المحمية عليها؛ بهدف إشعال النار فيها وإجبار المقاتلين على الخروج منها، ليصبحوا في مدى رمي نبالهم، والملاحظ أن استخدام المسلمين لهذه الآلات التي لم يعرفها عرب الجزيرة العربية سابقا" يعطي مؤشرا" واضحا" عن التطور المتسارع والكبير الذي كان قد طرأ على مؤسستهم العسكرية وأساليبهم ووسائلهم القتالية عاما" بعد آخر؛ مما أتاح لهم بعد سنوات قليلة التفوق على المؤسستين العسكريتين الرومية والفارسية.**

ولما حل شهر ذي القعدة ـ أحد الأشهر الحرم ـ رفع الرسول عليه الصلاة والسلام الحصار عن الطائف، نزولا" عند رأي نوفل بن معاوية الديلي، وفي نيته العودة لمحاصرتها بعد انقضاء هذه الأشهر، وما لبثت هوازن أن أعلنت استسلامها للواقع الجديد المحيط بها من كل حدب وصوب، أما ثقيف فإنها آثرت الاستمرار في المقاومة، إذ شجعها على ذلك عدم قدرة المسلمين على احتلال الطائف، فما كان من الرسول إلا أن عاد لحصارها نزولا" عند رغبة عامة المسلمين، ثم سرعان ما رفعه عنها مرة أخرى بسبب الإصابات الكثيرة التي تعرض لها المسلمون الذين لم يعتادوا بعد على هذا النوع من القتال. والجدير بالذكر أن أغلب المصاعب والعقبات التي واجهها المسلمون في حروبهم وفتوحاتهم اللاحقة تمثلت في حصار المدن والقلاع التي تفقد أمامها الحرب الخاطفة جميع ميزاتها.

وعندما عاد الرسول الكريم من غزوة تبوك في رمضان سنة 9 ه قدم إليه وفد من ثقيف معلنا" استسلام المدينة، ليصبح أهلها في المستقبل القريب، وخاصة أثناء حروب

الردة، من أشد الناس إخلاصا" للدولة الإسلامية، ثم ليقدموا للدولة الأموية اثنين من أشهر القادة في التاريخ الإسلامي، هما الحجاج بن يوسف أمير العراقين المثير للجدل، ومحمد بن القاسم فاتح السند.

وبفتح مكة فالطائف أصبحت سيطرة المسلمين على شبه الجزيرة العربية أمرا" واقعا"، وقد تعزز هذا الواقع بعيد إخضاع نصارى نجران ودخول قبائل الحجاز ونجد واليمن وعمان والبحرين وغيرها في الإسلام، الذي أصبح أتباعه منذ ذلك الحين قوة سياسية وحربية دولية، بات الروم والفرس ينظرون إليها بعين الخوف والوجل، وبوصول الدولة الإسلامية إلى عامها العاشر (631 م) كانت قد أتمت السيطرة على سائر شبه الجزيرة، وأخذت تتطلع بفارغ الصبر للاستحواذ على عرشي كسرى وهرقل.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تقدم في رجب من سنة 9 ه (630 م) على رأس جيش، بلغ تعداده ثلاثين ألف

جندي، تم تزويدهم بعشرة آلاف فرس، باتجاه الشام فيما عرف بغزوة تبوك (شمال غرب السعودية حاليا") أو غزوة العسرة، وذلك بعد أن بلغه أن الروم وبعض القبائل العربية الموالية لهم، مثل لخم وجذام وغسان وعاملة، قد بدأوا يعدون العدة في جنوبي الشام لحرب المسلمين، ويبدو أن الروم كانوا يسعون من وراء ذلك إلى كبح جماح المد الإسلامي قبل أن يستفحل أمره، ولا ننسى أن زعيمهم هرقل كان قد أدرك خطورة هذا المد على مستقبل الوجود الرومي في بلاد الشام منذ وقت مبكر، وإن قصة حديثه مع أبي سفيان بن حرب حول هذا الأمر موجودة في صحيح البخاري، وتشير المصادر التاريخية إلى أنه، وقبيل زحف المسلمين إلى تبوك، قام هرقل بإعطاء جنوده أرزاق سنة كاملة مسبقا"، كما عسكر بهم في منطقة البلقاء، مما يدل على أنه كان ينوي شن حملة استباقية طويلة الأمد وواسعة النطاق ضد المسلمين، ولا شك أنه كان يظن أن هذه الحملة ستكون مجرد نزهة على الرمال؛ لأنه كان ما يزال منتشيا" بانتصاره الساحق على الفرس، غير أن مصادر أخرى تقول أن الحشود الرومية كان مبالغا" بشأنها، وأن

المعلومات المتعلقة بذلك حصل عليها المسلمون من التجار الأنباط الذين كانوا يزورون المدينة بين الحين والآخر، وأن الإمبراطور هرقل كان متواجدا" في حمص ولم يتحرك منها جنوبا"، وبغض النظر عن كل ذلك فإن الصدام الإسلامي الرومي كان هو عنوان المرحلة القادمة من تاريخ المشرق والعالم أجمع، ولم يكن هناك مفر من ذلك بالنسبة لكلي الفريقين.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام معتادا" على عدم الإفصاح عن وجهة وأهداف القوات التي يعدها لشن أية حملة عسكرية، إلا أنه عندما قرر الزحف إلى تبوك أعلن ذلك على الملأ، وأمر بالنفير العام، ولما كانت الحملة صعبة وغير مأمونة العواقب، خاصة أنه كان سيتم القيام بها في سنة كان الحر فيها شديدا" والأرض مجدبة، آثر عدد من المنافقين البقاء في المدينة وعدم الاشتراك في الحملة، وحاولوا النيل من همم المسلمين، وتذرعوا في ذلك بأوهن الحجج وأسخف الأعذار، مثل ضرورة البقاء لقطف ثمار الصيف التي كانت

على وشك النضوج، وقد نزلت في ذلك آيات بينات في سورة التوبة كشفت زيف حججهم وادعاءاتهم، ودعت المؤمنين إلى الجهاد، مثل قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل، إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)) (التوبة: 38- 39)، أما عامة المسلمين فسارعوا إلى التطوع في جيش الحملة، كما تبرعت النساء بأموالهن وحليهن، وقام أثرياء الصحابة رضوان الله عليهم بالتبرع بجزء كبير من ثرواتهم، كأبي بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب وسعد بن عبادة، أما عثمان بن عفان الذي كان من أغنى الصحابة فقد تكفل بتغطية جزء كبير من نفقات الحملة. وفي حقيقة الأمر كانت غزوة تبوك امتحانا" وتمحيصا" حقيقيا" وضروريا" للمسلمين، خاصة بعد أن تضاعف عددهم بعد فتح مكة، ودخل في صفوفهم الكثير من الطامعين والخائفين والمتربصين والراضخين للأمر الواقع.

إن حجم الجيش الكبير الذي حشده الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة يدل على أنه، ومنذ ذلك الوقت، وخاصة بعد فتح مكة وإرسال قوات الفتح إلى سائر أرجاء شبه الجزيرة، غدت الدولة الإسلامية في المدينة قوة إقليمية كبيرة قادرة على حشد الجيوش الجرارة بمقاييس ذلك العصر.

تمكن المسلمون خلال هذه الغزوة الجريئة، ورغم شدة الحر ومشقة الطريق وقلة المؤونة، من السيطرة على بعض المناطق الخاضعة للنفوذ الرومي، كتبوك وتيماء ومقنا ودومة الجندل والجرباء وأذرح (جنوبي الأردن حاليا") وأيلة (العقبة حاليا")، فتم بذلك تأمين الحدود الشمالية للدولة، والتمهيد للمرحلة اللاحقة من العمليات ضد إمبراطورية الروم، أما الجيش الرومي، وحال وصول أخبار تقدم الجيش الإسلامي، آثر على ما يبدو عدم الالتحام معه؛ فانسحب إلى الشمال للاحتماء داخل حصونه، فاقدا" نفوذه وهيبته لدى أبناء المناطق سالفة الذكر، وعاد الجيش الإسلامي إلى المدينة في رمضان من نفس السنة محاطا" بهالة من المجد والفخار.

ومن الجدير بالذكر، أن الرسول الكريم كان قبيل وفاته قد جهز جيشا" بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، بهدف معاودة الزحف تجاه بلاد الشام، حيث كلفه بأن " يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين "، ومن المثير حقا" أن نعرف أن أسامة كان آنذاك في ربيعه الثامن عشر، وأنه لم يكن من أبناء الأسر القوية في مكة أو المدينة، وتعتبر هذه الحادثة دليلا" لا لبس فيه على العديد من القيم النبيلة التي أرساها الإسلام بين العرب وساهمت في رفع شأنهم بين الأمم.

وقد عسكر الجيش في الجرف (قرب المدينة)؛ لإتمام استعدادات الحملة، وانضم إليه خلال ذلك عدد من كبار الصحابة مثل عمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان رضي الله عنهم، وعندما انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه، في 12 ربيع الأول سنة 11 ه (حزيران 632 م)، قام أسامة بالتنازل عن قيادة الجيش انتظارا" لتعليمات أبي بكر رضي الله عنه، الذي كان حريصا"

**على تنفيذ وصية الرسول، فسير أسامة على رأس الجيش إلى تخوم الشام، في مناورة إستراتيجية كان الهدف منها إخضاع بعض القبائل المتمردة في الطريق كقضاعة، ومن ثم استعراض قوة الدولة وهيبتها أمام أعدائها في الداخل والخارج.**

**عندما توفي الرسول الكريم كانت الدولة التي أرسى دعائمها بالإيمان والصبر والتسامح والسيف قد شملت معظم أرجاء شبه الجزيرة، التي كانت قبل أقل من عشر سنوات عبارة عن مجموعة من القبائل المتطاحنة الغارقة في الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية، والتي كانت تنتمي لأمة همجية الطبع لم يجانب العلامة عبد الرحمن بن خلدون الصواب عندما وصفها في مقدمته الشهيرة بأنها: " أصعب الأمم انقيادا" بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة ". لقد حقق العرب في ظل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام معجزة تاريخية لا مثيل لها، وقد استطاع الخليفة الأول أبي بكر (11-13 هـ) وفي وقت قياسي أن**

**يستعيد وحدة وتماسك هذه الدولة، مدمراً الجهود التي بذلها أعداء الدعوة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء.**

**وفي ذلك الوقت كانت خارطة العالم السياسية على موعد مع تغيير هائل لا نظير له أبداً، لا في القرون السابقة ولا التالية، إذ أن القطبين العالميين المسيطرين (فارس وبيزنطة)، وبعد أن كانا قد خرجا لتوهما من حرب ضروس بينهما، بدأت باحتلال الفرس لبلاد الشام سنة 614 م وانتهت سنة 628 م بانتصار الروم عليهم، بات عليهما أن يواجها قوة عسكرية وسياسية جديدة تماماً، انبثقت من أعماق بلاد الحجاز، ذات المناخ الصعب والطبيعة الفقيرة، وعلى يد قوم بسطاء لم يسبق لهم أن تركوا فيما سبق من التاريخ المعروف أية بصمة كبرى على المسرح السياسي والحضاري العالمي، كما كانت حاضرتهم الكبرى مكة قد تعرضت لخطر الغزو الحبشي قبل عقود قليلة من الزمن، ولم ينقذها من السقوط بين يديه إلا الطير الأبابيل التي ذكرها الله عز وجل في سورة الفيل.**

**إن من بين الأسباب التي سخرها الله عز وجل للدولة الجديدة في المدينة المنورة أنها نشأت في موقع بعيد عن تخوم الدولتين البيزنطية والفارسية (الساسانية)؛ مما جعلها خارج دائرة الاهتمام المباشر لصناع القرار في كل منهما خلال سنوات ولادتها الأولى، أضف إلى ذلك أنهما كانتا مشغولتين في الصراع الدامي الذي نشب بينهما، فمكنها ذلك من النمو وجمع أسباب القوة والبقاء، قبل أن تتنبها لخطرها.**

**وقد بلغ تجاهل الفرس لشأن الدولة الإسلامية الناشئة في الحجاز، أن ملكهم كسرى وعندما بلغه كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الذي يدعوه فيه للإسلام عمد إلى تمزيقه، وأرسل إلى باذان (أسلم لاحقا") نائبه في اليمن يقول له: " ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به "، ولم يكن كسرى يعرف أن أتباع هذا الرجل، الذي يريد من نائبه أن يبعث إليه اثنين فقط لاعتقاله، سيدكون عرشه دكا" ويطفئون نيران معابده خلال أقل من عقدين من الزمن، أما الروم فلم يكونوا ينظرون إلى بلاد العرب إلا على**

أنها " بلاد البؤس والشقاء "، كما أخبروا هم أنفسهم أبا عبيدة إبان فتح الشام، فكان من الطبيعي أن لا يضعوا في حساباتهم أن يتعرضوا للغزو الشامل والمنظم من بلاد هذه حالها.

وحتى عندما استشعرت كل من فارس وبيزنطة الخطر الذي تمثله الدولة الإسلامية على أمنها، فإنهما وجدتا دون شك أن من الصعب على أي منهما أن يشن حملة عسكرية ضد حاضرتها الواقعة خلف صحراء قاسية ومترامية الأطراف لم يعتد جنود كل منهما على التقدم والقتال فيها، كما أن حلفاء تلك الدولتين من المناذرة والغساسنة كانوا أعجز من أن يقوموا بهذا، كما أثبتت الأحداث لاحقا"، وبالتالي فإن دولتي فارس وبيزنطة وجدتا دولة المسلمين تنمو وتتوسع وتهدد تخوم كل منهما، دون أن تمتلكا القدرة على القضاء عليها.

وبعد أن انتقل التفوق الحضاري والسياسي قبل عدة قرون من أيدي رواد الحضارات القديمة في اليمن والهلال

**الخصيب ومصر إلى أيدي الإغريق والرومان والبيزنطيين، قدر له أن يعود من جديد إلى أيدي أحفاد أولئك الرواد، بلباس وجوهر جديدين ومختلفين تماما"، حيث سيحتفظون به رغم كل الأعاصير الداخلية والخارجية لما يزيد عن سبعة قرون من الزمن، كانت القارة الأوروبية خلالها غارقة في بحار من التخلف والفوضى والرجعية والخرافات والاستبداد الكنسي والإقطاعي، وهكذا تمضي سفينة الحضارة في رحلتها من الشرق إلى الغرب، ومن ثم تعود من جديد لتكمل دورتها، كما هو شأنها عبر العصور، والى أن يموت التاريخ وتموت الدنيا معه.**

رجوع للفهرس

# الفصل الثالث

# سقوط إيوان كسرى

لا يسعنا، ونحن نتتبع مسيرة الفتح الإسلامي، إلا أن نقف مبهورين أمام ذلك الاندفاع الهائل والسرعة القياسية التي تمت بها، ولا شك أن أحداً" من أولئك الذين عاشوا بين حرات يثرب وشعاب مكة وبساتين الطائف، في الأعوام التي سبقت البعثة النبوية، ما كان يتصور، ومهما كانت سعة خياله وقدرته على التأمل، أنه سيخرج من هذه البقاع، الفقيرة والمعزولة عن العالم المتحضر آنذاك بمساحات شاسعة من الصحارى أو البحار، بحيث لا يتجاوز اتصالها به بضع قوافل تجارية، لا تكاد تشكل وزناً" يذكر في اقتصاد العالم وتجارته، ما كان يتصور، في ظل هذا الواقع، أنه سيخرج من هذه البقاع جيوش، جنودها كأمثال الجبال في إيمانهم وحماسهم وشجاعتهم، يندفعون في كل الاتجاهات، ليرفعوا راية الدولة، التي وضع لبنتها الرسول

عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضوان الله عليهم، في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد كان المسلمون ـ سواء في العهد الراشدي أو الأموي – مجبرين، بحكم الواقع السياسي المحيط بهم، على خوض الحرب على جبهتين أو أكثر، في نفس الوقت، حيث حققوا رغم ذلك نجاحات عسكرية حاسمة، وهو أمر لم يتح لغيرهم عبر تاريخ الحروب، إذ نجد أن أغلب الأمم التي خاضت عدة حروب في آن واحد ونجحت فيها إما أنها لا تعدو كونها حققت فيها نجاحات محدودة ومرحلية، أو أنها كانت تقاتل أعداء ضعفاء، بعكس المسلمين الذين قهروا أكبر قوتين دوليتين في ذلك العهد خلال بضعة أعوام، أو أن هذه الحروب التي خاضتها تلك الأمم كانت محدودة وقصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر. والملاحظ لدى دارس التاريخ أن أغلب القادة الذين خاضوا عدة حروب في نفس الوقت، مثل نابليون الأول وغليوم الثاني وهتلر، كان نصيبهم الفشل الذريع في نهاية المطاف.

بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، انشغل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتال بعض مدَعي النبوة والقبائل المتمردة على السلطة المركزية في المدينة المنورة، فيما عرف في التاريخ الإسلامي بحروب الردة، كما قام بإرسال جيش إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، كما سبق أن ذكرنا، وما أن اطمأن إلى تماسك الجبهة الداخلية حتى سارع إلى إرسال التعزيزات إلى الشام، كما باشر منذ وقت مبكر في تنفيذ مشروع فتح العراق وإلحاق هزيمة نهائية بالدولة الساسانية، التي كانت قد بدأت تضيق ذرعا" بالنظام الجديد الذي شيده العرب، بعد أن كان حكامها ينظرون إليهم - حتى بعد هزيمة ذي قار - على أنهم عبارة عن مجموعات غوغائية غير متحضرة، من رعاة الإبل، وساكني بيوت الشعر، وهواة السلب والنهب وقرض الشعر، حيث يروي ابن عبد ربه في (العقد الفريد) أن كسرى الفرس قال لزعيم المناذرة النعمان بن المنذر: " لم أر للعرب شيئا" من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة.. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها... فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم

**الإبل التي يعافها كثير من السباع، لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها... ".**

**والجدير بالذكر، أن انشغال المسلمين بالعمليات الحربية ضد الفرس والروم ساهم إلى حد ما في توحيد طاقات المسلمين باتجاه هدف محدد، وإجبار رؤوس الفتنة على الاختفاء لفترة من الزمن، حيث لم يتسن لهم الظهور إلا في زمن الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، ذلك أن الحروب تؤدي إلى زيادة قدرة النخب الحاكمة على حشد أبناء الأمة خلفها، بأسهل بكثير مما عليه الحال في أوقات السلم، كما تدفع تلك التحديات الأمة والقوى السياسية المختلفة إلى تحييد خلافاتها وتناقضاتها، وتجبر قوى المعارضة على الانزواء لعدم قدرتها على العمل في مثل هذه الظروف، وفي ظل هذا المناخ المشحون بالحماس يرتفع صوت الحرب ويخبو صوت السلم، وتتحول الدولة والأمة إلى جسد واحد متناغم يسير نحو مصيره، النصر العظيم، أو الهزيمة النكراء.**

**وباستقراء التاريخ يمكننا أن نلاحظ إلى أي حد نجحت الحروب التي تورطت فيها فرنسا بعد ثورة 1789 في تخليص شعبها من حالة الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تسببت فيها الثورة، وإلى أي حد ساهمت الحرب مع العراق في تثبيت نظام حكم الملالي في إيران.**

**ونعود بعد هذا الاستطراد، لنتناول الواقع في العراق وفارس عشية بدء العمليات العسكرية الإسلامية ضد الإمبراطورية الساسانية، وقد كانت هذه الإمبراطورية قد استعانت لفترة من الزمن بالمناذرة اللخميين؛ لحماية تخومها من غارات القبائل العربية، إلا أن هؤلاء دب فيهم الضعف والفوضى لأسباب عدة بعد مقتل زعيمهم النعمان بن المنذر على يد الفرس أنفسهم، ومنذ ذلك الحين آثر الفرس أن يسيطروا على العراق بطريقة مباشرة من خلال ولاتهم.**

**والملاحظ أن هذه الدولة تشترك مع غيرها من الدول البائدة في مؤشر كبير من مؤشرات السقوط، وهو تعاقب عدد**

من الحكام عليها في السنوات القليلة الأخيرة من عمرها، فقد تعاقب على حكمها خلال الأربع سنوات التي سبقت التدخل الإسلامي في جنوب العراق العديد من الملوك الذين انتهى حكم بعضهم بقتله، ولا ريب أن هذا الأمر كان له انعكاسه السلبي المباشر على الجيش؛ لأنه أدى إلى تسييسه وتشتيت ولاءات أفراده، وإبعاده عن الاهتمام بمواجهة الأخطار الخارجية، أضف إلى ذلك أن الفرس، الذين كانوا قد تمكنوا منذ عهد قصير من احتلال بلاد الشام ونهب القدس وغزو دلتا النيل وتهديد القسطنطينية نفسها، سرعان ما تلقوا هزيمة مريرة على يد قوات الروم بقيادة هرقل؛ مما ساهم في تردي أحوال دولتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية، ومهد الطريق إلى سقوطها المدوي، كما أن هذه الدولة كانت تعيش حالة واضحة من الفوضى الدينية، حيث تعددت فيها الديانات من زرادشتية ومانوية ويهودية ونصرانية وبرهمية وبوذية، وقد رافق هذه الفوضى اضطهاد ديني وسياسي مارسه أتباع الزرادشتية، التي كانت قد أصبحت الديانة الرسمية للدولة، وقد ساهم هذا

**الواقع في تشتيت ولاءات السكان ونفورهم من الحكم الكسروي.**

**بعد أن أتم زعيم قبيلة شيبان (من بني بكر بن وائل) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم رضي الله عنه إخضاع القبائل المتمردة في شرقي شبه الجزيرة العربية، باشر، بتخويل من الخليفة رضي الله عنه، بالتعرض ضد بعض القبائل المشركة المتواجدة على تخوم العراق، واتّبع في ذلك أسلوب الكر والفر، ومما تنبغي الإشارة إليه أن بني بكر كان لهم تاريخ مرير من الصراع مع الفرس، حيث سبق لهم أن انتصروا عليهم في معركة ذي قار، التي تعد مؤشرا" على تدهور الواقع السياسي والحربي لدولة آل ساسان.**

**ويبدو أن أبا بكر رضي الله عنه قد أقلقه الموقف الحربي لقوات المثنى، وآثر أن لا يكون المجهود الحربي في العراق مقتصرا" على القبائل المتاخمة له، وأن يطوره بحيث يسخر له طاقات الدولة البشرية والمادية، فسارع إلى إرسال**

خالد بن الوليد رضي الله عنه من اليمامة إلى هناك في أوائل سنة 12 ه (633 م)، على رأس قوة بلغ تعدادها حوالي عشرة آلاف جندي، تم حشدها من عدة قبائل بعيدا" عن أنظار الفرس في منطقة (النباج) على الطريق المؤدية إلى جنوبي العراق، وقد أمر الخليفة رضي الله عنه خالدا" بأن يجند في جيشه المتطوعين الذين لا توجد أية شكوك في إيمانهم وإخلاصهم، كما أمر المثنى بأن ينضم إليه بقواته البالغ عددها ثمانية آلاف جندي، فاستجاب لذلك بكل رحابة صبر، كما أصبح هو ورجاله مصادر معلومات غنية عن جغرافيا أرض السواد (العراق) وأحوالها واتجاهات سكانها، إضافة إلى طبائع الفرس وإمكانياتهم وأساليبهم في القتال.

وهكذا تطور الصراع ضد الفرس، من مجرد غارات متقطعة على حدودهم، إلى تعرض واسع النطاق شامل الأهداف، دفع المسلمين إلى القيام به إيمانهم العميق بالوعد الإلهي الحق، الذي تحدث عنه الرسول عليه الصلاة والسلام في أحلك وأصعب أيام الدعوة، والمتمثل باستحواذ المسلمين

**على ملك كسرى. ومن ناحية أخرى كانت أرض العراق، بمائها الوفير وأرضها المعطاء، تمثل بالنسبة لعرب شبه الجزيرة هدفا" ثمينا" ورائعا" هم في حاجة ماسة إليه، لكي تتوفر لهم الموارد الكفيلة ببناء دولتهم الفتية والدعوة إلى الدين الحق.**

**كان خالد بن الوليد بن المغيرة، الذي أسلم في صفر من العام الثامن من الهجرة، وهو في العقد الخامس من عمره، مشهودا" له بين قومه بالشجاعة والقوة الجسدية والكفاءة الحربية، وقد لمع اسمه في هذا المضمار منذ أيام شبابه في مكة، حيث أتاح له انتماؤه إلى بيت قريشي عريق (بني مخزوم) أن يتعلم فنون القتال والفروسية وتحمل مشاق المعارك وأهوالها، كما قام أهله بإرساله إلى البادية لاكتساب الصبر والخشونة والفروسية والقوة البدنية، ويذكر أنه لم يكن يماثله في ذلك من أبناء مكة إبان عهد الجاهلية سوى قلة، من بينهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي سبقه إلى اعتناق الإسلام بسنوات عديدة، ومن المعروف أن بني مخزوم كانوا هم المسئولين خلال عهد الجاهلية عن إدارة شؤون مكة**

الحربية؛ لذلك كان من الطبيعي أن يخرج من بينهم قائد ماهر ومقدام لا يشق له غبار كخالد.

وبعد أن كان خالد السبب المباشر في انتصار المشركين في أحد، كما تحدثنا سابقا"، ثم سبّب الكثير من العناء للمسلمين في غزوة الخندق، وحاول التصدى لهم وهم في طريقهم إلى مكة قبيل صلح الحديبية، أصبح بعد إسلامه أحد أبرز قادة الرسول عليه الصلاة والسلام وأشجعهم وأكثرهم اندفاعا"، حتى ظفر بلقب سيف الله المسلول بعيد معركة مؤتة، التي يروى أنه استمات في القتال فيها، لدرجة أنه قد تحطمت في يده تسعة أسياف.

ولا شك أن هذا اللقب العظيم يحمل في طياته معنى كبيرا"، هو أن هذا الصحابي الجليل والقائد الهمام بريء بدون أدنى شك من كل التهم والتلفيقات السخيفة، التي حاول بعض المؤرخين أن يلصقوها به عند تناولهم لبعض الحوادث؛ مثل غزوة بني جذيمة، وقتله للمرتد مالك بن نويرة وزواجه من

أرملته أم تميم، وخلافه مع الخليفة الفاروق رضي الله عنه، وتنكيله ببعض أعداء المسلمين خلال حروب الردة، فمما لا يصل إليه الشك أبدا" أن خالدا"، وبغض النظر عن صواب أو خطأ بعض اجتهاداته، لم يكن من طالبي الشهرة والنفوذ مثل الكثير من أولئك الذين نشروا الموت والخوف بين البشر، بهدف تحقيق أحلامهم الشخصية ومطامعهم الدنيوية، التي كانت سرعان ما تتبخر في لحظة واحدة، وكأنها لم تكن. لقد كان خالد في حروبه يبني لنفسه جنة في السماء، لا تشكل كل أمجاد وإمبراطوريات الدنيا السابقة والقادمة شيئا" يذكر أمامها.

لقد كلف الرسول الكريم خالدا" بالعديد من المهمات العسكرية، كقيادة سرية بني جذيمة، وقيادة الفرسان في غزوتي حنين وتبوك، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام ساهم خالد في إعادة بسط سلطة الدولة على القبائل المتمردة في شبه الجزيرة، وقد ساهم إلى حد كبير في القضاء على تمرد طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة الكذاب، ثم قدر له

أن يتوجه إلى العراق فالشام، ليقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر، وهو يرتدي الدرع الذي غنمه من مسيلمة الكذاب.

كانت خطة أبي بكر رضي الله عنه تتمثل في أن يزحف خالد بقواته داخلا" أرض السواد (الجزء الجنوبي من دولة العراق الحالية) من الجنوب، بينما يدخلها عياض بن غنم الفهري من الشمال، ليحاصرا بذلك القوات الساسانية بين فكي كماشة كبيرين، وذلك على أن يلتقيا في نهاية المطاف في حاضرة عرب المناذرة وثاني أهم مدن العراق (الحيرة)، التي تقع آثارها القليلة اليوم قرب مدينة النجف، ثم يواصلان التقدم معا"، بعد أن يتولى أسبقهما في الوصول إليها القيادة، ومن الملاحظ أن أبا بكر اتبع هذه الإستراتيجية المتمثلة في تلاقي الجيوش ـ بعد عملها على محاور مختلفة ـ في مختلف ساحات الحروب الأخرى، في شبه الجزيرة (ضد المرتدين) وفي بلاد الشام.

والجدير بالذكر، أنه، ووفق ما هو معروف في المصادر التاريخية، كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها قوات منظمة إلى العراق من جنوبه، رغم كثرة الأقوام التي غزت هذا البلد منذ فجر التاريخ، وقد مثل هذا الأمر مفاجأة كبيرة للفرس، الذين كان العدو الخارجي يتمثل بالنسبة لهم في الروم وحلفائهم من عرب الشام فقط، ولم ينظروا فيما سبق إلى القبائل العربية في نجد والحجاز على أنها مصدر خطر كبير، حتى بعد هزيمة ذي قار. ومن ناحية أخرى، كانت العمليات الحربية في جنوب العراق صعبة على جنود المسلمين، الذين لم يعتادوا على القتال وسط أراض خضراء خصيبة تتخللها المستنقعات والأنهار الفرعية.

بعث خالد إلى هرمز الحاكم الفارسي في جنوب العراق يقول له : " أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة "، ثم زحف بقواته على عدة محاور متقاربة، حتى وصل إلى كاظمة التي تشكل اليوم

جزءا" من دولة الكويت، وكانت خطته تتمثل في الاستيلاء على الميناء الفارسي الهام (الأبلة)، الواقع شمالي الخليج العربي، وكان هذا الميناء يوصف بـ " فرج الهند "؛ لأن المسيطر عليه تصبح بين يديه إحدى أهم الطرق التجارية في ذلك الزمان، علما" بأن هذا الميناء احتفظ بأهميته الإستراتيجية العالمية حتى وقت متأخر من العصور الحديثة.

قرر خالد أن تكون الحفير أول أهدافه؛ لكونها ملتقى الطرق المؤدية إلى الأبلة، ولاحتوائها على مصادر مياه وفيرة، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أرتال، وقام هو بقيادة القسم الرئيسي من الجيش، وبدأ في تنفيذ بعض حركات التنقل الإستراتيجية ذهابا" وإيابا" بين كاظمة والحفير؛ بهدف استنزاف قوة الفرس الذين لم يكونوا معتادين على حروب الصحراء أو على الحروب الخاطفة، التي تتطلب السرعة في المسير والمناورة، والحقيقة أن تفوق العرب في تنفيذ إستراتيجية الحرب الخاطفة كان له فضل كبير في إنجازاتهم الحربية اللاحقة.

**ذلك أن خالدا" زحف شمالا" إلى الحفير، في الوقت الذي كان فيه هرمز يخطط لمهاجمة الجيش الإسلامي في كاظمة، على بعد عشرات الأميال من الحفير، ولما علم بتحرك خالد سارع إلى محاولة اللحاق به في الحفير، غير أن خالدا" ما لبث أن عاد بقواته إلى كاظمة، في سرعة لا يسعنا إلا أن نقف أمامها مبهورين، ونظرا" لبطء حركة جيش الفرس المثقل بالأسلحة والتجهيزات بات على جنوده أن يصرفوا الكثير من صبرهم وطاقتهم في الانتقال من منطقة إلى أخرى، بحثا" عن جيش المسلمين الخفيف والسريع الحركة. لقد وجد هرمز نفسه رهينة خطط خالد، ولم يكن في استطاعته المغامرة بالتقدم بجيشه نحو البادية، لقطع الطريق على الجيش الإسلامي الذي كان سيد حروب الصحراء بدون منازع.**

**ثم عاود هرمز زحفه نحو كاظمة، حيث احتل موقعا" يتيح له الحيلولة دون وصول المسلمين إلى نهر الفرات، وقد أمر بربط جنوده بعضهم ببعض بالسلاسل؛ للحيلولة دون اختراق صفوفهم من قبل فرسان المسلمين، بينما رفض**

حلفاؤه العرب القيام بذلك وحذروه من سلبياته! ولا شك أن هذا التكتيك كان يعكس الحالة المتردية لجيش هذه الإمبراطورية التي لم تكن قد أفاقت بعد من صدمة الهزيمة أمام الروم، وقد أسدى هرمز بعمله هذا خدمة ثمينة للمسلمين؛ لأنه حول الجزء الأكبر من جيشه إلى ما هو أشبه ببعير قد عقلت قوائمه، وفاته أن هذا التكتيك المبتذل لا يمكن أن يكون ناجعا" أمام جيش يتمتع جنوده بقدرة عالية على الحركة في ميدان القتال.

وفي المعركة التي دارت رحاها في كاظمة في محرم من سنة 12 هـ (آذار 633 م)، والتي حملت اسم (ذات السلاسل)، كان الفرس على موعد مع الهزيمة الأولى من سلسلة الهزائم التي انتهت بالسقوط المدوي لدولتهم، وقد كان خالد موفقا" في استثمار هذا الانتصار، فعمد إلى مواصلة التقدم بهدف عدم إتاحة الفرصة للأعداء لالتقاط أنفاسهم وحشد قوة كبيرة لمواجهته.

**وكانت المعركة قد بدأت بمبارزة بين خالد وهرمز، أسفرت عن مصرع الأخير، رغم محاولة بعض رجاله التدخل لصالحه خلافا" لأعراف الجيوش في ذلك الزمن، وقد أدت رؤية الجنود الفرس لقائدهم المعروف ببأسه مجندلا" على الأرض ومضرجا" بدمائه إلى تدني معنوياتهم، ومما يشار إليه في هذا المقام أن المبارزات الشخصية بين القادة مثلت إحدى أبرز سمات المعارك في ذلك العصر، وقد اهتم بها المسلمون؛ لما لقتل قادة الأعداء في بداية المعركة من تأثير سلبي كبير على معنوياتهم وعزائمهم، ويمكننا مشاهدة هذه المبارزات بوضوح في الكثير من المعارك التي خاضتها الجيوش الإسلامية منذ معركة بدر.**

**بعد هزيمة ذات السلاسل أصبح الطريق مفتوحا" أمام خالد للتوغل في أرض السواد، فاستولى على الأبلة في نفس الشهر، وعين معقل بن مقرن المزني حاكما" عليها، كما استولت قوة بقيادة المثنى على حصن نهر المرأة، وفي تلك الأثناء اجتمعت في المذار (قرب واسط حاليا") فلول الفرس**

الهاربة من كاظمة مع القوات التي أرسلتها المدائن (طيسفون) إلى الجنوب بقيادة قارن بن قريانس للتصدي للمسلمين، فتقدم خالد في حركة مفاجئة إلى هناك في أوائل صفر من نفس السنة، وشن على الفرس هجوما" جبهويا"، انتهى بإلحاق هزيمة أخرى أكثر مرارة بهم، وقد كانت هذه المعركة (معركة المذار) هي المعركة الوحيدة التي قام بها خالد شرقي نهر دجلة، وشرعت فلول الفرس بعيد المعركة باستخدام السفن للهروب إلى الضفة الأخرى من نهر دجلة، ولم يستطع المسلمون مطاردتهم؛ لعدم وجود وسائل للعبور بحوزتهم، وذكر بعض المؤرخين أنه لو لم تتوفر للفرس هذه الوسائل للهروب لكان جيشهم قد أبيد برمته في هذه المعركة التي عرفت أيضا" بمعركة الثني (النهر).

وبعد هذه المعركة أرسلت المدائن جيشين يقود كل منهما الأندرزغر وبهمن بن جاذويه؛ للوقوف في وجه خالد والحيلولة دون تقدمه إلى الحيرة، وقد انضم نصارى قبائل بكر بن وائل ونصارى الحيرة وتغلب إلى الفرس، وعندئذ سارع

**خالد إلى تغيير خط سيره، وسلك طريقا" طويلا" خاليا" من الكمائن الفارسية، ثم استفرد بقوات الأندرزغر في منطقة الولجة (بين الكوت والناصرية حاليا") في 22 صفر سنة 12 ه (أيار 633 م) قبل أن يلتقي بقوات بهمن، وقبيل المعركة وضع خالد كمينين من الخيالة خلف الجيش الفارسي من اليمين واليسار، وبعد أن استبسل جنوده في مقاتلة المسلمين أمر خالد الكمينين بالهجوم على مؤخرة الجيش الفارسي، واضعا" إياه بذلك بين فكي كماشة، شبيهة بكماشة هنيبعل في معركة كاني، مما أدى إلى هزيمة ثالث جيش فارسي جمعته المدائن بعد أن تكبد خسائر كبيرة، وفر الكثير من جنوده هائمين على وجوههم في الصحراء، بعد أن حال ماء الفرات دون هروبهم شمالا" باتجاه المدائن، وتشير بعض الروايات إلى أن الأندرزغر ضل طريقه في الصحراء، وهلك من شدة العطش.**

**ولنا أن نتخيل الصدمة الكبيرة التي شعر بها قادة الفرس بعد أن رأوا قواتهم الجرارة والمحترفة تتكبد الهزيمة الواحدة**

تلو الأخرى، على يد قوات صغيرة من البدو الجياع الذين لا يرتدون زيا" عسكريا" موحدا"!

وعندئذ طلب كسرى من بهمن جاذويه أن يترك قيادة الجيش لجابان، ويعود إلى المدائن لمواجهة الاضطرابات التي اندلعت فيها، وهي كانت من بين العوامل التي حالت دون تمكن الفرس من حشد كامل طاقاتهم لمواجهة الزحف الإسلامي، وأثناء ذلك قدمت المزيد من التعزيزات إلى الفرس وحلفائهم، بحيث أصبح حجم قواتهم حوالي 150 ألفا" مقابل 18 ألفا" من المسلمين، غير أن هؤلاء ما لبثوا أن باغتوهم في أليس على مقربة من الولجة، بينما كانوا على موائد الطعام، ففتكوا بهم وقتلوا منهم أكثر من 70 ألفا" على ما يروي الطبري، لدرجة أن المسلمين أطلقوا على أحد روافد الفرات الذي دارت المعركة قربه اسم (نهر الدم)، وعندما وصلت أنباء هذه المعركة إلى المدينة قال أبو بكر عبارته المشهورة: " أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ".

بعد أليس أصبح الطريق مفتوحا" للاستيلاء على الحيرة صاحبة المجد الغابر، فتقدم خالد إلى أمغيشيا، المدينة الكبيرة التي كان سكانها قد هجروها، فدخلها دون أن يلقى أية مقاومة، وأمر بتخريبها ليجعلها عبرة لغيرها من مدن العراق، ثم ألحق هزيمة أخرى بالفرس في معركة المقر، وحاصر قلاع الحيرة الأربع، وصالح أهل الحيرة والمناطق المجاورة لها على جزية سنوية، لتصبح معظم البلاد الواقعة بين النهرين تحت سيادة المسلمين، وهكذا رحلت الحيرة غير مأسوف عليها إلى قائمة مدن العراق المندثرة، ليبدأ بعد عقود قليلة عصر الكوفة والبصرة وبغداد الذهبي.

وتشير المصادر إلى أن المسلمين بعد أن استولوا على بعض السفن النهرية الفارسية خلال تقدمهم، عمدوا إلى استخدامها في نقل الجيش عبر ماء الفرات، فحاول الفرس الحيلولة دون ذلك، من خلال حبس الماء عن مجراه، عبر إغلاق القناطر المقامة عليه، غير أن خالدا" سارع إلى إحباط محاولتهم هذه باستيلائه على القناطر نفسها.

**ثم ولى خالد القعقاع بن عمرو التميمي على الحيرة، واستكمل تقدمه بنصف جيشه تقريبا"، فاحتل مدينة الأنبار الحصينة (قرب الفلوجة)، التي أطلق المسلمون على معركتها اسم (ذات العيون)؛ لأن رماة النبال المسلمين فقأوا أثناءها عيون حوالي ألف من مقاتليها، ومما تجدر الإشارة إليه أن المقاتلين المسلمين تمكنوا من اجتياز خنادقها التي تحصن خلفها الأعداء، بعد أن ملأوها بالماء، بأن ذبحوا الإبل الهزيلة التي لا يرجى منها فائدة، وألقوا بجثثها داخل الخندق، فشكلوا منها جسرا" للعبور.**

**ثم أحرز خالد نصرا" حاسما"على القوات العربية الحليفة للفرس، التي يقودها عقة بن أبي عقة، في منطقة الرمالية، كما احتل حصن عين التمر، الذي سارع القائد الفارسي مهران ابن بهرام إلى إخلائه والانسحاب إلى المدائن، دون أن يغامر بالاشتباك مع المسلمين.**

**كان عياض بن غنم حينذاك لا يزال أمام حصون دومة الجندل بعد أن استعصت عليه، فاستنجد بخالد، فاستخلف هذا القعقاع على قيادة الجبهة، وسار بجزء من الجيش في زمن قياسي لا يتجاوز العشرة أيام نحو دومة الجندل، حيث قضى على تمرد قبائلها النصرانية، واستولى على حصنها بعد أن حاصره لعدة أيام، في حين بادر عياض إلى الانضمام بقواته إلى جيش خالد.**

**وفي تلك الأثناء، كان الفرس قد استيقظوا من صدمتهم واستجمعوا شيئا" من شجاعتهم، لدى علمهم بغياب خالد عن الجبهة، فحشدوا جيوشهم، التي بدت أقل كفاءة من الجيوش السابقة، في الحصيد والخنافس؛ بهدف استعادة الحيرة، فسارع القعقاع لإرسال قواته لمناوشتها، وعندما عاد خالد إلى العراق واصل قتاله للفرس وحلفائهم في مواقع عدة، فانتصر عليهم في الحصيد وغنم الكثير من الغنائم، وعندئذ سارع الفرس إلى الانسحاب من الخنافس، فدخلها المسلمون دون قتال، وبعد فترة قصيرة استولى المسلمون على المصيخ، بعد**

أن زحفوا إليها من ثلاثة محاور، فباتت القوات الإسلامية بذلك على مقربة من المدائن، ثم تقدم خالد إلى شمال العراق وشن هجوما" ليليا" من ثلاث جهات على منطقة الثني، وسارع بعد ذلك إلى احتلال الزميل؛ لكي لا يتيح للأعداء أية فرصة لاستجماع صفوفهم وامتصاص صدمة الهزيمة. وقد كان أسلوب العمليات الليلية من النقاط المثيرة للإعجاب في تاريخ خالد بن الوليد؛ لأن الجيوش لم تتوسع في استخدامه إلا في فترة متأخرة من العصر الحديث، خاصة بعد أن تم اختراع معدات ووسائل الرؤية الليلية.

واصل خالد تقدمه شمالا" إلى أن وصل إلى منطقة الفراض (على الحدود العراقية السورية حاليا")، وكانت هذه المنطقة تقع على الحدود الفارسية الرومية! على بعد عدة مئات من الكيلو مترات عن الحيرة، وقد انتصر خالد هناك في معركة صغيرة على تحالف فريد من نوعه، ضم قوات فارسية ورومية إضافة إلى بعض القبائل النصرانية العربية، حيث شكل هذا التحالف تجسيدا" لحقيقة أن " ملة الكفر واحدة "، وبعد

هذا الانتصار أمر خالد الجيش الإسلامي بالعودة إلى الحيرة، بعد أن استكمل تطهير المنطقة الواقعة غربي المدائن من الوجود الفارسي.

ومن الجدير بالتأمل، أنه أثناء عودة الجيش الإسلامي من الشمال العراقي إلى الحيرة عمد خالد وبعض رجاله، وفق كثير من المصادر، إلى تركه والتوجه خفية إلى مكة، حيث أدوا فريضة الحج متنكرين، ثم سارعوا إلى العودة إلى الحيرة قبل أن تستقر فيها قوات المسلمين، وتعتبر هذه النقطة من بين الأمور التي أثار المؤرخون الكثير من الجدل حولها، فقد اعتقد بعضهم كالطبري أن قيام الخليفة أبي بكر رضي الله عنه بإرسال خالد إلى الشام كان بمثابة إجراء عقابي؛ لإقدامه على ترك الجبهة والتوجه إلى الحجاز، ولا شك أن هذا التحليل ينطوي على الكثير من السطحية؛ لأنه من غير الممكن أن تتم معاقبة قائد ما أو التقليل من أهميته عبر تكليفه بواجب قيادي آخر أكثر حساسية بالنسبة للموقف الحربي للدولة!

**ففي تلك الفترة، كان وضع القوات الإسلامية في بلاد الشام قد غدا حرجا"، على أثر نجاح الروم في حشد جيش عرمرم لملاقاتها، فبادر أبو بكر إلى الإيعاز لخالد بالتوجه إلى هناك، بعد أن ألحق بجيوش الإمبراطورية الساسانية خمس عشرة هزيمة، جعلت الكابوس الذي رآه كسرى في منامه قريب التحقق، والملاحظ حقا" أن خالدا" وخلال حملته المظفرة في تلك الأرض، التي لعبت منذ ذلك الحين ولبضعة قرون من الزمن دورا" محوريا" في تاريخ الإسلام والعالم، لم يواجه أي فشل ولم يمن بأية هزيمة.**

**وكان من أبرز أسباب نجاح خالد هو حرصه الشديد على ترك الحاميات في المناطق المفتوحة، والسرعة الكبيرة التي كان يتقدم بها من مكان إلى آخر، سالكا" طرقا" طويلة وغير متوقعة، حتى يفاجئ أعداءه في المكان والزمان غير المتوقعين، فيوجه إليهم ضرباته الباترة في أوهن نقاطهم وأضعفها، فيدب الاختلال والفوضى في صفوفهم وتنهار عزيمتهم على القتال، فكان على الدوام عند وصف أكيدر بن**

عبد الملك له بقوله: " أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائرا" منه... ولا يرى وجه خالد قوم أبدا" قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ... ". إن خالد بن الوليد كان أحد أبرز رواد ما عرف بعد أكثر من ألف سنة بـ (إستراتيجية الهجوم غير المباشر)، وقد طبق هذه الإستراتيجية على أكمل وجه في جميع معاركه، ولم يواجه الهزيمة قط، أما القادة الآخرون، كالمثنى بن حارثة وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد، فلم تخل ملاحمهم البطولية من بعض العثرات والأخطاء الإستراتيجية والتكتيكية.

خلف المثنى خالدا" في قيادة قوات الفتح لفترة قصيرة، انتصر خلالها على الفرس في بابل، ثم انضم للجيش الإسلامي عدد من المتطوعين من الحجاز، على رأسهم أبي عبيد الثقفي (وهو والد المختار الكذاب) الذي تسلم قيادة جيش الفتح، وكان هذا الرجل أول قائد إسلامي من غير الصحابة رضوان الله عليهم، وكان الفرس قد نجحوا حينذاك في تحسين موقفهم الحربي، رغم هزيمتهم على يد أبي عبيد في معركة النمارق

قرب الحيرة، واضطرارهم إلى التراجع باتجاه قاعدتهم الرئيسية في المدائن بعد وقوع قائدهم جابان في الأسر، وقد رفض أبو عبيد قتل هذا القائد؛ بسبب قيام أحد جنوده بمنحه الأمان وهو لا يعلم أنه قائد الجيش المعادي، ولعل هذه الحادثة هي إحدى الإشارات الكثيرة الداحضة لاتهامات المستشرقين، والكاشفة لسخف بضاعتهم التي يحاولون الترويج لها، بقصد تشويه الصورة البهية لتاريخنا.

ثم كبد أبو عبيد الفرس هزيمة أخرى في كسكر، بالقرب من بابل القديمة، فحشدوا المزيد من القوات لمواجهة المسلمين. وفي معركة الجسر التي تسمى أيضا" معركة قس الناطف (نسبة إلى المنطقة التي جرت فيها) أو معركة المروحة، والتي وقعت على نهر الفرات في شعبان سنة 13 ه الموافق لخريف سنة 634 م، أي بعد نصر اليرموك في الشام بأقل من شهرين، لاقى المسلمون هزيمة مرة على يد قوات الفرس، ولا شك أن تبعة الهزيمة في هذه المعركة تعود بالدرجة الأولى إلى أبي عبيد نفسه، الذي دفعه الحماس الشديد

إلى التقدم عبر الجسر لمواجهة القوات الفارسية المحتشدة على الضفة الأخرى من نهر الفرات، بعد أن خيره قادتها بين عبوره إليهم أو عبورهم هم إلى الجيش الإسلامي، وقد ضرب بنصائح قادته الذين حذروه من مغبة ذلك عرض الحائط، فوضع قواته بذلك في مكان ضيق أشبه بعنق الزجاجة لا مجال للمناورة فيه مطلقا"، وبخاصة أنه جعل مواضع هذه القوات بين العدو من جهة ونهر الفرات من جهة أخرى، وقد نجح الفرس في استغلال هذا الخطأ التكتيكي لتحقيق نصر طالما هفت أنفسهم إليه، بعد سيل الهزائم المرة التي أذاقهم إياها خالد بن الوليد، ومما ساعدهم على ذلك استخدامهم للفيلة في اختراق صفوف المسلمين، إذ أثارت هذه الفيلة، بالإضافة للأصوات المنبعثة من الجلاجل (الأجراس) المركبة عليها، الذعر بين خيول المسلمين، وقد قتل أبو عبيد خلال المعركة بعد أن داسه أحد الفيلة، في حين سارع المثنى بن حارثة إلى تولي القيادة وإنقاذ الموقف والتخفيف من وطأة الهزيمة على المسلمين، إضافة إلى حرمان الفرس من استثمار نصرهم.

**لكن هذه المعركة لم تؤثر كثيراً على الموقف الحربي على أرض العراق، رغم الخسائر الكبيرة التي لحقت بالمسلمين، بدليل أن الأخيرين ما لبثوا أن انتصروا وقتلوا قائد الفرس مهران الهمذاني بعد حوالي شهر واحد في معركة البويب (نسبة إلى أحد روافد الفرات)، على مقربة من الحيرة، وقد استفاد المثنى خلال تخطيطه لهذه المعركة من دروس معركة الجسر، فآثر عدم عبور الجسر وانتظر القوات الفارسية حتى عبرت هي إليه، وعرفت هذه المعركة في التاريخ الإسلامي بـ (الأعشار)؛ لأن كثيراً من جنود المسلمين قتل كل منهم خلالها عشرة جنود من الفرس.**

**وعندما تبين للمسلمين حراجة موقفهم الحربي، اضطروا إلى الانسحاب من بعض المناطق المفتوحة، والتمركز على مقربة من الصحراء؛ ليتسنى لهم الحفاظ على خطوط إمداداتهم.**

وعند ذلك قام الخليفة عمر بإرسال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى العراق؛ ليتولى القيادة بدلا" من المثنى، الذي ورغم تسلمه القيادة في فترات متقطعة، لا يمكننا أبدا" التقليل من أهمية الدور الذي اضطلع به - إلى جانب خالد بن الوليد - في التمهيد لنصري القادسية ونهاوند، وتعويد جنود المسلمين على القتال فوق أرض لم يسبق لهم أن اعتادوا على مثلها في شبه الجزيرة، وتشير الروايات إلى أن المثنى توفي في صفر من السنة التالية، متأثرا" بمضاعفات جراحه التي كان قد أصيب بها في معركة الجسر، قبل أن يصل سعد إلى الجبهة.

وقد قدر لسعد أن يكون صاحب النصر الكبير في القادسية، الذي جعل من انهيار إمبراطورية الأكاسرة مسألة وقت لا أكثر، مع أنه ينبغي أن لا ينسب فضل هذا النصر إليه وحده؛ لأنه في نهاية الأمر جاء حصادا" لسنوات من الإنجازات التي حققها خالد والمثنى والقعقاع وغيرهم من القادة، الذين كتبوا تاريخ المسلمين في تلك الفترة بأحرف من

مجد. وإن مما يدعو للأسف أننا كمسلمين معتادين على إلصاق الإنجازات الكبيرة (وكذلك الأخطاء الكبيرة) بشخص واحد، متناسين آخرين ساهموا إلى حد كبير فيها، ومتناسين أيضا" المسئولية العامة للأمة، سواء كولاة أمر أو كمواطنين عاديين.

كما يجدر بنا أن ندرك الفضل الكبير للخليفة الفاروق عمر رضي الله عنه، الذي أدار الصراع المحتدم على جبهتين، آخذتين بالاتساع، بحنكة إستراتيجية مثيرة للدهشة، وتدخل في أدق التفاصيل الحربية، وتفوق في ذلك بدون شك على كبار الزعماء عبر العصور، والجدير بالذكر أن قيامه بتنظيم شؤون الجيش، وإنشاء ديوان الجند لتقييد أسماء المقاتلين وتنظيم المجهود الحربي للدولة، ساعد المسلمين على حشد أعداد كبيرة من المقاتلين خلال وقت قياسي، ووفر للمؤسسة العسكرية الإسلامية مرونة وكفاءة قل نظيرها في التاريخ العسكري للعصور الوسطى.

**وكان عمر قد بادر فور تسلمه مقاليد الخلافة إلى رفع مستوى الاهتمام بالجبهة العراقية، عبر إرسال التعزيزات إلى هناك، ويبدو أن ما دفعه إلى ذلك هو الانتصار الحاسم الذي تحقق للمسلمين في اليرموك، ونجاحهم في التقدم عبر جميع محاور الجبهة الشامية بسرعة منقطعة النظير، بينما كانت القوات الإسلامية في جبهة العراق تواجه مشقة كبيرة في القتال، مما جعل من الضروري تحويل الاهتمام إليها، كما أن أبا بكر كان قد أوصاه بذلك وهو على فراش الموت. ويشير بعض المؤرخين إلى أن المسلمين كانوا يعتبرون محاربة الفرس وفتح بلادهم أمرا" أكثر صعوبة وأشد خطرا" من محاربة الروم. وتروي المصادر أن المثنى توجه بنفسه إلى المدينة رغم حالته الصحية الصعبة، لطلب المدد للجيش في العراق. وقد قام عمر بإصدار أوامره إلى أبي عبيدة في الشام لإرسال التعزيزات إلى هناك، فسارع الأخير بعيد فتح دمشق إلى إرسال قوة إلى هناك بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، كما أرسل عمر قوة يقودها عتبة بن غزوان لإعادة**

**الاستيلاء على الأجزاء الجنوبية من العراق، بهدف حماية خطوط إمداد القوة الرئيسية للمسلمين.**

**افتتح سعد عملياته الحربية بإلحاق الهزيمة بالفرس عند ماء العذيب، ثم سارع إلى حشد القوات الإسلامية في القادسية عام 15 هـ (636 م)، وسار وفق نصيحة المثنى قبيل وفاته، والمتضمنة عدم المجازفة بالتوغل في عمق المناطق الفارسية والاكتفاء بالتعرض على الحدود، وقد باشر من هناك بإرسال دورياته إلى أماكن تواجد القوات الفارسية، بهدف جمع المعلومات عنها واستنزاف قوتها قبل شن هجومه الرئيسي، وقدر بعض المؤرخين تعداد جيش المسلمين حينذاك بثلاثين ألفا".**

**أما الفرس، فبدأوا بحشد جيش عرمرم بلغ تعداده 120 ألفا" (وفق بعض الروايات)، بقيادة حاكم خراسان رستم بن فروخ هرمزد، الذي كان قد تعمد تأخير الزحف من المدائن لعدة أشهر، في محاولة لبث الضجر والكسل في نفوس**

**المسلمين، وقد أجمع المؤرخون على أن قادة وجنود الجيش الفارسي كانوا في حالة معنوية سيئة، بعد أن أنهكتهم الصراعات الداخلية على الحكم والمعارك المتتالية مع الروم، وبذل الفرس الكثير من الجهود في سبيل الوصول إلى تسوية مع المسلمين تنقذ إمبراطوريتهم من السقوط، وتتيح لهم الوقت الكافي لحشد قوة قادرة على قهر المسلمين، فأرسل سعد إليهم عددا" من الصحابة من بينهم المغيرة بن شعبة والنعمان بن مقرن للتفاوض معهم، وكان المسلمون واثقين من تفوقهم الميداني رغم قلة عددهم، فأصروا على تخيير الفرس بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية، ولما رفضوا ذلك باتت معاودة الأعمال القتالية بين الطرفين أمرا" لا مفر منه. ويروي البلاذري أن رستم قال للمغيرة في ختام حوارهما: " والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غدا" حتى نقتلكم أجمعين "، فرد عليه المغيرة: " لا حول ولا قوة إلا بالله "، ثم غادر مجلسه.**

**عندما ابتدأت المعركة بين الطرفين كان سعد مصابا" بعرق النسا وبعض الجروح والدمامل، ولا يستطيع المشاركة**

بنفسه في القتال، فاضطر إلى الإشراف على المعركة مكبا" على وجهه من على سطح حصن العذيب، بينما سلم زمام القيادة المباشرة للعمليات إلى خالد بن عرفطة العذري.

وقد استمرت هذه المعركة الضروس لأربعة أيام، أطلق العرب اسما" على كل منها (أرماث وأغواث وعماس والقادسية)، حيث كان القتال يهدأ في بعض أوقات الليل، ليحتدم من جديد ما أن تشرق شمس اليوم التالي.

تميز القتال في اليوم الأول برشق النبال، وهجوم الفيلة، وقد سبب استخدام الفرس لحوالي ثلاثين منها عناءا" كبيرا" للمسلمين، خاصة للفرسان؛ وذلك لأن الخيول كانت تجفل منها بسبب حجمها الكبير وصوتها المرتفع، ومن المعروف أن الفيلة تعيش في الهند وبعض مناطق إفريقيا، ولم يسبق لأغلب العرب أن رأوها، ويلاحظ أن الفرس قاموا بدفع هذه الفيلة نحو أجنحة الجيش الإسلامي، بهدف خلخلتها، في أسلوب يمكننا تشبيهه بتكتيكات الدبابات في معارك القرن الماضي، وقد نجح

بعض جنود المسلمين في مشاغلة راكبي الفيلة بالسهام، بينما قام زملاؤهم الآخرون بتقطيع الأحزمة المثبتة للصناديق الموضوعة على ظهورها، كما أقدم بعض الفرسان على فقئ أعينها برماحهم.

وبعد أن جرد المسلمون الفرس من سلاحهم هذا، باشروا في استخدام الإبل ضدهم، من خلال دفعها للهجوم بشكل جماعي على صفوف الجنود الفرس، بعد أن ربطوا كل اثنين منها معا"، وكسوهما بثوب واحد، ليبدوا كدابة ضخمة تثير الخوف لدى الفيلة، كما وضعوا البراقع على وجوهها؛ لئلا تصاب هي الأخرى بالذعر.

وفي اليوم الثاني من القتال كانت النجدات من الشام قد وصلت إلى المسلمين، وقد تعمدوا تقسيمها إلى عدة سرايا تصل تباعا" إلى ميدان المعركة، بحيث تكون هناك مسافة طويلة نسبيا" بين السرية والأخرى؛ لكي يعتقد أعداؤهم أن النجدات أكبر مما هي في حقيقة الأمر، وقد فشل الفرس في

**استخدام الفيلة في هذا اليوم، بينما كان عليهم أن يواجهوا سلاح (الإبل) الشديد الوطأة عليهم.**

**أما في ثالث أيام القتال، فقد نجح الفرس في إعادة الفيلة إلى المعركة، وحرصوا على حراستها لمنع المسلمين من تقطيع أربطة صناديقها، إلا أن خيول المسلمين كانت قد تعودت على رؤيتها ولم تجفل منها، وكان هذا اليوم شديد القتال بين الطرفين، وامتد خلال ليلة اليوم الرابع التي أطلق عليها المسلمون اسم (ليلة الهرير).**

**وفي اليوم الرابع، آخر أيام المعركة، تضعضع موقف أجنحة جيش الفرس، بينما بقي القلب صامداً"، وتشير المصادر إلى أن ريحاً" شديدة هبت على القوات الفارسية خلال ذلك، فأثارت الغبار في وجوه جنودها، مما انعكس سلباً" على معنوياتهم وأدائهم القتالي، فانهاروا جملة واحدة، خاصة بعد مصرع قائدهم رستم.**

**أسفرت هذه المعركة المجيدة عن انتصار حاسم للمسلمين – لا يقل أهمية عن نصر اليرموك في الشام - خسروا خلاله عدة آلاف من الشهداء، أما خسائر الفرس فقد تجاوزت الأربعين ألفا".**

**سارع المسلمون إلى استثمار نصرهم الثمين هذا، عبر تعقب فلول الفرس إلى عاصمتهم المدائن، التي تقع على نهر دجلة جنوبي بغداد، وقد حاول الأخيرون منع المسلمين من الوصول إليها، من خلال تدمير الجسور المقامة على النهر، وأخيرا" نجح المسلمون في احتلالها عام 637 م، بعد حصار دام شهرين، كما أعادوا إخضاع المناطق المفتوحة التي تمرد أهلها.**

**وأخيرا"، دخل المسلمون إلى إيوان كسرى، الأبيض اللون، ذي العقود الفخمة، والبهو الرخامي الواسع، والطنافس الجميلة، وهم يهتفون بحرارة لا مثيل لها: " هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله "، فاتخذوه مصلى، واستولوا على**

كنوزه ونفائسه، وأرسلوا تاج كسرى وسيفه وحليته إلى المدينة. لقد كان سقوط هذا القصر الكبير، الذي طالما نظر إليه العرب بعين الإعجاب والرهبة معا"، يرمز لانتهاء نظام دولي وبزوغ نظام آخر على أنقاضه مختلف اختلافا" كليا" عنه، وقد بدأ المسلمون منذ ذلك الحين ينظرون إلى أنفسهم بثقة عالية، فارتفع مستوى طموحهم، وأدركوا أنه قد قدر لهم أن يصنعوا واقعا" سياسيا" جديدا" في العالم أجمع، قال عز وجل: ((كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُون، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيم، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِين، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِين)) (الدخان، 25 - 28).

لقد كانت رحلة المسلمين من دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة، حيث الخوف والحذر والضعف، والعجز عن بناء دولة، إلى إيوان كسرى، حيث القوة العالمية والنفوذ الدولي، ملحمة فريدة وعظيمة، ينبغي التوقف عندها طويلا" وإشباعها بحثا" ودراسة وتأملا"، ليس لفهم ذلك الماضي البعيد فقط، وإنما أيضا" لفهم الماضي القريب، وتحليل الحاضر، واستشراف

المستقبل بكافة أبعاده. ومما يدعونا إلى التوقف عنده كثيرا" أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد أخبر المسلمين عن الوعد الرباني، باستحواذهم على بلاد الفرس والروم واليمن، خلال أصعب وأحرج لحظات معركة الخندق، التي كان مصير الدولة الإسلامية خلالها على كف عفريت، مما دعا بعض المنافقين حينذاك إلى القول وفق ما يروي ابن هشام في سيرته: " كان محمد يعدنا بأن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط! ".

وما لبث المسلمون أن جعلوا من المدائن قاعدة إستراتيجية مؤقتة لهم، وانطلقوا منها للتوسع في زمن قياسي في كافة أرجاء الإمبراطورية، التي كانت قد أوشكت على الذوبان تحت سنابك خيولهم الرشيقة، كما تذوب الزبدة في المقلاة.

أما القوات الفارسية المتقهقرة فقد تحصنت في جلولاء (شمالي المدائن وقرب حلوان)، وأقامت حولها خندقا"، فأمر

**الفاروق سعدا" بأن يمكث في المدائن (التي انتقل منها فيما بعد إلى الكوفة)، ويرسل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص على رأس إثني عشر ألف مقاتل، لمواصلة التقدم في أعماق البلاد، التي كان حكامها، كما كان شأنهم أيام الإسكندر، يستندون إلى عمق جغرافي وبشري كبيرين.**

**وقد تمكن الجيش الإسلامي من فتح جلولاء بعد قتال عنيف، حيث أورد الذهبي في كتابه الضخم (العبر في خبر من غبر) أن جلولاء سميت بهذا الاسم " لما تجللها من الشر "، والمقصود بذلك كثرة عدد الفرس الذين قتلوا خلال عملية احتلالها، وتكمن أهمية هذه المعركة في أنها أخرجت الفرس بشكل نهائي من العراق، ليفقدوا بذلك أهم ولاياتهم وأغناها، فولوا وجوههم هاربين إلى ما وراء جبال زاغروس، التي لم تحل وعورتها دون انسياب القوات الإسلامية عبرها كالسيل العرم.**

**ثم تعقب جرير بن عبد الله البجلي الفرس إلى حلوان، وكان ملكهم الشاب والحديث العهد بالحكم يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى أبرويز قد هرب إليها، وبعد أن نجح المسلمون في فتحها صلحا" سارع يزدجرد إلى الفرار إلى أصبهان، وقام سنة 20 ه بإعداد جيش كبير، جمع جنوده من الري (موقع العاصمة الإيرانية طهران في أيامنا هذه) وقومس وأصبهان وهمذان وغيرها، وقد اختلف المؤرخون حول تعداد هذا الجيش، فإحدى الروايات تقدره بـ 100 ألف، وأخرى بـ 60 ألفا".**

**وفي ذلك الوقت كان عبد الله بن المعتم قد زحف شمالا" عبر البقعة الجميلة التي أصبحت بعد قرن ونيف مركز العالم، فاستولى على تكريت الواقعة تحت السيطرة الرومية بعد حصار دام أربعين يوما"، أما الموصل، وهي أيضا" كانت تحت سيطرة الروم، فقد زحف إليها ربعي بن الأفكل، فسارع أهلها إلى الاستسلام دون قتال، كما استحوذ ضرار بن الخطاب الفهري على ماسبذان الواقعة على الطريق إلى همذان.**

وكان القائد الفارسي الملقب بالهرمزان، والمنتمي إلى إحدى أقوى الأسر الفارسية، قد جمع بعض فلول الفرس الهاربة من القادسية في منطقة الأهواز، وأخذ يشن منها الغارات على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين؛ بهدف إلهائهم عن الاستعدادات الحربية التي كان يزدجرد قد بدأها، وقد قام عتبة بن غزوان والي البصرة بإلحاق الهزيمة بالهرمزان، ثم عقد معه صلحا" ما لبث هذا أن نقضه.

وبعد وفاة عتبة استمر خليفتاه، المغيرة بن شعبة فأبي موسى الأشعري، في محاربة الهرمزان الذي كان سرعان ما ينقض أي صلح يعقده مع المسلمين بعد إلحاقهم الهزيمة به، ولما كان قد أصبح كالشوكة في خاصرة المسلمين وغدا القضاء عليه ضروريا" قبل الإقدام على التوغل في عمق الدولة الساسانية، أمر الخليفة عمر سعدا" بأن يرسل قوة بقيادة النعمان بن مقرن المزني إلى الأهواز، كما كلف أبا موسى بإرسال قوة أخرى إلى هناك بقيادة سهل بن عدي، على أن يتولى أبو سبرة بن أبي رهم (ابن عمة الرسول عليه

**الصلاة والسلام) قيادة القوتين معا"، وقد نجح هذا في إلحاق الهزيمة بالهرمزان، وضرب الحصار عليه في مدينة تستر القريبة من نهر قارون، ووصلته خلال ذلك تعزيزات جديدة من البصرة والكوفة، ويبدو أن الطبيعة الصعبة للأهواز التي لم يكن العرب معتادين على القتال فيها أتاحت للهرمزان التحصن فيها.**

**وأخيرا" نجحت قوة من المسلمين في اقتحام المدينة من خلال منفذ سري، كان يستخدمه أهلها في التزود بالماء، فقتلوا الحراس وفتحوا أبواب المدينة، فدخلها الجيش الإسلامي واستولى عليها، وأسر قائدها الهرمزان وأرسله إلى المدينة المنورة، حيث اعتنق الإسلام بعد أن عفا عنه عمر رضي الله عنه، ثم استكمل الجيش الإسلامي السيطرة على الأهواز باحتلال مدينتي السوس وجند يسابور، ففشل بذلك مخطط يزدجرد في جعل القوات الإسلامية بين طرفي كماشة.**

وخلال التقدم الإسلامي في بلاد الفرس قام والي البحرين العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، ودون الحصول على إذن من الفاروق، باجتياز الخليج العربي بقواته، ونزل بها على الساحل الجنوبي لبلاد فارس، ثم شرع في التقدم نحو إصطخر تاركا" أسطوله خلفه، فتمكنت القوات الفارسية من قطع طريق النجدة عليه، مما اضطره إلى الانسحاب إلى العراق وطلب النجدة من الخليفة، الذي لامه بسبب اندفاعه غير المحسوب وقام بعزله عن منصبه، وقد كانت هذه الحملة أول حملة حربية بحرية في التاريخ الإسلامي.

وعندما شرع الفرس في إعادة تنظيم صفوفهم في مدينة نهاوند بقيادة الفيروزان، قام الخليفة بتحريك الجيوش إليها من البصرة والكوفة، وسلم زمام قيادتها للنعمان بن مقرن، وقد كان عمر رضي الله عنه ينوي السفر إلى الجبهة بهدف الإشراف بنفسه على العمليات ضد الفرس، ثم عدل عن ذلك بناء على نصيحة بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وقد اقتدى المسلمون بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام في تعيين

**عدة قادة بدائل للمعركة المرتقبة، ويمكننا الجزم أن لجوءهم إلى ذلك نابع من إدراكهم لحساسية المرحلة القادمة من القتال ضد الفرس؛ لأن الاستيلاء على تلك المدينة القابعة في عمق بلادهم سيعني انتهاء الحرب في الجبهة الفارسية، واستحواذ المسلمين الحتمي على كافة الأقاليم التي كانت تابعة للعرش الساساني المندثر.**

**وقد كان عدد جيش المسلمين لا يزيد عن الثلاثين ألفا" إلا قليلا"، فيما تمكن الفرس من حشد ما يزيد عن 150 ألف مقاتل، من مختلف الأعراق والأديان (كما هو شأن أغلب جيوش الإمبراطوريات الكبرى)، وكان عليهم هذه المرة أن يدافعوا عن وجود دولتهم نفسها، بعد أن فقدوا إمبراطوريتهم العريقة.**

**تقدم النعمان من الأهواز، والتقى بالتعزيزات المرسلة له في ماه (قرب نهاوند)، وكان من بينها بعض أبطال القادسية، مثل القعقاع وطليحة بن خويلد الأسدي، ثم تقدم إلى حلوان**

فكرتد فكنكلوار، حتى وصل إلى أسوار نهاوند سنة 21 ه، وكان حريصا" خلال تقدمه على أن يستطلع الطريق للتأكد من خلوها من الكمائن، أما الفيروزان فقد تعمد عدم الاشتباك مع المسلمين حتى وصولهم إلى مشارف نهاوند؛ لرغبته في استدراجهم إلى المناطق الجبلية التي لم يعتد جنودهم على التقدم والقتال فيها.

كانت نهاوند، المحاطة بالبساتين الغناء، محصنة بسور منيع محاط بخندق عريض، لغم الفرس الأرض حوله بحسك الحديد (قطع معدنية شوكية الشكل)؛ بهدف عرقلة تقدم الفرسان والمشاة، وكان ينتصب في وسط المدينة حصن قوي سميك الجدران.

وبعد أن انتصر المسلمون على الفرس خارج أسوار المدينة، استطاع هؤلاء التراجع والتحصن فيها، وأخذوا يرسلون منها الدوريات للإغارة على معسكر المسلمين وجمع المعلومات عنهم، وقد وجد المسلمون صعوبة كبيرة في احتلال

المدينة، حيث أن خيولهم وفرسانهم كانوا كلما اقتربوا من أسوارها يقعون بين مطرقة حسك الحديد المبعثر على الأرض، وسندان النبال الملقاة عليهم من فوق الأسوار، وأخيرا اتبع النعمان بن مقرن خطة ماهرة في سبيل احتلال المدينة، وتشير المصادر التاريخية إلى أن صاحب هذه الخطة هو طليحة بن خويلد، فقد تظاهر المسلمون باليأس من الاستيلاء على المدينة والتراجع عن أسوارها، فما كان من القوات الفارسية التي بلعت الطعم إلا أن تركت حصونها على حذر في بادئ الأمر، ثم اندفعت لمطاردة المسلمين، لتدور بين الطرفين معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار المسلمين، ودخولهم المظفر إلى نهاوند، بعد أن لاقى عشرات الآلاف من جنود الفرس مصرعهم. وقد استشهد النعمان إبان المعركة على أثر إصابته بسهم في خاصرته، وتعمد القادة المسلمون إخفاء ذلك عن جنودهم لئلا تتضعضع معنوياتهم، فيما استلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه زمام القيادة. وبسبب أهمية هذه المعركة، وتمهيدها السبل أمام المسلمين لضم كافة ممتلكات كسرى إلى دولتهم، أُطلق عليها اسم (فتح الفتوح).

ويمكن النظر إلى معركة نهاوند على أنها معركة (أربيلا أو جواجيمالا) أخرى، طردت تلك الأقوام القاطنة في الهضبة الإيرانية من مركز الصدارة على المسرح السياسي العالمي، وحولتهم إلى مجرد أتباع لتلك الأمة التي رزحت تحت جبروتهم واستغلالهم لقرون طويلة.

وبعد نهاوند تقدمت القوات الإسلامية بسرعة ندر مثيلها في تاريخ الحروب، فاستولت على باقي أقاليم الدولة الفارسية؛ مثل خراسان وقم وكاشان وقومس ومكران وهمذان وإصطخر وسجستان، وقد عمل حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة على إرسال جيش بقيادة حذيفة بن اليمان لاحتلال أذربيجان، بينما قام عروة بن زيد الخيل الطائي بفتح الري بثمانية آلاف جندي، ولما رأى حكام طبرستان وجرجان الانتصارات الباهرة التي أحرزها المسلمون آثروا عقد الصلح معهم، والاعتراف بسيادتهم التي كانت قد أصبحت قدر العالم المعمور.

وقد حاول يزدجرد، المنكوب بهزيمة نهاوند، أن يعيد حشد ما تبقى من فلول جيشه في مدينة أصفهان، فأمر الخليفة رضي الله عنه عبد الله بن عبد الله بن عتبان بالتقدم لاحتلالها، على أن يستعين في ذلك بجزء من الجيش المرابط في نهاوند، وقد تمكن الأخير من احتلال المدينة، بينما هرب يزدجرد إلى كرمان لتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويفقد المال والأمان والسلطان، إلا أنه غادرها بعد وصول طلائع المسلمين إلى خراسان، ليهرب منها هي الأخرى على أثر احتلال الأحنف بن قيس لها، حيث لجأ إلى سمرقند التي كان يحكمها خاقان الترك.

وقد حشد إسفنديار الرازي قواته في منطقة بحر قزوين؛ بهدف محاربة القوات الإسلامية المعسكرة في الري، ولما علمت همذان بذلك سارعت إلى الانتفاض على الحكم الإسلامي، فقام نعيم بن مقرن بإخضاعها، ثم ألحق الهزيمة بإسفنديار في منطقة (واج الروذ).

**وفي نفس تلك الفترة العابقة بالأمجاد والمآثر، بدأت رايات المسلمين بالدخول إلى أراضي القبائل التركية (مثل الغز والإيجور) القاطنة وراء نهر المرغاب، لتتحول هذه الأمة إلى الإسلام خلال عدة مراحل من الزمن، وتلعب دورا" رياديا" في تاريخ الأمة، بدأ باستخدام أبنائها في مراكز السلطة في بغداد، وانتهى بإقامتهم الدولة السلجوقية فالعثمانية، فقد قام عبد الرحمن بن ربيعة بالتقدم إلى بلاد الباب، وهي موطن الأتراك الكائن خلف الأبواب المسماة بـ (الدربند)، وحصل خلال ذلك على الدعم من حبيب بن مسلمة عامل الدولة في الجزيرة الفراتية، وتشير المصادر إلى أن (شهربراز) ملك تلك البلاد سارع إلى عقد الصلح مع المسلمين، الذين أعفوه من الجزية، وقد أبدى هذا الملك استعداده لمعاونة الجيش الإسلامي في حربه مع الأرمن، والتي تمخض عنها إخضاع بعض المناطق المحيطة ببلادهم، التي وجد المسلمون عبر تاريخهم صعوبة في الاحتفاظ بسيطرتهم عليها؛ بسبب طبيعتها الجبلية الوعرة.**

**وكان خاقان الترك قد خشي أن يواصل الطوفان الإسلامي تقدمه نحو بلاده، الأمر الذي لم يتحقق في تلك الفترة؛ بسبب حرص الخليفة على عدم التوغل أكثر باتجاه الشمال، ريثما تتوطد سيطرة المسلمين على الهضبة الإيرانية.**

**أما يزدجرد الثالث، فقد كان مصيره شبيهاً" بمصير دارا الثالث الذي حطم الإسكندر عرشه قبل عدة قرون، وبدا أن التاريخ قد بدأ يعيد نفسه بشكل يدعونا الى التأمل، فقد لاقى يزدجرد مصرعه في عام 31 ه (652 م) إبان خلافة عثمان رضي الله عنه، وذلك في ظروف لا تختلف كثيرا" عن تلك التي قتل فيها دارا الثالث.**

**وبمقتل يزدجرد تحقق على نحو كامل دعاء الرسول الكريم بتمزيق ملك الأكاسرة، وانتهى آخر فصول الملحمة الفارسية الممتدة جذورها في أعماق التاريخ، وتبخرت دولة الساسانيين التي أقلقت العالم بقوتها وجبروتها طيلة أربعة**

**قرون، واعتنق أبناء هذه الإمبراطورية البائدة الإسلام، ليصبحوا جزءا" من تاريخ هذه الأمة، بخيره وشره.**

رجوع للفهرس

# الفصل الرابع
# فتح الشام ومصر

كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) تمثل امتدادا" لعهود السيطرة الغربية على الشرق خلال عصور ما قبل الإسلام، فقد ظهرت إلى الوجود بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول سنة 395 م، وانقسام إمبراطورية الرومان – كما سبق أن أشرنا – إلى قسمين، حيث أطلق على القسم الشرقي منهما، والذي كانت عاصمته القسطنطينية، اسم الدولة البيزنطية، وكان أركاديوس هو أول حكامها. وبينما تبخرت الإمبراطورية الغربية بسرعة تحت ضربات البرابرة، وقامت على أنقاضها بعض الدويلات الهشة، فإنه قدر للإمبراطورية البيزنطية أن تعمر لما يزيد عن عشرة قرون، وأن تبقى طوال مراحل تاريخها في صراع دائم مع المسلمين، اكتسب في بعض الأحيان طابع الحرب الباردة، وفي أحيان أخرى طابع الصدام

**المسلح الدامي، وقد تداخل هذا الصراع مع العديد من مفاصل التاريخ الإسلامي.**

**وكان الروم قد فقدوا قبل سنوات قليلة مستعمراتهم في بلاد الشام وآسيا الصغرى وجزء من مصر أمام تقدم الجيوش الفارسية، ففي سنة 614 م غزا كسرى أبرويز أورشليم (القدس) وخربها وفتك بالآلاف من أهلها، ثم تقدم إلى مصر ووصل إلى ضواحي الإسكندرية، كما هددت قواته القسطنطينية نفسها، إلا أن هرقل الابن الأكبر لحاكم إفريقيا الرومي، والذي كان قد نجح في الاستيلاء على الحكم بعد قتله الإمبراطور فوقا، تحالف مع التتار والآفار ثم انتصر على الفرس وطاردهم إلى نينوى.**

**ولا شك أن هرقل وقومه اعتقدوا أن سيادتهم على بلاد الشام قد توطدت لسنوات طويلة، بعد تخلصهم من خطر أعدائهم التقليديين الفرس، خاصة بعد أن أعادوا صداقتهم القديمة مع عرب الشام من الغساسنة وغيرهم. وكان الغساسنة**

**قد بقوا لفترة طويلة مخلصين للروم، فكانوا يحمون حدودهم من غزوات القبائل العربية، كما ساندوهم مرارا" إبان حروبهم مع الفرس، إلا أنه في سنة 582 م قام الإمبراطور طيباريوس باعتقال الملك الغساني المنذر بن الحارث ونفيه إلى جزيرة صقلية؛ فقامت على أثر ذلك الحرب بين الطرفين، وكانت نتيجتها كارثية بالنسبة للغساسنة، ثم ما لبثوا أن استعادوا شيئا" من قوتهم ونفوذهم السياسي، بعد تعاونهم مع أسيادهم الروم في طرد الفرس من الشام قبيل قدوم جحافل الفتح الإسلامي.**

**وقد أدرك جبلة بن الأيهم بن جبلة زعيم الغساسنة أن ملك الروم في بلاد الشام زائل لا محالة، وأن أبناء جلدته من عرب شبه الجزيرة على وشك أن ينتصروا ويضموا هذه البلاد إلى دولتهم الفتية، كما أنه كان بدون شك مطلعا" إلى حد كبير على الواقع المتأزم الذي بلغته دولة الروم، والخسائر التي ألحقتها بها حربها مع الفرس، وأن عوامل اندحارها قد اجتمعت وتفاقمت، لدرجة أنها باتت مضطرة إلى قطع الجعالات**

**السنوية عن حلفائها، فقرر أن ينتقم من الروم، وأن يركب الموجة الجديدة، ويدعي اعتناقه الإسلام قبل فوات الأوان، وينضم إلى صف الطرف المنتصر، فيحافظ على ملكه وملك أجداده.**

**ولكن جميع أحلام هذا الرجل ذهبت أدراج الرياح، عندما رفض المسلمون أن يعاملوه كملك، وأن يستوعبوه في نظامهم السياسي، وتكشف للجميع نفاقه وانتهازيته، ذلك أنه لما توجه إلى مكة، وخلال طوافه حول الكعبة، أقدم على ضرب أحد أبناء قبيلة فزارة على أنفه؛ لأنه داس على ذيل إزاره دون قصد منه، وعندما أراد الفاروق العادل رضي الله عنه أن يقتص منه، ويقيم عليه الحد وفق أحكام الشرع الحنيف، أخذته العزة بالإثم وقال: " كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة! "، فسقط عنه قناعه الزائف، وغادر عاصمة الرسول عليه الصلاة والسلام بخفي حنين، ليلقي بنفسه وقومه من جديد في أحضان الروم، ويعاود عملياته القتالية ضد المسلمين، ويقال أنه ندم فيما بعد**

**على مغادرته المدينة المنورة ومقاومته للمسلمين، وقال في ذلك:**

**فيا ليت أمي لم تلدني وليتني**

**رجعت إلى القول الذي قاله عمر.**

**وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الإسلامية قد بدأت بتعرضها الواسع ضد الفرس في بلاد الرافدين، كان على المسلمين أن يسارعوا في إرسال الجيوش إلى تخوم الشام؛ لمواجهة خطر الروم وحلفائهم من بقايا الغساسنة كما سبق أن أشرنا، وقد أثبتت الشواهد التاريخية جميعها أن المسلمين لم يكن لهم خيار في الإقدام على هذا الأمر أو تأجيله أو النكوص عنه، فقد كان الروم وحلفاؤهم قد أدركوا مدى التهديد الذي بدأ يشكله الكيان الوليد في شبه الجزيرة، ولا شك أن تجربتي مؤتة وتبوك قد أكدتا لهم أن هذا الكيان، ورغم حداثة وجوده على مسرح السياسة الدولية وبعد أهله عن أسباب الحياة المادية، بات يبحث لنفسه عن دور عالمي سيكون بلا شك على حساب أمن دولة الروم. ومن المثير أن نعرف أن المسلمين**

عندما قاموا بأعمالهم القتالية المبكرة ضد الروم وحلفائهم - وتحديداً" في تبوك - قال بعض العرب غير المسلمين لهم: " أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً"؟ والله لكأنا بكم غداً" مقرنين في الحبال "!، إن هذه المقولة تعكس العديد من الحقائق التي فرضت نفسها على تاريخ الدنيا في تلك الحقبة الغنية بالتحولات الكبرى.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أعد جيشاً" بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وكلفه بالزحف إلى تخوم الشام كما ذكرنا سابقاً"، وقد أدت وفاة الرسول الكريم إلى تأجيل هذا الزحف لفترة قصيرة من الزمن، وبسبب حساسية الموقف الإستراتيجي للدولة وانشغالها بمواجهة القبائل المرتدة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة، أخذ بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم – ومن بينهم عمر بن الخطاب – ينادون بعدم إرسال هذا الجيش، غير أن الخليفة الصديق رضي الله عنه رفض ذلك وقال لهم: " والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى

الله عليه وسلم، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته "، وقد توجه هذا الجيش إلى منطقة البلقاء، وهاجم عددا" من القرى التي كان الرسول الكريم قد حددها كهدف للحملة، ثم عاد إلى المدينة يحمل أكاليل النصر، دون أن يخسر أيا" من جنوده.

وبعد أن أتم خالد بن سعيد بن العاص الأموي رضي الله عنه مهمته في محاربة المرتدين في اليمن، أمره الخليفة بأن يحشد قواته في تيماء (إلى الجنوب الشرقي من تبوك) استعدادا" لمواجهة الروم، في مهمة يمكننا وصفها بالاستطلاعية، وذلك على أن يتجنب تجنيد كل من كان قد تورط في نشاطات معادية للدين والدولة إبان حروب الردة، ولما بلغ الروم أخبار هذا الحشد الكبير سارعوا إلى استنفار حلفائهم من القبائل العربية، مثل كلب وتنوخ ولخم وجذام وغسان، بينما أمر الخليفة خالد بن سعيد بأن يواصل التقدم، فتمكن من التغلب على هذه القبائل بسهولة، ثم واصل الزحف في الوقت الذي وصلت فيه إليه بعض الإمدادات.

وأخيراً" التقى المسلمون بقائد الروم باهان قرب القدس، إلا أنه عمد إلى التراجع باتجاه دمشق، وواصل خالد بن سعيد مطاردته له، إلى أن فوجئ بوقوعه في الفخ بين حشود كبيرة للروم، فعمد إلى التراجع بشكل منظم وتحت حراسة جنود عكرمة بن أبي جهل.

وفي ذي الحجة من السنة 12 ه (633 م) كان الخليفة الصديق (وفقا" لرواية الطبري) قد باشر، وفور عودته من أداء مناسك الحج، في حشد المزيد من القوات من مختلف أنحاء شبه الجزيرة؛ لنجدة جيش خالد بن سعيد وحسم الصراع الحربي مع الروم، فأرسل يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه على رأس سبعة آلاف جندي، مكلفا" إياه بالتقدم على طريق تبوك إلى دمشق؛ لتحسين الموقف العسكري لخالد بن سعيد وتولي قيادة الجيش بدلا" منه، وقد عمل الخليفة في وقت لاحق على تعزيز جيش يزيد بمدد من الجند بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كما كلف أبا عبيدة عامر بن الجراح

**بالتقدم على محور حمص مرورا" بشرقي الأردن، على أن يجعل مركز قيادته في الجابية.**

**وأرسل الخليفة أيضا" قوة أخرى بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأمره بالتقدم نحو فلسطين سالكا" طريق ساحل البحر الأحمر مرورا" بأيلة (العقبة)، وقد تمكن من تنفيذ مهمته بنجاح بعد أن ألحق هزيمة أليمة بالروم، وأرسل الخليفة أيضا" شرحبيل بن حسنة الكندي رضي الله عنه إلى شرقي نهر الأردن مرورا" بتبوك، وحال وصوله بقواته إلى ذي المروة ضم إليه جزءا" من جيش خالد بن سعيد.**

**وقد تمكن يزيد رضي الله عنه من الوصول إلى جنوبي البحر الميت مشرفا" على وادي عربة، ثم واصل زحفه باتجاه العمق الفلسطيني، وعندما بلغ الطريق الموصل إلى قيسارية ألحق الهزيمة بالجيش الرومي الذي كان يقوده البطريرك سرجيوس، مما دفع الأخير إلى اللجوء بجيشه إلى غزة، ثم ما**

لبث أن قتل في معركة داثن (شرقي دير البلح)، بعد أن تلقى هزيمة قاسية فيها، والملاحظ أن هذه المعركة لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل المؤرخين، رغم أنها مهدت لاستيلاء المسلمين على فلسطين.

لا ريب أن هذه التطورات السريعة أقضت مضاجع قادة الروم، وأثارت في قلوبهم القلق على وجودهم في بلاد الشام، خاصة وأنهم شاهدوا الهزائم السريعة والمدوية التي تكبدها أحفاد قورش وقمبيز في بلاد الرافدين، مما حدا بزعيم الروم هرقل (565 - 641 م)، صاحب الانتصارات الكبيرة على الفرس والصقالبة والآفار، إلى الانتقال بنفسه إلى حمص؛ ليكون على مقربة من مسرح العمليات.

تقدم الجيش الرومي حتى وصل إلى أجنادين (بين بيت جبرين والرملة وفق رواية الطبري)، أهم القواعد العسكرية الرومية في جنوبي بلاد الشام، مما دفع الخليفة رضي الله عنه إلى توجيه خالد بن الوليد للانتقال من جبهة العراق إلى بلاد

**الشام على جناح السرعة؛ بغية تولي زمام القوات الإسلامية وتوحيد جهودها على مسرح العمليات، وعندئذ قال الخليفة عبارته المشهورة: " والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد ". وقد اختلف المؤرخون حول عدد الجنود الذين رافقوا خالدا" في رحلته عبر الصحراء باتجاه بلاد الشام، وكان من بين هؤلاء بعض أبطال الحرب في العراق، مثل القعقاع وضرار بن الخطاب (لا يمت بصلة قرابة إلى عمر بن الخطاب) رضي الله عنهم أجمعين.**

**تقدم خالد وجنوده من الحيرة بمحاذاة نهر الفرات، سالكين طريقا" صعبا" وغير مأهول بالسكان، عبر صحراء السماوة فعين التمر فالمصيخ؛ لينأوا بأنفسهم عن الاصطدام بالروم قبل أن يجتمعوا بالقوات التي كانت تنتظرهم على أحر من الجمر في بلاد الشام، مما جعلهم مضطرين إلى قطع طرق غير تقليدية لا تتوافر فيها مصادر للماء في أيام شديدة الحرارة، وبعد أيام قليلة من التقدم نفد ما بحوزتهم من ماء، ثم ما لبثت رحمة الله تعالى أن أدركتهم بأن حفروا الأرض وعثروا**

**على الماء، أما ما يقال عن قيام المسلمين خلال ذلك بذبح الإبل واستخراج ما في بطونها من ماء فقد نفاه بعض الباحثين.**

**وقد استولى خالد بعد ذلك على سوى وأرك والسخنة وكدمة وتدمر والقريتين وحوارين، واجتاز بادية سوريا من شمالها إلى جنوبها، بهدف الالتقاء بالقوات الإسلامية، وأغار خلال ذلك على الغساسنة في مرج راهط.**

**وحال وصول خالد إلى قيصرية (في حوران) سنة 13 ه (634 م) اتصل بيزيد وشرحبيل وأبي عبيدة ثم ابن العاص، كما احتل بصرى عاصمة الغساسنة التي كانت قد استعصت على جنود شرحبيل؛ بسبب تحصن قوات الروم والغساسنة فيها، وقد بلغ عدد القوات الإسلامية بعد تجمعها 32 ألفا" وفق بعض الروايات، حيث بدأت بذلك مرحلة جديدة وحاسمة من تاريخ الفتح الإسلامي في بلاد الشام. ومن المعروف أن خالدا" كان يمتلك وهو النابه الفطين والدقيق الملاحظة فكرة واضحة**

عن جغرافية بلاد الشام؛ لأنه سبق له أن زارها قبل إسلامه مع بعض قوافل قريش التجارية.

اجتمعت القوات الإسلامية في أجنادين؛ بغية الاصطدام بالقوات الرومية، التي قدر عدد من المؤرخين عددها بستين إلى تسعين ألفا"، ومن المدهش حقا" أن الروم عرضوا على خالد قبيل المعركة إعطاء كل جندي من المسلمين ثوب وعمامة ودينار واحد على أن ينسحبوا إلى شبه الجزيرة! ولا ريب أن الروم بعرضهم هذا كانوا قد برهنوا على أنهم لا يمتلكون فكرة واضحة عن طبائع المسلمين وتوجهاتهم، وأنهم ظنوا واهمين أن هؤلاء القوم لا يختلفون عن جبلة وجنده، والحقيقة أنهم معذورين في ذلك؛ لأن حجم الثورة الحضارية التي حققها الإسلام بين العرب كانت، وفق جميع المقاييس، فوق مستوى التوقعات.

وفي 28 جمادى الأولى عام 13 ه (30 تموز 634 م) التحم المسلمون مع الروم في معركة عنيفة استمرت ليومين،

**توقف خلالهما القتال في ساعات الليل، وقد عانى المسلمون في بدايتها من عنف المقاومة الرومية، إلا أنهم سرعان ما أخذوا زمام المبادرة، وأسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة للجيش الرومي، الذي لجأت فلوله إلى القدس وغزة ودمشق وغيرها من حواضر الشام، أما هرقل فإنه سارع إلى التوجه من حمص إلى أنطاكية على مقربة من الساحل؛ ليعد على عجل، والقلق يأكل صدره، جيشا" جديدا" بعيدا" عن متناول قوات المسلمين.**

**وبعد هذه المعركة الفاصلة تأكدت السيطرة الإسلامية على معظم الجزء الجنوبي من بلاد الشام، وأصبح حكام القسطنطينية معزولين عن أي اتصال بري مع مصر وشمالي إفريقيا، وقد أتاحت هذه المعركة للمسلمين القاعدة التي سينطلقون منها للاستحواذ على كامل بلاد الشام، لذلك لم يكن غريبا" أن يعدها الأزدي " أول وقعة عظيمة كانت بالشام ".**

وقد حاولت فلول الروم أن تستأنف عملياتها العسكرية ضد المسلمين في منطقة بيسان غربي نهر الأردن؛ بغية عرقلة تقدمهم إلى الشمال، غير أن المسلمين سارعوا إلى التقدم، حتى وصلوا إلى طبقة فحل القريبة من الضفة الشرقية للنهر، فقام الروم بثقب سدود وادي الأردن حتى امتلأت الأرض بالمياه والأوحال، مما أعاق وصول القوات الإسلامية إليهم، ثم نجح الروم في العبور إلى شرقي النهر، والتحموا ليلا" مع القوات التي كانت تحت قيادة شرحبيل، حيث استمر القتال حتى نهار اليوم التالي، وتشير المصادر إلى أن هذا القائد الفذ استطاع بحنكته العسكرية أن يحول دون تعرض جنوده للمباغتة، فكان " يبيت على تعبية ويصبح على تعبية "، وقد دام القتال بين الطرفين حتى الليلة التالية، وعانيا خلاله الكثير من المتاعب بسبب الأوحال، ثم انتهى بانتصار المسلمين واستيلائهم على بيسان، ومما يجب ذكره في هذا المقام أن هنالك خلافا" بين المؤرخين حول تاريخ حدوث هذه المعركة.

كما انتصر المسلمون على الروم في مرج الصفر إلى الجنوب الشرقي من دمشق، ثم فرضوا الحصار على دمشق نفسها، وأخيرا"، وبسبب نفاد المؤن، وفشل الهجمات المعاكسة التي شنها الروم من داخل المدينة المحصنة، اضطروا إلى الاستسلام، وفتحوا أبواب المدينة أمام الفاتحين، غير أن بعض المؤرخين يذكرون أن جزءا" من المدينة قد تم إخضاعه بالقوة، بينما فُتح الجزء الآخر سلما"، ويبدو أن بعض أهلها استسلموا للقوة التي كان يقودها أبو عبيدة، فدخل هذا المدينة دون قتال من باب الجابية، في الوقت الذي كان فيه خالد منهمكا" في اقتحام المدينة من بابها الشرقي، ثم التقيا في مركز المدينة، ليدور بينها حديث نقله إلينا الواقدي، لا يمكننا التحقق من مدى صحته، وقد حدث خلاف آخر بين المؤرخين حول التاريخ الذي تم فيه فتح هذه المدينة.

ويقول المؤرخ كليمان هيور في تعليله لاستسلام أهالي المدينة: " إن رجال الدين في العاصمة ] يقصد دمشق [ كانوا مستائين من الأنظمة التي فرضها عليهم هرقل ليضع حدا"

**للمجادلات اللاهوتية، فساعدوا على تسليم القلاع للمسلمين ".
لقد دفع زعماء الروم في تلك المرحلة العصيبة والحاسمة ثمن سياساتهم العقيمة، فقد فشلوا في حشد الجبهة الداخلية المعقدة في سوريا لمواجهة طوفان المسلمين، الذين بدا أن كل الظروف كانت تجري لصالحهم، فقد كانت حكمة البارئ عز وجل تمهد الطريق أمامهم.**

**وفي تلك الفترة الحاسمة من عملية الفتح، وقبيل سقوط دمشق، وصل إلى خالد بن الوليد نبأ وفاة الخليفة في جمادى الآخرة سنة 13 ه (آب 634 م)، إضافة إلى قرار الخليفة الجديد عمر رضي الله عنه المتمثل بعزله عن قيادة الجيش وتسليمها إلى أبي عبيدة، ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين من هواة تصيد الأخطاء، واستغلال سقط الروايات وغوامض الأحداث، والصيد في الماء العكر ودس السم في الدسم، حاولوا استغلال هذا القرار للتشكيك (وهيهات لهم ذلك) بشخصية سيف الله المسلول، والطعن في سيرة الفاروق رضي**

الله عنه، ومحاولة الإيحاء بوجود خلافات سياسية شخصية الدوافع ودنيوية النوازع بين الصحابة رضوان الله عليهم.

فقد حاول بعض المستشرقين والباحثين – سواء عن جهل أو بسوء نية - أن يرجعوا سبب عزل خالد إلى خلافاته القديمة مع عمر إبان الجاهلية، وإن من المنطقي أن يصدر هذا الرأي عن أشخاص لم يفهموا طبيعة ودوافع صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام المبنية على التضحية والإخلاص ونكران الذات في سبيل الله عز وجل. وفي الحقيقة إن كثيرا" من المؤرخين أجمعوا على أن عمر قام بعزل خالد لكي لا يفتتن الناس به، ويروى أنه رضي الله عنه قال في هذا الشأن: " إني لم أعزل خالدا" عن سخط ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه، ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة "، أضف إلى ذلك أن تبديل القيادات خلال الحروب هو أمر منطقي وشائع في التاريخ العسكري، والجدير بالذكر أيضا" أن خالدا" بعد عزله لم يتخذ أي موقف مناوئ لسلطة الخليفة، بل إنه واصل الجهاد بمنتهى

الإخلاص والحماس تحت إمرة أبي عبيدة، وكان له خير معين ومستشار، وقد اعتمد عليه هذا في الكثير من المعارك، وكلفه بواجبات قيادية كبرى في العديد من المواقف الخطيرة في بعلبك وحمص واليرموك وغيرها.

ولا شك أن وفاة خالد بعد مرض عضال في حمص سنة 21 ه (642 م) مثلت خسارة كبيرة لمشروع الفتح الاسلامي، وقد أشارت المصادر إلى الحزن الشديد الذي اعتمل في نفس عمر لدى سماعه بنبأ وفاته، كما أن خالدا" كان هو نفسه حزينا" قبيل وفاته؛ لأنه لم يظفر بالشهادة في ميدان المعركة، رغم أنه خاض ما يزيد عن أربعين معركة في غضون حوالي خمسة عشر عاما"، وله في هذا مقولة بليغة اشتهرت بين الأجيال التالية.

ويقول الواقدي عن خالد: " قد بلغني أنه كان على العدو بعد عزله أشد فظاعة وأصعب جهادا" "، إلا أنه حاول الإيحاء بأن الخليفة الفاروق كان يأخذ على خالد تبذيره في إنفاق

أموال الجهاد؛ لأنه كان " يعطي للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقي لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئا" "، ويمكننا القول أنه حتى لو صحت هذه الرواية، فإنها لا يمكن أن تفسر إلا على أنها اجتهاد شخصي من قائد رأى أن الصراع العسكري المصيري المحتدم مع الروم ينبغي أن يكون على رأس أولويات الدولة.

وقد اهتم عدد من مؤرخي الغرب بمسألة عزل خالد، وكان بعضهم موضوعيا" في تناولها، إذ يقول شابان: " لم تكن الضغينة الشخصية بين خالد وعمر هي المسئولة عن هذا التغيير في القيادة، بل كان ذلك عملا" من أعمال فن الحكم فهمه خالد والتزم به، واستأنف الخدمة تحت قيادة أبي عبيدة ".

إن إقدام الفاروق على عزل خالد يقدم لنا عبرة فائقة الأهمية، كلفنا إهمالها الكثير من الإخفاقات عبر مختلف المراحل التاريخية، ذلك أن إنجازات الأمم، في الميادين كافة،

وعلى رأسها السياسية والعسكرية، لا تتعلق بشخص من الأشخاص، وإنما هي نتاج عمل مؤسسي متكامل، يقدم كل شخص فيه جزءاً" من الإنجاز يتناسب مع دوره وطاقته، ومن هنا فإن خالداً"، وبالرغم من كفاءته العسكرية، هو في نهاية الأمر لا يتجاوز كونه أحد قادة أو جنود الفتح الإسلامي في تلك المرحلة من تاريخ الأمة، ولا يمكن لعزله أن يحدث أثراً" سلبياً" خطيراً"، الأمر الذي أثبتته الأحداث اللاحقة، واستناداً" إلى ما سبق بيانه، فإنه قد آن الأوان لأن نصنع جيلاً" جديداً"، كجيل خالد أو نور الدين زنكي أو صلاح الدين، بدلاً" من أن نضيع أنفسنا في الانتظار السلبي لمصادفة تاريخية جميلة تأتي لنا بأحدهم.

ومهما كان الحال فإن المصادر التاريخية يكتنفها بعض الغموض حول أدوار وصلاحيات القادة الذين أنجزوا عملية الفتح في الشام، وخاصة تلك المتعلقة بأبي عبيدة وخالد رضي الله عنهما، وتحديداً" فيما يتعلق بتاريخ عزل خالد وتعيين أبي عبيدة بدلاً" منه، ودور كل منهما فيما يتعلق بالتخطيط والقيادة

**في معركة اليرموك التي كان تاريخ حدوثها هي الأخرى محل اختلاف واضح بين المؤرخين، وقد أجمع هؤلاء على أن أبا عبيدة لم يكن في مثل كفاءة خالد وبعد نظره بما يتعلق بفن الحرب.**

**وفي نهاية الأمر، علينا أن نقر بأن الإنجاز العسكري الذي حققه المسلمون في بلاد الشام ما هو إلا حصيلة لبطولات وتضحيات الكثيرين، بدءا" من معركة مؤتة وحتى خروج الروم من كامل هذه البلاد، أما خالد فإن دوره العظيم كعبقرية عسكرية لا مثيل لها أكبر من أن يتمكن مؤرخ مغرض أو جاهل من أن ينتقص منه، فقد بقي مصدر إلهام للكثيرين إلى يومنا هذا، الذي تعقدت فيه تكتيكات المعارك وتطورت الأسلحة بشكل ثوري وغير مسبوق، وكان القائد الألماني الشهير إرفين رومل (ثعلب الصحراء) من أبرز المعجبين بإستراتيجياته وتكتيكاته القتالية.**

وقد كان فتح الشام حافلا" بالعديد من البطولات الفردية، التي لم تكن غريبة على جيش يضم الكثير من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويحركه بالدرجة الأولى، وقبل كل شيء، وازع ديني قوي، راسخ في القلوب والعقول، وقد أفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن هذه الناحية، فيروى مثلا" أن عمرو بن معد يكرب الزبيدي، أحد قادة الفتح وصاحب البطولات المشرقة، كان قد تجاوز المائة عام من عمره عند اشتراكه بمعركة اليرموك.

وبعد فتح دمشق الغالية على قلوب الروم، غدا الطريق مفتوحا" أمام المسلمين للتقدم شمالا" والثقة بالنصر تعمر صدورهم، بينما استكملوا إحكام سيطرتهم على جميع المناطق الواقعة إلى الجنوب منها، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم سوى القدس، إضافة إلى قيسارية التي صمدت أمام حصارهم، إلى أن وجدوا أنفسهم مضطرين إلى رفعه عنها للتفرغ للتصدي لحشود الروم في الشمال.

**أحرز المسلمون خلال تقدمهم إلى الأجزاء الوسطى والشمالية من سوريا العديد من الانتصارات على جموع الروم، فبعد أن أحبطوا المحاولة الرومية لاستعادة دمشق، زحفوا إلى بعلبك والبقاع وأخضعوهما، كما تقدموا إلى حمص وحاصروا حصنها، ثم ما لبثوا أن عقدوا هدنة مع حاكمها؛ لكي يتسنى لهم مواجهة الجيوش التي بدأ هرقل بجمعها في الشمال الغربي، وقد سارعت حامية قنسرين هي الأخرى إلى عقد الهدنة مع المسلمين قبل أن يصلوا إليها، ثم تقدم جيش المسلمين إلى حماة فشيزر فأفامية فمعرة حمص (معرة النعمان حاليا") واحتلها جميعا" دون قتال، وعاد بعد ذلك لفرض الحصار على حمص، التي نقضت العهد وأرسل الروم الكثير من التعزيزات إليها، وحدثت خلال الحصار بعض المعارك بين الطرفين خارج أسوار المدينة، أسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين، مما دفع حاميتها إلى الاستسلام في صفر سنة 15 ه، وبعد أن زالت هذه العقبة الكأداء استكمل المسلمون إخضاعهم لشمالي سورية، إلا أنهم وجدوا أنفسهم**

**مضطرين إلى تغيير خططهم بعد أن حشد لهم هرقل جيشا" جرارا".**

**فحتى هذه النقطة لم تكن معركة فتح الشام قد وصلت إلى مرحلتها الحاسمة؛ فالقسطنطينية، ورغم انكسار قواتها في مواقع عدة، كانت قادرة على حشد جيوش أخرى من أبناء الشعوب الرازحة تحت حكمها، من البلقان غربا" إلى أرمينيا شرقا"، بل إنها لم تكن قد صبت بعد كامل ثقلها في المعركة ضد المسلمين، وقد سبق لها أن خسرت أغلب الأجزاء الشرقية لإمبراطوريتها أمام تقدم الفرس، ثم استعادتها بضربة واحدة على يد نفس القائد (هرقل)، ولا بد أن القادة المسلمين كانوا يعرفون هذه الحادثة القريبة العهد، أضف إلى ذلك أنه لم يكن من السهل على الروم أن يتخلوا عن سيطرتهم على البلاد التي خاضوا العديد من الحروب المدمرة مع أندادهم الفرس من أجل الاحتفاظ بها، ولا ننسى أن لهذه البلاد أهمية مضاعفة بالنسبة لهم؛ بالنظر إلى غناها، ولكونها طريقهم للاتصال برا" مع إفريقيا، إضافة إلى محاذاتها لآسيا الصغرى التي تعتبر خط**

الدفاع الأخير عن الأسوار الشرقية للقسطنطينية، ومن ناحية أخرى نجد أن تشتت المجهود الحربي لقوات المسلمين؛ نتيجة اضطرارهم في المراحل الأولى من الفتح إلى القتال على عدة جبهات في بلاد الشام، أدى إلى عدم تحقيقهم لنتيجة حاسمة في صراعهم مع قوات الروم.

قام هرقل بتجهيز جيش جديد، جاء خليطا" من شعوب عدة، مزقتها النزاعات المذهبية والاختلافات الحضارية، مما كان يعد أحد أبرز نقاط ضعفه، لقد ضم هذا الجيش البيزنطيين والروس والفرنجة واليونانيين والجيورجيين، وحوالي ستين ألفا" من العرب المتنصرة بزعامة جبلة بن الأيهم، والأرمن بقيادة ماهان (أو باهان) الذي تم تكليفه بالقيادة العامة، تقديرا" له ـ على ما يبدو ـ لمساهمته في الحرب ضد الفرس، علما" بأن هرقل كان معروفا" باعتماده على القادة الأرمن في معاركه، وقد تضاربت الروايات حول حجم هذا الجيش، فقد أشار البلاذري إلى أنه بلغ حوالي 200 ألف جندي، بينما قدر ابن خلدون عدده بـ 240 ألفا"، أما المؤرخ كليمان هيور فقد

تحدث عن حوالي 80 ألفا" فقط، ومهما كان الأمر فإن حجم هذا الجيش شكل تحديا كبيرا" للمسلمين، الذين كان عليهم أن يجابهوه بقوة لا يتجاوز تعدادها 24 ألفا" بحسب البلاذري أو 40 ألفا" وفقا" لابن الاثير، مما دفع أبا عبيدة للكتابة إلى الخليفة رضي الله عنه يقول له: " فإني أخبر أمير المؤمنين – أكرمه الله – أن الروم نفرت إلى المسلمين برا" وبحرا"، ولم يخلفوا وراءهم رجلا" يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاءونا وهم في نحو من أربعمائة ألف رجل ... ". لقد كان موقف المسلمين حساسا" إلى أبعد الحدود، خاصة بعد أن قام الروم، وبالتزامن مع تقدمهم من الشمال، بتعزيز حاميتهم في قيسارية بجيش كبير عن طريق البحر، مما يعني أن في مقدورهم استغلال انسحاب قوات المسلمين من فلسطين، وشن هجوم على مؤخرة القوات الموجودة في الجزء الشمالي من بلاد الشام.

**وإزاء ذلك عمد المسلمون ـ وفور علمهم بتقدم الروم ـ إلى الانسحاب بقواتهم، من دمشق وما يقع شمالها من المدن السورية المفتوحة، إلى الجنوب؛ بهدف الحفاظ على خط انسحاب آمن إلى شبه الجزيرة في حال تعرضهم للهزيمة، إضافة إلى حشد قواتهم الموزعة على عدة جبهات وتوحيد جهودها؛ لحرمان هرقل من الاستفراد بكل منها على حدة، وقد جمع أبو عبيدة هذه القوات شرقي نهر اليرموك، وجعل مؤخرتها في الشمال الغربي من درعا؛ ليستطيع إدامة الإتصال مع المدينة المنورة، وكانت هذه الخطة الرائعة من بنات أفكار خالد الذي استحق بالفعل وصف عمرو بن العاص له بأنه " في أناة القطاة ووثبة الأسد "، ووصف الجنرال الباكستاني أكرم له بأنه أعظم القادة العسكريين خلال الألفية الميلادية الأولى. وتتحدث بعض المصادر التاريخية عن قيام أبي عبيدة في تلك المرحلة بتسليم خالد زمام القيادة الفعلية للجيش، فيما يتعلق بالتخطيط والإشراف على التنفيذ، إدراكا" منه للحاجة الماسة إلى عبقريته ودهائه في مثل هذه الظروف المصيرية.**

وقد كان من حسن حظ المسلمين أن الجيش الرومي الذي تحرك من أنطاكية وحمص قد تأخر في زحفه وتحشده، ليس فقط بسبب حجمه الكبير وتنقل أجزائه على طرق مختلفة، وإنما لحدوث العديد من حالات الانشقاق والتمرد في صفوفه. وقد أثار الجيش الرومي حنق أبناء المناطق التي مر بها في زحفه؛ لتطفله عليهم في توفير متطلباته الإدارية كالطعام والعلف.

وأخيرا"، وصل الروم إلى نهر الأردن فاجتازوه، وعسكروا أمام الوادي المعروف في أيامنا هذه بوادي العلان، في موقع لم تكن تضاريسه تساعدهم على المناورة بجيشهم الجرار، فارتكبوا بذلك نفس الخطأ الذي وقعت فيه قوات دارا الثالث الفارسي في إيسوس قبل حوالي تسعة قرون، وعندما اتخذ الجيش الرومي تشكيلته النهائية للقتال فوجئ المسلمون بتنظيم لم يسبق لهم أن ألفوه من قبل، وقد تمثل في تقسيم الجيش إلى فرق وكراديس، بينما كان المسلمون قد اعتادوا على القتال بتشكيلات تتكون من صفوف متراصة من الجند.

**وتشير المصادر إلى أن بعض قادة الروم ربطوا عناصر كل مجموعة من مجموعات مشاتهم مع بعضهم بعضا" بالسلاسل؛ ليضمنوا صمود هذه المجموعات أمام هجمات فرسان المسلمين!**

**لقد تمكن خالد بعبقريته الحربية من التعلم من أساليب أعدائه القتالية، ليؤسس مع غيره من القادة الأوائل لتعبية إسلامية قادتهم خلال عدة عشرات من السنين إلى الاستيلاء على أغلب أقاليم العالم المعمور، فقسم جيش المسلمين - وتحت إشراف أبي عبيدة - إلى (36 - 40) كردوسا"، ضم كل منها مئات المقاتلين، بحيث بات يعادل (الكتيبة) في عصرنا الحاضر، ووزع هذه الكراديس على القلب والجناحين، وتم تكليف عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة بقيادة الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان بقيادة الميسرة، بينما تولى القعقاع بن عمرو وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعكرمة بن أبي جهل والزبير بن العوام وأبو الدرداء وعبدالله بن مسعود وعبد الرحمن بن أبي بكر وقيس بن هبيرة رضي**

**الله عنهم مهام قيادية عدة، وبلغ عدد الصحابة الذين شاركوا في هذه المعركة أكثر من ألف، بينهم حوالي مائة ممن شهدوا معركة بدر.**

**كانت خطة خالد لإجبار الروم على الخروج من خنادقهم دليلا" آخر على عبقريته العسكرية، فقد كلف الميمنة والميسرة بتثبيت جناحي الجيش الرومي؛ لمنعهما من تنفيذ أية عملية التفاف على القوات الإسلامية، كما أمر القلب بالهجوم بشكل جبهوي، ثم التظاهر بالانسحاب من ميدان المعركة؛ لإغراء الروم بالاندفاع لمطاردة جيش المسلمين، فيضطروا بذلك إلى خوض المعركة في المكان الأنسب بالنسبة للمسلمين، وقد نجح الجيش الإسلامي في تطبيق هذه الخطة بحذافيرها مع بدء المعركة ونجاح الجنود في التصدي لهجمات الروم، فقامت الميمنة باحتلال (صحن الواقوصة)، المنفذ الوحيد الذي يستطيع الروم استخدامه للانسحاب، وعمل كردوسان يقود كل منهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو على الهجوم على خنادق الروم ومن ثم التراجع، فتم استدراج جنود الروم**

**إلى حيث أراد خالد الذي سارع إلى أصدار أوامره بالهجوم العام.**

**لقد لاقى المسلمون في بداية المعركة الكثير من العناء، إلا أنه ما أن مرت بضعة أيام من القتال الضاري حتى حرموا الجيش الرومي من المبادأة بشكل كلي وخلخلوا صفوفه، فبدأ بالانهيار وهرب فرسانه بعد أن تعمد المسلمون إتاحة ذلك لهم؛ لكي يتفرغوا لمواجهة مشاة العدو، فأعملوا فيهم السيف حتى أبادوا أكثرهم وحولوا أرض المعركة إلى بقعة كبيرة من الدم، كما قتلوا العديد من كبار قادة الروم. وقد ذكر البلاذري في (فتوح البلدان) أن حجم خسائر الروم بلغ حوالي سبعين ألفا''، بين قتيل بسيوف المسلمين وغريق رمى بنفسه في النهر، أما الفرسان الذين هربوا تحت جنح الظلام باتجاه الشمال فقد لحقتهم قوة من المسلمين وانتصرت عليهم قرب دمشق وقتلت قائدهم ماهان، في حين لم يخسر المسلمون، وفق بعض الروايات، إلا حوالي ثلاثة آلاف شهيد، قال تعالى: ((كَم مِّن فِئَةٍ**

قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)) (البقرة: 249).

ولا ننسى أن نشير إلى أنه خلال المعركة حدثت عدة أمور كان لها أثر بالغ على الموقف المعنوي للروم، ومنها أن أحد أبرز قادتهم ويدعى جورج (جرجة) انضم إلى المسلمين معلنا" إسلامه، وقد استشهد في وقت لاحق في نفس المعركة.

والجدير بالذكر أن عددا" من نساء المسلمين، مثل أسماء بنت أبي بكر (زوجة الزبير بن العوام) ونسيبة بنت كعب وأم إبان (زوجة عكرمة بن أبي جهل) وهند بنت عتبة بن ربيعة، شاركن في المعركة، وقمن ببطولات سيبقى ذكرها محفورا" بأحرف من مجد في سفر هذه الأمة، وكانت هؤلاء النسوة قد رافقن جيش الفتح بصحبة أزواجهن وأولادهن على عادة الجيوش في تلك الفترة، وقمن بمهام عدة، مثل مداواة الجرحى وإعداد الطعام وتشجيع الجند، وقد تم في اليرموك جمعهن وأولادهن في مؤخرة الجيش، وتشير بعض المصادر

**إلى أنه قد تم جمعهن على رأس تل يدعى تل شهاب، وعندما تراجع بعض فرسان المسلمين في بداية المعركة تحت ضغط الهجوم الرومي سارعن إلى حمل أعمدة الخيام وضربهم بها، لدفعهم إلى العودة لميدان المعركة، كما قمن برشقهم بالحجارة وحمل أطفالهن والتلويح بهم أمام الجنود، لتشجيعهم على الذود عنهم؛ لأن انهزام المسلمين في المعركة سيؤدي إلى سقوطهن وأطفالهن أسرى بيد العدو، فينتهي بهم الحال كجوارٍ وعبيد في بيوت الروم، ويقال أن أبا سفيان بن حرب، الذي كان يقاتل تحت راية ابنه يزيد، كان من بين الفرسان الذين تراجعوا، وأن زوجته هند بنت عتبة، صاحبة الدور المقيت في معركة أحد، شجعته على العودة إلى ساحة النزال، مذكرة إياه بواجبه في التكفير عن عداوته القديمة للدعوة النبوية، وقد أشارت المصادر التي تحدثت عنه إلى أنه وبعد فترة من فتح مكة حسن إسلامه، وشارك في الفتوحات، وفقد خلالها إحدى عينيه، إلى أن توفاه الله في عهد عثمان رضي الله عنه، بعد أن بلغ العقد التاسع من عمره.**

**لقد دخلت معركة اليرموك التاريخ العسكري من أوسع أبوابه، فقد حسمت نتيجة الحرب في الشام، ومهدت الطريق أمام المسلمين للمضي في فتوحاتهم إلى ضفاف النيل وشواطئ الأطلسي وتلال إسبانيا. وقد أشار الكثير من الباحثين إلى أن هذه المعركة كانت أول صراع مسلح تخوضه الجيوش الإسلامية وفق التنظيمات والتكتيكات المتبعة في جيوش الدول الكبرى إبان ذلك العصر، ولعل ذلك كان خلاصة تجربة حافلة امتدت منذ معركة بدر، ونتاج الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، ومنذ ذلك الحين بات العرب والمسلمون، ولفترة طويلة من الزمن، أساتذة العالم في فن وعلم الحرب، كما كان شأنهم في سائر الميادين الأخرى.**

**وكان من الطبيعي أن يتطلع المسلمون إلى أحد أكثر الأهداف أهمية وجاذبية بالنسبة لهم (ولغيرهم أيضا"!)، وهو احتلال بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، الذي اقترن في الوعي الجماعي الإسلامي برحلة الإسراء والمعراج المباركة، وما أعظمها وأروعها من رحلة! وقد عمل**

**أبو عبيدة على إنفاذ 35 ألف جندي قسمهم إلى سبع فرق، يقود كل منها خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والمرقال بن هاشم والمسيب بن نجية الفزاري وقيس بن هبيرة المرادي وعروة بن مهلهل، وسير هذه الفرق على دفعات بحيث يفصل بين الواحدة والأخرى يوم واحد، إلى أن تجمعت أمام أسوار المدينة التي كان القلق والخوف قد استولى على قلوب أهلها.**

**استمر حصار المدينة حوالي أربعة أشهر، كان القتال خلالها متواصلا"، وقد قاسى المسلمون الكثير بسبب البرد الشديد، إضافة إلى قذائف منجنيقات الروم، وأخيرا" وافق صوفرونيوس بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية على تسليم المدينة، بشرط قدوم الخليفة عمر رضي الله عنه بنفسه، فيما عرف في التاريخ الاسلامي بـ (العهدة العمرية)، التي تعتبر أحد أكثر الحوادث إثارة لاهتمام وإعجاب المؤرخين.**

ومما لا شك فيه أن المسلمين لم يعمدوا إلى التنكيل بسكان المدينة من النصارى، أو إجبارهم على اعتناق الإسلام، بل إنهم كانوا بالنسبة لهم بمثابة (المنقذ) من الاضطهاد الرومي، كما نعم اليهود في بلاد الشام بالأمن والسلام, وقد شهد بذلك شاهد من أهلها، حيث ورد في دائرة المعارف اليهودية العامة: " إن فتح العرب للبلاد أنقذ يهود فلسطين من الدمار الكامل "، كما كتب المؤرخ اليهودي هيامسون: " وعمليا"، فيما يتعلق بيهود فلسطين، فإن المسلمين قد جاءوا كمنقذين، وليس كمضطهدين ".

وبعد ذلك تقدمت قوة إسلامية بقيادة يزيد إلى قيسارية (قيصرية)، غير أنها صمدت طويلا"، ولم يستسلم سكانها إلا على يد معاوية في سنة 19 ه (640 م)، بعد فرار حاكمهم قسطنطين بن هرقل إلى القسطنطينية، مستغلا" لجوء المسلمين إلى وقف العمليات العسكرية بسبب الأمطار الغزيرة، وبسقوط هذه المدينة خسر الروم ولفترة طويلة من الزمن كامل معاقلهم في بلاد الشام.

**كما استطاع المسلمون أن يستعيدوا بسهولة المناطق التي كانوا قد جلوا عنها، ثم تيسر لهم الاستيلاء على جميع بلاد الشام، فأرسل يزيد قواته إلى تدمر وحوران، واستولى خالد على البقاع، ثم فتحت حمص بعد حصار مرير، ليستولي المسلمون بعد ذلك على قنسرين التي تولى خالد مهمة إدارة شؤونها لفترة من الزمن.**

**ويلاحظ أن أبناء العديد من حواضر الشام والجزيرة الفراتية آثروا عقد الصلح مع المسلمين والاعتراف بسيادتهم ودفع الجزية لهم، بعد أن رأوا المعاملة الإنسانية الباهرة التي لاقاها أبناء المدن الأخرى التي سقطت في أيديهم، كما أن انتصارات المسلمين الساحقة في أجنادين واليرموك وغيرها نزعت من الكثير من أبناء تلك المدن أي أمل بالانتصار عليهم، وبخرت ما تبقى في نفوسهم من خوف وإعجاب بالحكم الرومي.**

**وقد عانى المسلمون الأمرّين لدى فتحهم حلب، فرغم ركون أهلها إلى الصلح، استعصم حاكمها يوقنا (يواكيم) بالقلعة المجاورة للمدينة، فوجد المسلمون أنفسهم مضطرين لفرض حصار طويل عليه، حيث أخذ خلال ذلك في شن الغارات على قوافل إمدادهم، إلى أن تمكنوا في نهاية الأمر من إجباره على التسليم في خريف سنة 637 م، بعد أن وردت إليهم الإمدادات من الحجاز.**

**وأخيرا" تقدم الجيش المظفر بقيادة أبي عبيدة ومعاونه خالد إلى أنطاكية من جهة الشرق، واشتبك في معركة عنيفة مع قوات الروم قرب نهر العاصي، ثم فرض الحصار عليها واحتلها، فسقط بذلك أحد أهم رموز الوجود الرومي في بلاد الشام.**

**أما المدن الساحلية، كطرطوس وصور وصيدا وطرابلس وجبلة، فقد نجحت قوات المسلمين في فتحها هي الأخرى، غير أنه من الملاحظ أن المسلمين لم يمنحوا المناطق الساحلية**

الاهتمام الكافي، إذ ركزوا معظم جهودهم على المناطق الداخلية، الأمر الذي يفسر عدم اكتراثهم لوجود العديد من الجيوب المعادية التي اتخذت المناطق الجبلية الوعرة حصوناً لها.

وقد تأزم الموقف الحربي للمسلمين لفترة من الوقت؛ جراء نجاح العرب النصارى في فرض الحصار على حمص، في محاولة يائسة من هرقل لإعادة عقارب الساعة الى الوراء، ولا شك أن تأمل سيرة هذا الرجل تمنحنا تعليلاً لقوة إرادته ومضي عزيمته، فيما يتعلق بمقاومة الفتح الإسلامي، ذلك أنه كان قد نجح في دحر الفرس وطردهم من الشام، بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من احتلال القسطنطينية نفسها، ولعله اعتقد في قرارة نفسه أن الحظ سيحالفه من جديد، وإن في وقت متأخر، وأنه سيكون موفقاً أيضاً في إلحاق الهزيمة بالمسلمين في نهاية المطاف.

**وقد سارع الخليفة إلى إرسال الإمدادات إلى الشام، وتمكن المسلمون من إنزال الهزيمة بالعرب النصارى، فانسحبوا يجرون أذيال الخيبة، وبعد ذلك تقدمت قوات المسلمين من عدة اتجاهات إلى الجزيرة الفراتية واستحوذت عليها.**

**ونظر هرقل، المثقل بعار الهزيمة، إلى بلاد الشام من خلفه في رحلة هروبه إلى بلاد الأناضول بعد سقوط أنطاكية، وقال عبارته المشهورة: " السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده "، ثم مات سنة 641 م حزينا" مصدوما" بما حل بإمبراطوريته، وهكذا تلاشى الحكم الرومي في بلاد الشام وكأنه لم يكن، وتنفس أغلب أهلها الصعداء، بعد تخلصهم من ظلم بني الأصفر، وضرائبهم القاسية، وتسلط كنيستهم الملكانية على أتباع المذهب اليعقوبي. وتقلص نفوذ القسطنطينية إلى ما وراء جبال طوروس، لتتحول بلاد الشام بعد ربع قرن فقط، ولأول مرة في التاريخ، إلى مركز لأقوى دولة في العالم، بعد أن كانت مجرد ساحة تتصارع على أرضها القوى الكبرى، منذ أيام الفراعنة والحثيين والبابليين، وقد**

بدأت منذ ذلك الحين حقبة طويلة من الصراعات بين المسلمين والروم – كان شمالي بلاد الشام جزءا" رئيسيا" من مسرحها – انتهت بعد أكثر من ثمانية قرون بسقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح العثماني العظيم، قال تعالى : ((وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين)) (القصص: 5).

وفي حقيقة الأمر كانت عملية فتح الشام صعبة جدا" بالنسبة للمسلمين، إذ كلفتهم حوالي 25 ألفا" من الشهداء، كما عانى جنودهم خلالها من البرد الشديد الذي لم يكونوا قد اعتادوا على مثله.

ومما يرويه الأزدي البصري، أن هرقل اجتمع ببعض قادته في أنطاكية، وأنبهم بسبب فشلهم الذريع أمام قوات المسلمين، فبرر أحدهم سبب ذلك بقوله: " إنا إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا، ومن حيث أنا نحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر "، ومما تنبغي الإشارة إليه

في هذا المقام أن ورود هذه العبارة بفصاحتها هذه، رغم أن من نطق بها كان روميا" يتحدث بلغة بني قومه، لا يعني السماح لأنفسنا بالتشكيك في صحتها؛ لأنه من الطبيعي جدا" أن يقوم المؤرخ بتدوينها بأسلوبه العربي البليغ والمنمق، مثلما هو الحال في خطبة طارق بن زياد المشهورة، كما سنرى في موضع لاحق من الكتاب.

وبعد أن استتب الأمر للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، أخذوا يتطلعون بنفاد صبر إلى فتح مصر، التي كانت منذ عدة قرون قد غدت ولاية بيزنطية، حيث لم يستغرق فتح هذه البلاد، التي كان يحكمها المقوقس بالنيابة عن الروم، سوى عامين اثنين، ويمكننا اعتبار هذا نتيجة حتمية وطبيعية لفتح بلاد الشام، فهذه البلاد ارتبطت مع مصر منذ العصور التاريخية المبكرة بوشائج قوية، جعلت مصيرهما مشتركا" في كثير من الظروف، ولا يخفى على كل لبيب أن هذه الوشائج قد ازدادت قوة ومتانة في عصرنا الحالي، وستبقى كذلك إلى آخر الأيام.

وكان القبط المصريون، الرازحون تحت نير الظلم الرومي، قد سهلوا للمسلمين فتح بلادهم؛ لأنهم نظروا إليهم كمحررين لا كغزاة، كما أنه لم يكن بمقدور الروم الاتصال بحلفائهم وجنودهم في مصر إلا بحرا"، بعد أن فقدوا كل شبر كانوا يحكمونه في بلاد الشام، ناهيك عن أسباب الضعف التي بدأت تتكالب على دولتهم ابتداء بهزائمهم في الشام، وانتهاء بصراعهم مع السلاف، وقد حال هذا الضعف دون تمكنهم، بعد سنوات قليلة، من استغلال انشغال المسلمين في الفتن الداخلية عبر محاولة استعادة مواقعهم في بلاد الشام.

ويذكر أن الخليفة عمر رضي الله عنه كان مترددا" في البداية في الاستجابة لاقتراح عمرو بن العاص بإرسال جيوش الفتح إلى مصر؛ وذلك بسبب عدم قدرته على حشد قوة كافية لتنفيذ ذلك، بالنظر إلى تفرق قوات المسلمين في الشام والجزيرة وفارس، إضافة إلى إدراكه لحاجة المسلمين لمزيد من الوقت لترسيخ الحكم في البلاد المفتوحة قبل مواصلة الفتح، ويبدو أن ابن العاص كان متحمسا" للقيام بهذا الفتح،

**ولعب دوراً كبيراً في إقناع الفاروق بذلك، فوصف مصر له بأنها: " أقل شيء منعة وأكثر أموالاً "، فقد كان من أعلم الصحابة رضوان الله عليهم بأحوال هذه البلاد، بحكم تردده عليها في تجارته أيام الجاهلية.**

**ومهما كان الأمر، فإن ضم مصر كان ضرورياً في تلك المرحلة؛ لأن الروم كانوا يستطيعون، بعد أن يستفيقوا من صدمة طردهم من الشام، أن ينزلوا جيوشهم على الساحل المصري ويدخلوا بلاد الشام من جنوبها، فيغدو المسلمون هناك بين طرفي كماشة، إذا ما استغل الروم الطاقات البشرية الكبيرة المتوفرة لديهم، وأرسلوا في نفس الوقت جيشاً آخر لاقتحام الشام من الشمال.**

**أرسل الخليفة عمر عمراً بن العاص إلى مصر على رأس جيش بلغ تعداده حوالي أربعة آلاف جندي، ففتح العريش دون قتال في سنة 18 هـ (639 م)؛ لضعف حصونها وعدم وجود قوات من الروم فيها، ثم احتل مدينة الفرما (شرقي بور**

**سعيد حاليا")، الحصينة وذات المجد الغابر، بعد أن حاصرها لعدة أسابيع، وتغلب على حاميتها الرومية في بداية محرم 19 هـ (640 م)، وتشير الروايات التاريخية إلى أن القبط قدموا العون للمسلمين خلال حصارهم لها.**

**ثم تقدم عمرو باتجاه بلبيس، مارا" بمجدل والصالحية ووادي الطليمات (قرب التل الكبير)، وفي بلبيس، وبعد شهر كامل من القتال، هزم المسلمون القائد الرومي الملقب بـ (أرطبون)، الذي كان قد قدم إلى مصر فارا" من فلسطين، ثم استولوا على تندونياس (سماها العرب لاحقا" أم دنين أو المقس)، ذات المرفأ الهام على النيل، والتي تقوم مكانها اليوم منطقة الأزبكية المعروفة، وقد واجه المسلمون خلال ذلك مقاومة شديدة من القوات الرومية، فقد استمر القتال عدة أسابيع وتأزم موقفهم العسكري، مما دفعهم إلى التوقف عن القتال وطلب المدد من المدينة، فأمدهم عمر بقوة على رأسها أربعة من كبار الصحابة، هم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم.**

ولما وصل المدد إلى عين شمس (هليوبوليس) تحرك قائد الجيش الرومي ثيودوروس بقوة بلغ تعدادها عشرين ألفا" قاصدا" التصدي للمسلمين، فقام عمرو، المعروف في تاريخنا بكونه أحد دهاة العرب، بإعداد كمينين، أحدهما في الجبل الأحمر (شرقي العباسية اليوم)، والآخر على نهر النيل بالقرب من أم دنين، ولما نشب القتال بين الطرفين خرج كمين الجبل الأحمر وهجم على الروم، مجبرا" إياهم على التحرك إلى أم دنين، حيث كان الكمين الآخر بانتظارهم على أحر من الجمر، وهكذا تمزق الجيش الرومي بأيدي ثلاثة جيوش، وفر جزء منه عبر النيل، بينما انسحب القسم الآخر إلى حصن باب أليون (بابليون)، الذي سماه العرب قصر الشمع، وقد كان هذا الحصن القابع على ضفة النيل الشرقية أقوى حصون مصر وأكثرها مناعة على الإطلاق.

ضرب عمرو الحصار على حصن بابليون سنة 20 هـ (641 م)، وقد دام هذا الحصار حوالي سبعة أشهر، حيث زاد من صعوبة اقتحامه عدم توفر آلات ومعدات حصار كافية في

أيدي المسلمين، ثم نجحوا في دخوله في عملية فدائية كان على رأسها الزبير بن العوام رضي الله عنه. ولما تبين للمقوقس عدم جدوى التصدي للمسلمين آثر عقد الصلح معهم والإقرار بسيادتهم على البلاد، مما أثار غيظ القسطنطينية وحنقها عليه، وقام عمرو في نفس تلك الفترة بإرسال بعض الحملات إلى الصعيد والدلتا وأطراف الفيوم.

وبعد ذلك أرسل عمرو قواته لمحاصرة الإسكندرية، العاصمة السياسية للبلاد، وثاني أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية، وأبرز مراكز العالم التجارية، فسارع إمبراطور الروم إلى إرسال الإمدادات العسكرية إليها وأمر بتحصينها، بحيث توفر فيها حامية لا يقل عدد جنودها عن خمسين ألفا".

وخلال تقدمه إلى الإسكندرية ألحق عمرو الهزيمة تلو الأخرى بالقوات الرومية، في طرنوط (على الشاطئ الغربي لفرع رشيد) ونقيوس وسلطيس (جنوبي دمنهور) والكريون، وهكذا أصبحت جميع الحصون الواقعة على الطريق إلى

الإسكندرية في أيدي المسلمين، بينما لجأ ثيودوروس ومن تبقى من جيشه إلى الإسكندرية.

ثم ضرب عمرو الحصار على هذه المدينة، التي كانت تأتيها الإمدادات من القسطنطينية عبر البحر، وبعد عدة أشهر أتيح للمسلمين الاستيلاء عليها في 21 محرم سنة 21 ه (كانون الأول 641 م)، بعد أن عقدوا مع بطريركها هدنة مدتها أحد عشر شهرا"، على أن يجلو الروم خلالها من المدينة، وقد قام المسلمون بأخذ مائتين من هؤلاء كرهائن لضمان تنفيذ الاتفاق، كما كانت عليه العادة في تلك العصور، وبالسيطرة على هذا الثغر الهام بات الطريق الساحلي إلى المغرب مفتوحا" على مصراعيه أمام قوات المسلمين. وأما ما قيل عن إقدام المسلمين بعيد فتحهم للمدينة على إضرام النار في مكتبة الإسكندرية المشهورة فهو غير صحيح مطلقا"؛ لسبب بسيط، هو هذه المكتبة العريقة لم تكن موجودة آنذاك، باعتراف كثير من المؤرخين.

أما بقية المدن المصرية، كدمياط وتنيس، فقد سارعت إلى الدخول تحت لواء الإسلام، ليتغير بذلك وجه التاريخ المصري إلى الأبد، ويغدو الطريق مفتوحا" أمام قوات المسلمين للانسياب كالسيل عبر صحارى وسهول ومرتفعات الشمال الإفريقي، وصولا" إلى سواحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وضفاف نهر اللوار.

وفي سنة 25 ه (645 م) جهز الإمبراطور الرومي قسطنطين الثاني أسطولا" قويا" ضم حوالي 300 سفينة، وكلف قائده مانويل بقيادته والإبحار به في سرية تامة باتجاه مصر، وقد استغل هذا الأسطول انشغال المسلمين بإتمام الفتح، وضعف قواهم البحرية، وصغر حجم حاميتهم في الإسكندرية، فاستولى على هذه المدينة دون أن يواجه صعوبات كبيرة، ثم حاول التقدم عبر الدلتا، غير أن المسلمين ما لبثوا أن استعادوها بعد فترة قصيرة، وقتلوا مانويل وعددا" كبيرا" من جنوده. ومن المعلوم أن مصر كانت هي مصدر القمح للدولة

البيزنطية، مما يفسر جانبا" كبيرا" من تلهف القسطنطينية لاستعادتها من أيدي المسلمين.

وحال إحكام عمرو بن العاص سيطرته على مصر تقدم إلى برقة (جزء من ليبيا حاليا")، تمهيدا" لاستكمال الفتح في إفريقيا، كما أرسل جيشا" إلى الجنوب لإخضاع بلاد النوبة، وقد لاقى هذا الجيش مقاومة عنيفة من قبل أهلها، مما دفعه إلى الانسحاب منها. وعلى الصعيد الإداري، قام عمرو ببناء مدينة الفسطاط، لتكون عاصمة للبلاد وقاعدة عسكرية إستراتيجية.

لقد كان فتح مصر سهلا" بالمقارنة مع فتح الشام؛ ومن المؤكد أن السبب الرئيسي في ذلك تمثل في أن الروم قد استنفدوا أغلب قواهم في معارك الشام، ولم يعد في مقدورهم التصدي للمسلمين في مصر، كما أنهم انغمسوا بعيد وفاة هرقل في العديد من الأزمات السياسية الداخلية.

**وقد أثبتت الأحداث اللاحقة، وعلى امتداد عهود الراشدين والأمويين والعباسيين وغيرهم، أن دخول المسلمين إلى مصر مثل نهاية لعهود الحكم الأجنبي الجائر، التي منيت بها مصر منذ حوالي ألف سنة، بل إن مصر أصبحت لاحقا"، وخلال عهود الفاطميين والأيوبيين والمماليك، وحتى قدوم العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر، القوة السياسية والحربية الأولى في المشرق الإسلامي، وقد كان ديورانت محقا" جدا" حين كتب: " وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني ".**

رجوع للفهرس

# الفصل الخامس
# الطريق إلى بحر الظلمات

بنجاح المسلمين في فتح أرض الكنانة، كانوا قد وضعوا أقدامهم على عتبة المنزل الإفريقي الكبير، ليجوسوا فيه، على عدة مراحل اكتنفتها العديد من المصاعب والتقلبات، واستمرت حوالي سبعة عقود من الزمن، حاملين معهم أخلاق القرآن ولغته.

وقد كانت إفريقية آنذاك تضم، في نظر العرب، ومن قبلهم الروم، تلك المساحة الجغرافية الممتدة من برقة (في ليبيا) شرقا" إلى طنجة غربا". ولا ننسى أن معظم إفريقيا السوداء، الممتدة جنوبي الصحراء الكبرى ومنابع نهر النيل، كان مجهولا" إلى حد كبير بالنسبة لأهل ذلك العصر، رغم وجود علاقات ذات طابع تجاري بين شمالي القارة وقلبها منذ أيام الفينيقيين، ثم وبعد فتح المسلمين لشمالي القارة بدأت

قوافلهم التجارية تشق طريقها إلى أعماقها، الأمر الذي ساهم في انتشار الإسلام هناك، ومن المعروف أن أقاليم واسعة من القارة بقيت مجهولة، خاصة المناطق الداخلية حول خط الاستواء وإلى الجنوب منه، حتى بدء حركة الاستكشاف والاحتلال الأوروبي خلال القرن التاسع عشر، غير أن الجدير بالذكر أن إفريقية، أو شمال إفريقيا، بقيت إلى عهد طويل تمثل وحدة جغرافية وسكانية مستقلة نوعا" ما، لدرجة أن بعض جغرافيي القرن التاسع عشر كانوا يطلقون عليها اسم (إفريقيا الصغرى)، في تشبيه بتركيا المسماة في الأدبيات الجغرافية والتاريخية بآسيا الصغرى.

كانت إفريقية قبيل قدوم طلائع الفتح الإسلامي قد انفصلت عن دولة الروم بشكل شبه كامل، بسبب التداعيات والاضطرابات التي أثارتها بدعة سرجيوس بطريرك القسطنطينية، والتي مهدت لثورة بطريرك إفريقية جريجوريوس الثاني، الذي تسميه المصادر الإسلامية جرجير، وتمرده على النفوذ الرومي، واستفراده بحكم شمالي إفريقيا

من طرابلس الغرب إلى طنجة. ويشير المؤرخون إلى أن هذه البلاد كانت تتمتع بثقل كبير على المسرح السياسي لدولة الروم، لدرجة أن من كان يستطيع فرض نفوذه عليها يصبح صاحب سلطة كبيرة في القسطنطينية نفسها، ولعل من أبرز الأدلة على أهمية هذه المنطقة أن الإمبراطور هرقل، وقبل نجاحه في رد الخطر الفارسي عن القسطنطينية، فكر في نقل عاصمة الإمبراطورية إلى تونس، إلا أن بطريركها رفض ذلك، واكتفى بتقديم الدعم المالي لجيوش هرقل.

لقد كان الشمال الإفريقي يمثل عمقا" إستراتيجيا" وجغرافيا" بالنسبة لدولة الروم، خاصة في الفترات العصيبة، كما أن من شأن الاستيلاء عليه من قبل أية قوة غازية أن يهدد روما ذات المكانة الروحية عند الروم، ولعل هذه النقطة تفسر إقدام خليفة هرقل ووارث هزائمه المرة حفيده قسطنطين الثاني على ترك عاصمته، والإقامة في روما وصقلية للإشراف على مقاومة التوسع الإسلامي في شمال إفريقيا، وقد نقل عنه قوله أنه يعمل على " حماية الأم قبل حماية البنت "، وهو يقصد

**بذلك روما التي تمثل الإمبراطورية البيزنطية ابنتها الشرقية، ولا شك أن قسطنطين كان يخشى أن يعمل المسلمون، باستيلائهم على إفريقية، على مد نفوذهم إلى إيطاليا، ومن ثم تصبح عاصمته مطوقة من الجنوب والشرق والغرب.**

**وقد كان كثير من سكان إفريقية، خاصة في المناطق الساحلية والمدن، يعتنقون النصرانية، ولا ننسى أن كنيسة قرطاجة كانت تتمتع بأهمية عالمية الطابع لا تقل عن أهمية كنائس القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية، كما كانوا ينقسمون إلى ثلاثة عناصر تتباين في أصولها وانتماءاتها وأوضاعها السياسية والاقتصادية.**

**فهناك البربر، الذين يمثلون غالبية السكان، ويقطنون كما هو شأنهم منذ القدم في المناطق الداخلية، وقد حافظ أغلبهم على معتقداتهم الوثنية، بينما اعتنق القليل منهم النصرانية واليهودية، علما" بأنهم كانوا ينقسمون إلى أرومتين كبيرتين،**

هما البربر البتر الذين عاشوا حياة البادية، والبربر البرانس الذين امتهنوا الزراعة.

وبالإضافة إلى البربر، كان هنالك الأفارقة (أو الأفارق)، وهم بقايا شعب قرطاجة المندثر، وكذلك بعض المستعمرين اللاتين والمحليين المتأثرين بالحضارتين الرومانية والبيزنطية، وقد تركزت نشاطات هؤلاء على الصناعة والزراعة، أما الروم (البيزنطيون) فكانوا يمثلون الطبقة المسيطرة سياسيا" واقتصاديا"، في حين رزحت الطبقات الأخرى تحت نير الضرائب والتهميش السياسي، وحرمت من الإقامة في المناطق الساحلية. وقد تمركز الوجود الرومي في إفريقية في المدن والقواعد العسكرية الهامة.

لقد كانت إفريقية عشية الفتح الإسلامي لها تعاني الأمرّين من تسلط الروم وظلمهم واستغلالهم، وقد أدى هذا، بالإضافة إلى الفتن المذهبية المسيحية، وثورات البربر المتكررة، إلى نشر الفوضى والفقر فيها، ويبدو أن الحال بلغ

من السوء لدرجة أن توماس أرنولد نقل عن المؤرخ المشهور جيبون أن المرء كان يسير في أنحائها أياما" دون أن يصادف أحدا" من البشر.

ولا ريب أن ما سبق بيانه يفسر حقيقة أن المسلمين لم يواجهوا خلال فتحهم لإفريقية الكثير من المقاومة من قبل عامة سكانها، فهؤلاء كانوا يئنون منذ زمن طويل من غطرسة الروم واستغلالهم، فقد أثقلتهم الضرائب الكثيرة، وتحولت بلادهم إلى مزرعة للقسطنطينية وعملائها المحليين، والحقيقة أن من تصدى للمسلمين وحاول عرقلة تقدمهم في شمالي إفريقيا كانوا بالدرجة الأولى من عملاء الروم، الذين رأوا ما حققه المسلمون من عدالة واستقرار في الشام ومصر، فخشوا أن يؤدي دخول بلادهم تحت سيادة دمشق إلى فقدانهم امتيازاتهم وثرواتهم وسلطاتهم.

عندما استكمل عمرو بن العاص فتح مصر، ووقف على أبواب إفريقية، بفتحه برقة صلحا" سنة 21 ه، فطرابلس عنوة

**في السنة التالية، بعث بخطاب إلى الخليفة رضي الله عنه يستأذنه فيه بمواصلة التقدم غربا"، غير أن الخليفة ـ وفق بعض المؤرخين ـ رفض ذلك خوفا" على سلامة الجيش، خاصة أن إفريقية كانت بالنسبة للمسلمين بلادا" مجهولة، لا تتوافر لديهم الكثير من المعلومات عن أحوالها، وأن سيطرة المسلمين على الشام ومصر كانت بحاجة إلى مزيد من التوطيد السياسي والأمني، وقد ذكر البلاذري أن الخليفة كتب إلى ابن العاص يقول له: " ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها "، وقد فسر البلاذري هذه العبارة بقوله : " أن أهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئا" [ أي مبلغا" من المال ] فكانوا يغدرون به كثيرا"، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم ".**

**ثم أعفى الخليفة عثمان ابن العاص من منصبه، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وأمده بقوة عسكرية على رأسها بعض كبار الصحابة، مثل عبد الله بن عباس، وكلفه بمواصلة الفتوحات باتجاه الغرب.**

**لم يتبع عبد الله بن سعد إستراتيجة الحسم في تعرضه داخل إفريقية، فقد كان يكتفي بإرسال الخيالة للإغارة على تخومها، ليعودوا إلى مراكزهم محملين بالغنائم، كما قنع بأخذ الجزية من أهلها، وقد استولى خلال ذلك على بعض السفن الرومية الراسية في طرابلس الغرب، ونتيجة للتهديدات التي كانت تمثلها قبائل النوبة (شمالي السودان حاليا") اضطر إلى تحويل اهتمامه العسكري إلى هناك، فعقد هدنة مع الروم عاهدهم فيها على إخلاء إفريقية مقابل دفعهم الجزية له، وأرسل سنة 31 ه قوة عسكرية إلى النوبة وصلت إلى دنقلة، ولكنها لم تستطع فتحها، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين، تضمن اتفاقا" اقتصاديا"، يقضي بتزويد النوبيين مصر بحوالي ثلاثمائة من الرقيق سنويا"، على أن تمدهم هي بالحبوب.**

**في تلك الفترة، أصبح الصراع الإسلامي الرومي أكثر شدة، وامتد إلى البحر، حيث وصل المسلمون إلى قبرص**

ورودس وكريت (أقريطش)، وحقق الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد نصرا" مبينا" على الأسطول الرومي في معركة ذات الصواري. وتكمن أهمية هذه المعركة، بالنسبة لعملية فتح إفريقية، في أنها ساهمت في إضعاف البحرية الرومية، مما حال دون قيامها بتنفيذ عملية إنزال كبيرة للجيوش الرومية على السواحل الإفريقية؛ ولذلك وصفت هذه المعركة من قبل بعض المؤرخين بأنها " يرموك " ثانية.

ويبدو أن هزائم الروم في الشام ومصر لم تنزع الأمل في نفس جريجوريوس في جدوى التصدي للقوات الإسلامية، التي بدا آنذاك أن ما من قوة في الأرض قادرة على وقف زحفها المجيد، فقد جمع جيشا" كبيرا" قدر ابن الأثير عدد جنوده بـ 120 ألفا"، بينما تحدث الذهبي عن نحو 200 ألف جندي، وقد التحم هذا الجيش بالقوات الإسلامية في معارك يومية غير حاسمة، على بعد يوم وليلة عن مدينة سبيطلة، ذات الأهمية الإستراتيجية البالغة، ثم قام عثمان رضي الله عنه، الذي كان قد استولى عليه القلق على مصير جيش عبد

الله بن سعد، بإرسال مدد آخر إلى إفريقية بقيادة عبد الله بن الزبير.

وتشير الروايات إلى أن ابن الزبير لم يكن مقتنعا" بجدوى الإستراتيجية التي كان يسير وفقها عبد الله بن سعد، ودعا إلى الكف عن أسلوب المناوشات والغارات اليومية والقصيرة، والعمل على تقسيم الجيش إلى قوتين تتناوبان التعرض ضد العدو، بحيث لا تتركان له الفرصة لالتقاط أنفاسه وإعادة تنظيم صفوفه، وقد كان ابن الزبير مصيبا" في رأيه، فالإستراتيجية التي طبقها عبد الله بن سعد، وبغض النظر عن كونه كان مضطرا" لاتباعها في البداية أم لا، كانت ستؤدي إلى إنهاك المسلمين دون إحراز أي تقدم حقيقي على الأرض، وهي إستراتيجية تصلح لاستخدامها من قبل قوات غير نظامية في حرب كر وفر، ولا يجدي اللجوء إليها من قبل جيش يسعى لاحتلال بلاد شاسعة ومجهولة مثل إفريقيا، وقد وافق عبد الله بن سعد على تطبيق خطة ابن الزبير، الذي لعب دورا" كبيرا" في إلحاق الهزيمة النهائية بجريجوريوس.

**هذا وتشير بعض الروايات إلى أن جريجوريوس قتل على يد عبد الله بن الزبير، وثمة قصة طريفة ومعبرة في هذا الشأن أوردها ابن عذاري المراكشي في (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، ذلك أن جريجوريوس كان قد أعلن أمام جنوده أنه سيزوج ابنته الجميلة ويمنح جواريها لمن ينجح في قتل عبد الله بن سعد، ولما علم هذا بالأمر قال لجنوده: " لا قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته ومن معها [ أي هي وجواريها وخدمها ] "، وقد تعمد ابن الزبير عدم الإعلان عن قيامه بقتل جريجوريوس خلال المعركة زهدا" في المكافأة، وطمعا" في نعيم الآخرة، وبعيد انتهاء المعركة اختلف المسلمون حول هوية من قتله، وكانت ابنته قد شهدت مقتله، فأخبرتهم بذلك، فعرض عليها عبد الله بن سعد عددا" من جنود المسلمين، وطلب منها أن تشير إلى قاتل أبيها، فلما رأت عبد الله بن الزبير عرفته وأشارت إليه، فسأله عبد الله بن سعد: " لم كتمتنا قتلك إياه؟ " فرد عليه قائلا": " علمه الذي قتلته من أجله ".**

**ولما تم للمسلمين الاستيلاء على سبيطلة سنة 27 ه (649 م)، وجه عبد الله بن سعد قواته إلى قفصة وحصن الأجم، ثم قفل راجعا" إلى مصر، بعد أن أقام في إفريقية مدة خمسة عشر شهرا" تقريبا".**

**وعندما تولى معاوية حكم المسلمين عهد إلى قائده معاوية بن حديج الكندي سنة 46 ه (665 م) بمواصلة عملية الفتح، التي كانت قد توقفت بسبب تأزم الأوضاع الداخلية في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقد أرسل ابن حديج قوة عسكرية يقودها ابن الزبير تمكنت من احتلال بعض المدن الساحلية، مثل قابس وبنزرت، وفي ميناء سوسة نجح ابن الزبير في إحباط محاولة إنزال رومية كان يقودها البطريق (البطريرك) نقفور، كما أرسل ابن حديج قوة أخرى بقيادة الأمير عبد الملك بن مروان (الخليفة فيما بعد) نجحت هي الأخرى بعد قتال عنيف في الاستيلاء على حصن جلولاء، وقام ابن حديج أيضا" بإرسال قواته للإغارة على صقلية التي تتمتع بأهمية إستراتيجية فائقة؛ لكونها قريبة نسبيا" من الساحل**

الإفريقي، إضافة إلى أنها تمثل الفاصل بين الجزئين الغربي والشرقي من البحر المتوسط، وأرسل أيضا" حوالي عشرة آلاف جندي على رأسهم عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري (الذي ما لبث أن تولى القيادة بدلا" من ابن حديج سنة 50 ه) للتعرض ضد الروم، فتقدم بهم عبر الأراضي التونسية الحالية واحتلها وضمها إلى ولاية مصر عام 50 هـ (670 م)، وتقدم لاحتلال فزان وودان وغيرها من الواحات الجنوبية، حتى وصل إلى زويلة وغدامس على أطراف ما كان يعرف بالسودان الغربي.

كما اختط عقبة معسكر القيروان، وجعل منه قاعدة حربية ضخمة بحلول عام 55 هـ (676 م)، حيث تحولت هذه القاعدة فيما بعد إلى أحد أهم المراكز الحضارية الإسلامية، وقد أتاح هذا المعسكر للمسلمين القدرة على اتباع إستراتيجية ثابتة لضم الشمال الإفريقي، خاصة أن معسكر الفسطاط كان قد أصبح يبعد عن قوات الفتح أكثر من ألف كيلو متر، مما جعل من الضروري إنشاء قاعدة أخرى متقدمة، وقد قال عقبة في

محضر تخطيطه لإنشائها: " إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة، تكون عزا" للإسلام إلى آخر الدهر ".

والجدير بالذكر أن (القيروان) هي كلمة فارسية معربة أصلها (كروان)، وتعني " محط الجيش ومناخ القافلة "، وكان عقبة ذكيا" في حرصه على إبعاد موقع المعسكر عن الساحل؛ لئلا يصبح هدفا" للغارات البحرية الرومية، وإبعاده في نفس الوقت عن أعماق الصحراء؛ ليكون في منأى عن هجمات البربر، كما راعى في اختياره، على ما يبدو، أن يكون قريبا" في طبيعته ومناخه من بوادي العرب، وأن يكون قريبا" أيضا" من مصادر الماء والطعام والعلف ومن طرق القوافل التجارية، إضافة إلى عدم وجود أي حاجز طبيعي كبير من نهر أو بحر بينه وبين الفسطاط في مصر، وقد بنى فيه دارا" للإمارة ومسجدا"، وأحاطه بسور من اللبن والطين، وشرع يوجه من هذا المعسكر السرايا لمحاربة الروم وحلفائهم، ومنذ ذلك

الحين تحول المجهود الحربي للمسلمين في تلك الأنحاء من مجرد شن الغارات الاستنزافية والاستطلاعية والهجمات المحدودة، إلى السعي الدؤوب والمنظم لفتح إفريقية شبرا" شبرا" وضمها إلى الإمبراطورية الأموية.

سيبقى اسم عقبة بن نافع نجما" مضيئا" في سماء التاريخ العسكري الإسلامي، إلى جانب خالد بن الوليد وألب أرسلان وصلاح الدين وخير الدين بربروسا، وكان قد ولد قبل الهجرة النبوية بعام واحد وفق أغلب الروايات، أي أنه صحابي بحكم المولد والنشأة، إذ كان والده قد أسلم في بداية الدعوة، مما جعل عقبة ينشأ في بيئة إسلامية جهادية الطابع، أما أمه فيروى أنها كانت من بني ربيعة، وقد اكتسب الكثير من الخبرات عبر مشاركته مع والده في فتح مصر رغم صغر سنه، ثم رافق ابن خالته عمرو بن العاص في تقدمه إلى برقة، وقاد بنفسه القوة التي أخضعت قبيلة لواتة، كما استخلفه عمرو على برقة قبل أن يعود إلى الفسطاط، ثم قام عقبة بعد

ذلك بقيادة حملة إلى بلاد النوبة لم يكتب لها النجاح، وقد عرف عن هذا الرجل الفذ أنه كان من مستجابي الدعاء.

ويلاحظ أن عقبة تجنب خلال فتوحاته التقدم في المناطق الساحلية، وركز على المناطق الداخلية، الأمر الذي فسره المؤرخون على أنه محاولة لكسب قبائل البربر، تمهيدا" لإحكام الحصار على الروم في السواحل، وقد كان ناجحا" في هذه النقطة كل النجاح، إذ أخذت الكثير من هذه القبائل تقيم حول القيروان، فبدأت بذلك حركة تعريب واسعة النطاق، رافقها انتشار كثيف للإسلام في تلك المناطق التي كانت عصية على كل محتل.

ومما يثير الدهشة، أنه وفي غمرة انشغال عقبة بمواصلة الفتح سنة 55 هـ، أقدم والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري على عزله (بموافقة معاوية طبعا") لأسباب غير معروفة لدينا، وتعيين أبي المهاجر دينار المخزومي بدلا" منه، وقد باشر هذا على الفور عملية فتح نوميديا، التي تمثل

**القسم الشرقي من الجزائر الحالية، فوصل بقواته إلى بجاية، ثم تقدم إلى تلمسان، وانتصر على قبيلة أوربة وزعيمها كسيلة، الذي ما لبث أن تظاهر باعتناق الإسلام وتحالف مع المسلمين، ثم خانهم لاحقا" وانضم إلى الروم. وما أن تولى يزيد بن معاوية مقاليد الخلافة حتى أعاد عقبة إلى منصبه سنة 62 هـ (682 م).**

**قام عقبة باحتلال بلاد الزاب (وسط الجزائر)، وتوغل في بلاد المغرب، حتى وصل إلى حاضرته طنجة، وفتح بعد ذلك السوس الأدنى (الريف المغربي) والأوسط، ليقف بفرسه على شاطئ المحيط وقفته الشهيرة مناديا" ربه عز وجل: " يا رب، لولا أن البحر منعني لمضيت إلى مسلك ذي القرنين مدافعا" عن دينك مقاتلا" من كفر بك "، وكان عقبة بدون أدنى شك لا يملك أدنى فكرة عن اتساع هذا المحيط المعروف حينذاك بـ (بحر الظلمات)، أو عما يخفي وراءه من بلاد وعباد وكنوز، ومن نافلة القول أنه لو قام المسلمون بعبور هذا المحيط، وسبقوا الأوروبيين في اكتشاف (أمريكا) وامتلاكها، لما**

تعرضت شعوب الهنود الحمر للإبادة أو التنكيل، ولأصبحت جزءا" من الأمة الإسلامية، كما هو حال الفرس والترك والبربر.

ولما قفل عقبة راجعا" إلى القيروان عن طريق الأطلس الصحراوي، انفصل بقوة صغيرة من الجند (وفق بعض المصادر) عن الجسم الرئيسي للجيش، الذي أمر بإعادته إلى القيروان، بينما قام هو بمحاولة إقامة قاعدة عسكرية ثابتة – على غرار القيروان - في بلدة تهودة، الكائنة قرب نهر الزاب جنوبي جبال أوراس، ولدى وجوده في هذه البلدة البعيدة، بذلك العدد القليل من الجنود، أصبح موقفه العسكري ضعيفا" للغاية، فانتهز كسيلة الفرصة، وأغار بقوة مشتركة من الروم والبربر على عقبة وجنوده سنة 64 هـ (682 م)، وقتلوه مع أبي المهاجر دينار ومعظم جنوده، وقد دفن عقبة في تهودة، التي تعرف اليوم ببلدة سيدي عقبة قرب مدينة بسكرة في جنوبي الجزائر، حيث يعتبر قبره إلى يومنا هذا أحد المعالم البارزة في تلك المنطقة.

إزاء هذا الانقلاب المفاجئ في الموقف الإستراتيجي، تقدم كسيلة بجموع من البربر البرانس واستولى على القيروان، بينما تراجع المسلمون إلى برقة بانتظار وصول المدد من الشام، وهكذا نجد أن منطقة شمالي إفريقيا لم تكن حتى ذلك الوقت قد خضعت بشكل كامل للمسلمين، رغم وصول راياتهم إلى شواطئ الأطلسي، مما أدى لتراجعهم بعد استشهاد عقبة، ولعل من أسباب ذلك تضاريسها الصعبة، ومساحتها الشاسعة، إضافة إلى الاندفاع الحماسي للقادة المسلمين باتجاه الغرب، وخاصة عقبة الذي أخذ عليه بعض المؤرخين إهماله للجانب الدبلوماسي في تعامله مع زعماء المناطق المفتوحة، ولا شك أنهم استندوا في ذلك إلى الحديث الذي دار بينه وبين أبي المهاجر حول اتباع عقبة الشدة في تعامله مع كسيلة، مما أدى إلى انتفاضته على المسلمين وتحالفه مع الروم، وثمة مأخذ آخر على الإستراتيجية العامة التي سار عقبة على ضوئها، وهو أنه اندفع في تقدمه عبر الشمال الإفريقي، متأثراً" بالروح الجهادية العالية التي تملكته هو وجنوده، دون أن يقيم حساباً" لما ينطوي عليه ذلك من مخاطرة بالموقف

العام لقوات المسلمين، وأنه وعلى الرغم من وصوله المظفر إلى ساحل الأطلسي، ترك البلاد المفتوحة من خلفه دون أن يحكم السيطرة عليها سياسيا" وعسكريا"، ولو أنه حرص على إخضاع البلاد إقليما" إقليما" لما تعرض المسلمون للهزائم على يد كسيلة وغيره، وتشير الروايات إلى أن موسى بن نصير كان من منتقدي إستراتيجيته في الفتح، والملاحظ أن البربر كانوا في تلك المرحلة يسارعون إلى التمرد حال ترك القوات الإسلامية لأراضيهم واندفاعها غربا" لاستكمال الفتح.

وفي سنة 69 هـ (690 م) أرسل عبد الملك بن مروان إلى القائد الجديد زهير بن قيس البلوي جيشا" انتصر به على كسيلة، وقتله في منطقة (ممس) قرب القيروان، ثم طارد فلول جيشه حتى وادي ملوية.

ومن الواجب الإشارة إليه، أن الجيش الإسلامي، المكون من 6 آلاف جندي، الذي قضى على تمرد كسيلة البربري كان ثلثه من جنود البربر، وهي حقيقة نرد بها على المؤرخين

الذين حاولوا أن يصوروا لنا أنه كانت هنالك مقاومة بربرية شاملة قومية الطابع ضد جيش الفتح العربي ذي الأجندة الاستعمارية! ذلك أن البربر سرعان ما اعتنقوا الإسلام، وتعلم الكثير منهم اللغة العربية، وشاركوا بكثافة في فتح إسبانيا والبرتغال والعمليات في فرنسا، كما سيأتي لاحقا"، ومما سهل ذوبانهم السريع في الإطار الحضاري الإسلامي أنهم لم يكونوا أصحاب حضارة متميزة وعريقة ودين وطيد ذي أسس قوية وراسخة في ضمير المجتمع، كما هو حال الشعوب الفارسية، كما أنهم وبحكم حياتهم البدوية كانوا أقرب للعرب في صفاتهم وطبائعهم ونزعاتهم، لدرجة أن بعض الباحثين حاولوا أن يردوهم إلى أصول عربية.

إن الخلافات التي نشأت لاحقا" بين العرب والبربر كانت سياسية بحتة، ومتمحورة حول السلطة والنفوذ، تماما" كتلك التي قامت مرارا" بين العرب أنفسهم خلال العهدين الراشدي والأموي، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال عزو تلك الخلافات لرفض البربر للدين الإسلامي أو الإطار الحضاري الجديد،

**الذي انتشلهم من طغيان الروم ومن حياة البداوة الجامدة، بما يتخللها من جهل وفوضى وتشرذم، بل إن تلك الخلافات ما هي – في حقيقة الأمر - إلا نتيجة منطقية لعدم تطبيق القواعد والقيم الإسلامية، التي تؤدي إلى منع حدوث الصراعات الداخلية على السلطة والموارد، وتحقيق المساواة والعدالة بين المسلمين فيما يتعلق بالحقوق السياسية.**

**وقد أثبت التاريخ أن الصراعات التي قامت في ظاهرها لأسباب دينية، لم تكن في الحقيقة سوى نتاج عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، فمشركو قريش، على سبيل المثال، لم يقفوا في وجه الدعوة الإسلامية حرصا" على موروثاتهم الوثنية فقط، بل خوفا" على سلطاتهم وامتيازاتهم وثرواتهم في الدرجة الأولى، والأمر ذاته ينطبق على الحملات الصليبية، وعلى الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.**

وقد استشهد زهير في وقت لاحق، أثناء إحدى معاركه مع الروم على ساحل برقة، مما أدى إلى عرقلة عملية الفتح لفترة من الزمن، وفي سنة 76 هـ (695 م) أرسل عبد الملك حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني (الملقب بالشيخ الأمين) على رأس حوالي أربعين ألف جندي، ليتولى القيادة في ظروف كانت تزداد تعقيدا" في وجه المسلمين يوما" بعد يوم، وقد نجح هذا القائد الفذ – الذي كان قد أسلم بعيد فتح الشام - في التخلص من الخطر الذي مثلته الحامية الرومية في قرطاجة وميناء بنزرت وباجه وغيرها، وعندما احتل الروم قرطاجة وفتكوا بحاميتها الإسلامية سارع حسان إلى استردادها وتخريبها؛ لكي لا يحاول هؤلاء العودة إليها.

والملاحظ أن الخلافة في دمشق أخذت منذ ذلك الحين تولي اهتماما أكبر بعملية فتح إفريقية، خاصة على أثر تنفسها الصعداء بعيد انتصارها على ثورة عبد الله بن الزبير سنة 73 هـ (692 م).

**ثم وجد المسلمون أنفسهم أمام تحد جديد، تمثل في ثورة قبيلة جراوة من قبائل زناتة (من البربر البتر) في جبال أوراس الجزائرية، والتي كانت تقودها الكاهنة داهية، وقد نجحت هذه الكاهنة، بمساعدة مباشرة من الروم، في إلحاق الهزيمة بالجيش الإسلامي في معركة نهر البلاء، وطاردته إلى قابس، ويبدو أن الروم أخذوا يعولون عليها في محاربة المسلمين بعد مصرع كسيلة، ولا شك أن انضمام الكثير من البربر إليها بعد مقتل كسيلة مكنها من تعزيز قواها والبقاء كشوكة في حلق المسلمين لعدة سنوات، ثم لجأت هذه المرأة المثيرة للجدل إلى اتباع إستراتيجية (الأرض المحروقة)، عبر تخريب المدن وحرق بساتين الكروم والزيتون؛ لحرمان المسلمين من الاستفادة منها في حال عودتهم للسيطرة عليها، وقد أثار هذا العمل نقمة الكثير من أتباعها الذين استنجد بعضهم بالمسلمين، وفي سنة 80 ه جاء مدد الخليفة إلى المسلمين، فتمكنوا بعد حرب طاحنة من الانتصار على الثورة واستعادة السيطرة على الأوراس وقتل داهية، في المعركة التي عرفت بموقعة بئر الكاهنة.**

**ثم تفرغ حسان لتدبير شؤون البلاد، فنظم الدواوين وعلى رأسها ديوان الجند، كما أنشأ أسطولا" قويا" وقاعدة بحرية ودارا" لبناء السفن وأبراجا" للمراقبة البحرية في مدينة تونس شرقي قرطاجة، وقد استعان في ذلك بالكثير من الأقباط المصريين أصحاب الخبرة الواسعة في الملاحة البحرية وبناء السفن، وبذلك استطاع أن يضع حدا" لمحاولات التدخل الرومية في إفريقية، كما عمد إلى استمالة البربر، وعين العديد منهم ـ ومن بينهم ابني الكاهنة نفسها ـ في مناصب قيادية.**

**ثم أُعفي حسان بن النعمان من منصبه، وعُين مكانه التابعي اليمني الأصل أبي عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمي (19 – 97 هـ)، والذي كان والده أحد الغلمان الأربعين الذين كانوا يدرسون الإنجيل في كنيسة عين التمر قرب الفرات، وقد سباهم خالد بن الوليد رضي الله عنه عند احتلاله لها، حيث أعتقه بنو أمية فعمل في شرطة معاوية وبات أحد أخلص رجاله، ثم وقف على الحياد في الصراع المرير الذي دار بين الأخير وعلي بن أبي طالب.**

**لقد نشأ موسى في دمشق بين أبناء البيت الأموي الحاكم، مما أكسبه ثقافة شاملة وحنكة سياسية كبيرة، كما درس القرآن الكريم وعلوم الدين، وقد كلفه معاوية بقيادة بعض الحملات البحرية، فأعاد احتلال جزيرة قبرص وبنى فيها بعض الحصون، وشارك سنة 53 ه (673 م) في فتح جزيرة رودس، ثم أصبح مسئولا" عن خراج البصرة في عهد الحجاج، وعندما ثار الصراع بين الأمويين وابن الزبير بايعه موسى، ثم ما لبث أن هرب إلى مصر بعد انتصار الأمويين، وهناك دخل في حماية واليها عبد العزيز بن مروان الذي اعتبر وقوفه في صف ابن الزبير نوعا" من الاجتهاد، ثم ما لبث أن زكاه لتولي ولاية إفريقية، حيث نجح في البناء على إنجازات أسلافه من القادة، وحسم الصراع في شمالي إفريقيا في غضون سنوات قليلة.**

**ومن القصص المثيرة للتأمل التي رواها المؤرخون عن موسى، المعروف بإلحاحه الشديد في الدعاء، أنه عندما**

أصيبت إفريقية بالقحط وانقطاع الأمطار دعا الناس إلى الصلاة والصيام، ثم جمع، في موضع واحد، الرجال على حدة، والنساء على حدة، والصبيان على حدة، وكذلك البهائم على جميع أنواعها، حيث دعا الناس ربهم وبكوا جميعا"، فأنزل الله سبحانه وتعالى رحمته في غيث أنقذ البلاد والعباد من العطش والجوع.

نجح موسى في استكمال مشروع الفتح دون أن يواجه أي إخفاق كبير، فأخضع جميع ثورات البربر، وعمل على استمالتهم، واستيعابهم في الجيش، وإرسال الدعاة لنشر الإسلام بينهم، وطرد من تبقى من الروم، واستولى على طنجة سنة 89 هـ (707 م) بقوة من تسعة آلاف جندي، يقودهم مولاه طارق بن زياد الذي كان على موعد مع القدر، ثم تقدم موسى جنوبا" إلى سجلماسة ودرعة، وقد كلف طارق بن زياد بحكم طنجة وما حولها من بلاد المغرب الأقصى، ثم عاد إلى القيروان بعد أن حاصر سبتة (شرق طنجة)، التي كانت المدينة الوحيدة التي بقيت صامدة أمام المسلمين؛ لعوامل عدة أهمها

**تحصيناتها المنيعة، إضافة لكونها محصنة طبيعيا" لوجودها في لسان بري داخل في البحر، وعدم توفر قوة بحرية كافية لمحاصرتها من جهة البحر ولمنع وصول الإمدادات إليها من إسبانيا. ونظرا" لأن محاور تقدم قوات موسى تشبه المحاور التي تقدم عليها جيش عقبة بن نافع، فإن بعض المؤرخين مالوا إلى الاعتقاد بأن الرواة قد أسندوا لأحدهما بعض إنجازات الآخر.**

**لقد استغرق فتح إفريقية حوالي سبعين عاما" من 23 ه وحتى 89 ه، وقد تضافرت أسباب كثيرة لتجعل هذا الفتح صعبا" ومليئا" بالعقبات والانتكاسات، مقارنة بفتحي الشام والعراق اللذين استغرقا حوالي عشر سنوات فقط؛ وذلك بالنظر الى المساحة الواسعة الممتدة لعدة آلاف من الكيلو مترات من الشرق إلى الغرب، والسواحل الطويلة المهددة باستمرار من قبل السفن الرومية، والصحراء القاحلة المترامية الأطراف إلى الجنوب من الشريط الساحلي، وصعوبة التضاريس في كثير من المناطق، وطول طريق الإمدادات القادمة من الشام ومصر،**

**أضف إلى ذلك أن الدولة الإسلامية انشغلت في كثير من الأحيان في التصدي للفتن الداخلية، مما جعل عملية الفتح في إفريقيا أمرا" ثانويا"، وقد توقف هذا الفتح كما هو معروف خلال خلافة علي رضي الله عنه بسبب أحداث الفتنة الكبرى، ويمكننا أن نضيف سببا" آخر لا يقل أهمية هو أنه، وفي ظل وجود الأسباب السابقة، لم يجد العرب أمامهم قبائل عربية قوية قادرة على نصرتهم وتقديم العون لهم، مثلما حدث في العراق والشام، رغم أن البربر انضموا في نهاية الأمر إلى المسلمين في حماسة منقطعة النظير، ومهما كان الأمر فقد كان الخليفة عمر رضي الله عنه محقا" في تخوفه من العواقب الناتجة عن تدخل المسلمين في هذه البلاد، خاصة فيما يتعلق بصعوبة السيطرة على أهلها.**

**كما أن المسلمين أنفسهم ارتكبوا بعض الأخطاء الإستراتيجية خلال عملية الفتح، فقد كانوا – كما أوردنا سابقا" - يتقدمون على كل الجبهات مدفوعين بحماسهم للجهاد، دون أن يوطدوا سيطرتهم على المناطق المفتوحة التي**

**لم يستطيعوا السيطرة على القبائل المناوئة فيها بسبب قلة عددهم، ويشير المؤرخون إلى أن موسى بن نصير نجح في إتمام إخضاع إفريقية لأنه تنبه لهذه الأخطاء وقام بمعالجتها.**

**وقد بدأ موسى بتحويل اهتمامه إلى السيطرة على الجزء الغربي من البحر المتوسط؛ للحيلولة دون نجاح الروم والقوط في توجيه أية حملات عسكرية ضد سواحل إفريقية، فاهتم بتطوير الأسطول الإسلامي لهذه الغاية، وقد وفرت له بلاد المغرب الكثير من الأخشاب الصالحة لبناء السفن، فتم تكليف أبناء قبائل البربر بتقطيعها ونقلها إلى دور بناء السفن على الساحل، ويقول المؤرخون أن موسى قام بإرسال حملة يقودها ابنه عبد الله للإغارة على المواقع الرومية في صقلية، ثم أرسل إلى هناك حملة أخرى بقيادة عياش بن أخيل.**

**كما أرسل موسى قوة عسكرية أخرى نجحت في احتلال جزيرة سردينيا (جزء من إيطاليا حاليا")، غير أن الحملة انتهت بمأساة، حيث غرق جنودها، ومعهم الكثير من الغنائم،**

**في طريق عودتهم إلى إفريقية؛ بسبب الظروف الجوية السيئة، وقد أرسل موسى بعد فترة ابنه عبد الله في حملة جديدة تمكنت من إعادة إخضاع سردينيا، ومن ثم احتلال جزيرتي ميورقة ومنورقة (إلى الشرق من إسبانيا) سنة 89 ه وفقا" لرواية الذهبي، ومنذ ذلك الحين غدت الجزر سالفة الذكر عرضة لحملات المسلمين من وقت لآخر.**

**والآن، وبعد أن دان الشمال الإفريقي للمسلمين، وبدأت سماته اللاتينية والنصرانية بالاختفاء في سرعة مذهلة، لم يحل بين المسلمين والتوسع غربا" وجنوبا" سوى أمواج الأطلسي العاتية ورمال الصحراء الشاسعة، وأصبح من الطبيعي أن يتطلعوا، وقد ملأت الثقة أنفسهم بعد أن تحولوا في غضون قرن من اللا شيء إلى كل شيء، لفتح إسبانيا والبرتغال، اللتين كانتا على موعد مع قدر مشرق وجميل.**

رجوع للفهرس

# الفصل السادس
# العبور إلى أوروبا

إذا زار المرء إسبانيا، الدولة العضو في الاتحاد الأوروبي وحلف شمالي الأطلسي، وتجول في مدنها وأريافها، وتأمل عادات أهلها وطبائعهم، فإنه بالكاد يلمس شيئا" من آثار المسلمين ولمساتهم على هذه البلاد التي دانت لحكمهم عدة قرون، كانت خلالها جزءا" لا يتجزأ من الشرق الإسلامي إن صح التعبير، وإحدى أعظم منارات الحضارة الإسلامية وأكثرها إشراقا"، في الوقت الذي غرقت فيه أوروبا في مستنقع من الفوضى العارمة، إن تلك الآثار واللمسات ربما لا تتجاوز تلك الصروح المعمارية الرائعة الجمال في غرناطة وقرطبة وغيرهما، إضافة إلى أسماء بعض الأسر والأماكن الجغرافية، وعدة آلاف من كلمات اللغة الإسبانية ذات الأصل العربي، هذا هو كل ما تبقى من تلك القرون الذهبية في تاريخ إسبانيا، بعد أن أطفأت الحروب والأحقاد ومحاكم التفتيش كل

بريقها، ويمكن أن نجد بين ثنايا رواية " ثلاثية غرناطة " للأديبة المصرية رضوى عاشور وصفا" مؤثرا" لملابسات انطفاء وهج الوجود الإسلامي في هذا البلد.

وبدلا" من أن ينظر الإسبان إلى طارق بن زياد وموسى بن نصير وطريف بن مالك وعبد الرحمن الناصر على أنهم رموز تاريخية مثيرة للفخر بالنسبة لبلدهم، أصبح هؤلاء يمثلون في الذاكرة الجماعية الإسبانية مجرد غزاة ومستبدين، شأنهم في ذلك شأن الرومان والوندال.

بعد النجاح في حسم الحرب الطويلة في جنوبي البحر المتوسط، تطلع المارد الإسلامي بعينيه إلى الأندلس (إسبانيا)، وبدا منذ الوهلة الأولى أن المضيق، الذي حمل اسما" عربيا" فيما بعد، لا يمكنه أن يحول دون امتداد الطوفان الإسلامي إلى هذه البلاد الغنية والجميلة، هذا الطوفان الذي بدا في وقت من الأوقات أنه وضع الجغرافيا على الرف، وهو يطوي الجبال

العالية الوعرة والصحارى الواسعة الفقيرة، ويجتاز الأنهار والبحار بكل يسر، وكأنها جداول ماء صغيرة.

كان العرب يطلقون على شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) اسم جزيرة الأندلس؛ لكون أغلب أجزائها محاطة بالمياه، فمن الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، أما من الشمال فيحدها خليج بسكي (غسقونيه)، إضافة إلى عدة مئات من الكيلو مترات التي تمتد خلالها سلسلة جبال البيرينيه (البرانس) المعروفة بوعورتها، ولا شك أن ابن عذاري لم يكن دقيقا" في وصفه لطول هذه الجبال بأنها " مسيرة يوم كامل ".

وقد اشتق العرب والبربر اسم الأندلس من كلمة (واندالوس)، وهي اسم قبائل الوندال أو الفندال الجرمانية التي اجتاحت القارة الأوروبية، واستقرت لفترة من الزمن في السهل الجنوبي الإسباني وأعطته اسمها، وذلك في القرن

**الخامس الميلادي، وقد استخدم المسلمون اسم (الأندلس) للدلالة على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم اقتصر هذا الاسم فيما بعد على الأجزاء التي احتفظوا بها أمام التوسع النصراني، إلى أن أصبح يطلق فقط على مملكة غرناطة الصغيرة في الجزء الجنوبي الشرقي من إسبانيا.**

**في عشية الفتح الإسلامي لم تكن إسبانيا أفضل حالا" من البلدان الأخرى التي وصلتها جحافل المسلمين، فقد كانت تعاني من فوضى مدلهمة، وأزمة سياسية عميقة، وفساد اجتماعي كبير، بحيث ظهر أن المسلمين قد جاءوا في الوقت المناسب؛ مما يفسر السهولة النسبية التي تم بها فتح البلاد، والازدهار غير المسبوق الذي عمها بعد ذلك، وقد ساهم الوباء وحالة الجفاف التي ألمت بها في سنوات (88 – 90 هـ) في تأزيم الأوضاع أكثر فأكثر، إذ يروى أن الوباء قضى على أكثر من نصف السكان.**

لقد كانت إسبانيا، وبعد أن خضعت لفترة طويلة للاحتلال الروماني بعد انهيار قرطاجنة، ثم غزاها الوندال، قد سقطت بيد القبائل الهندو أوروبية المعروفة باسم (القوط الغربيين)، التي كانت قد هاجرت إلى أوروبا، هرباً" من هجمات قبائل الهون، وطمعاً" في خيراتها، وحكمت شبه الجزيرة الإيبيرية لما يزيد عن مائتي سنة، وكان أبناؤها قد اعتنقوا النصرانية في القرن الرابع الميلادي على يد المبشر ولفلاس.

وقد كان المجتمع الإسباني في عهد القوط، وكما هو حال كل المجتمعات الأوروبية حينذاك، منقسماً" إلى عدة طبقات، تتفاوت إلى حد كبير في أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكانت هناك الطبقة العليا وصاحبة الثروة والنفوذ والأراضي الواسعة، الممثلة بالملك والأمراء والأشراف العسكريين، وطبقة رجال الدين الذين حولوا الكنيسة إلى أداة لاستعباد الرعية وإغراقها في الجهل والتخلف، والطبقة الوسطى الآخذة بالتآكل، ثم الطبقة الدنيا المؤلفة من أغلبية السكان، من الفلاحين الأشقياء وعبيد الأرض

المطحونين تحت رحى الفقر والظلم والاستغلال، لدرجة أنهم كانوا يعاملون كقطع الأثاث فيما يتعلق بالبيع والتوريث.

وكان من الطبيعي أن يكون أبناء الطبقتين الوسطى والدنيا مستعدين لقبول أي حكم أجنبي جديد يخلصهم من هذه الأوضاع المأساوية. وقد أثبتت أحداث التاريخ أن تآكل الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قلة غنية ومستبدة، تقابلها أغلبية مطحونة ومضطهدة، يعتبر مؤشرا" واضحا" على قرب انهيار هذا المجتمع أو قيام ثورة عارمة فيه.

كما كان يقيم في إسبانيا الكثير من الوثنيين، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من اليهود الذين تعرضوا للتنكيل من قبل السلطات الحاكمة؛ بسبب مؤامراتهم السياسية، واستغلالهم الاقتصادي للدولة، عبر الفوائد العالية التي يحصل عليها أغنياؤهم، من خلال إقراضهم الأموال للملك والأمراء الغارقين في البذخ والتبذير. وقد وجد اليهود أنفسهم مضطرين إلى ادعاء التنصر وممارسة شعائرهم الدينية سرا"، كما هو حالهم

في كثير من مراحل التاريخ، وإزاء ذلك كان من الطبيعي أن يقدم هؤلاء يد العون للمسلمين عند قدومهم إلى هذه البلاد، خاصة أنهم كانوا على اتصال بأبناء جلدتهم في الشمال الإفريقي، وعرفوا مقدار الحرية الدينية والعدالة الاجتماعية التي يتمتعون بها تحت سلطان المسلمين.

إن ما لا يستطيع أن ينكره أي باحث محايد ومخلص لمهنته، أن استيلاء العرب والمسلمين على (الشرق الأدنى) وشمالي إفريقيا وإسبانيا مثل في حقيقة الأمر بداية زمن ذهبي وسعيد بالنسبة لليهود المقيمين في تلك المناطق، وذلك على الرغم من أنهم باتوا محرومين من (نعمة) الربا!

كان النظام السياسي لدولة القوط الغربيين يستند على الملكية الانتخابية، ومع أن هذا النظام أتاح لإسبانيا فترات من الاستقرار، فإنه أدى في النهاية إلى وجود تنافس قوي بين النبلاء للوصول إلى سرير العرش، فعصفت الفوضى السياسية بالبلاد، وتدهورت أحوالها الاقتصادية. وفي حوالي سنة 710

م، وفي الوقت الذي أتم فيه المسلمون إخضاع شمالي إفريقيا، مات الملك وتيكا (يسميه العرب غيطشة)، الذي كان قد وصل إلى الحكم بطريقة غير شرعية، وحاول دون جدوى توريث الحكم لأبنائه، فسمى ابنه أخيلا (أو وقله في المصادر العربية) خلفا" له، وعينه حاكما" على طركونة وسبتمانيا الواقعتين في الشمال الشرقي، إلا أن دوق قرطبة رودريك أو رودريغو (يسميه العرب لذريق) بن تيوفريد منع أخيلا من العودة إلى العاصمة طليطلة، ونجح في الاستيلاء على العرش بمعونة بعض النبلاء، رغم عدم انتمائه للأسرة المالكة؛ مما أدى لنفور العديد من الأمراء منه، وعلى رأسهم ابن الملك السابق وأقاربه، فحلت في البلاد أزمة سياسية خطيرة بين أنصار الفريقين، مما تسبب في تشتت ولاءات الجنود، حيث لم تنته هذه الأزمة إلا بقدوم المسلمين.

وهكذا وجد رودريك نفسه محاطا" بالأعداء من كل صوب، وشرع في توطيد سلطته، غافلا" عن العملاق القادم من وراء آلاف الكيلو مترات، الذي بدأ يتطلع إلى بلاده بكل

لهفة من على الضفة الأخرى للبحر المتوسط، ويبدو أن هذا الملك كان مثالا" للحاكم الفاسد الغارق في الشهوات، وإن قصة فلورندا، التي سنشير إليها لاحقا"، هي أبرز دليل على ذلك، بل إن الفساد الخلقي والتخنث كان صفة شائعة آنذاك في البلاط الاسباني، قال تعالى: ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)) (الإسراء: 16).

كان المسلمون قد بدأوا بشن بعض الغارات الساحلية المحدودة ضد مملكة القوط منذ وقت مبكر، وفي غمرة انشغالهم بالفتح في إفريقية، وربما يعود السبب في ذلك إلى رغبتهم في ردع القوط عن القيام بأية محاولة لعرقلة مجهودهم الحربي هناك. ويبدو أن يهود إسبانيا كانوا متحمسين لتشجيع المسلمين على مد طموحاتهم إلى مملكة القوط، وتشير المصادر التاريخية إلى أنهم قاموا خلال سنة 694 م (أي قبل عبور طارق إلى الأندلس بأكثر من خمس عشرة سنة) بالتآمر على هذه المملكة بمساعدة من يهود

المغرب، وجرى التخطيط آنذاك للاستنجاد بالمسلمين، وقد انعقد مجمع ديني مسيحي للحكم في هذه المؤامرة، وأصدر مرسوما" يقضي بمصادرة أملاك اليهود، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة؛ بغية تنشئتهم على الدين النصراني.

لقد هدف المسلمون من خلال احتلالهم لإسبانيا إلى نشر الإسلام بالدرجة الأولى، غير أنه ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن إخضاع هذه البلاد كان بالنسبة لهم أمرا" ملحا"؛ وذلك لحماية تواجدهم في شمال إفريقيا، فلو كان رودريك قد نجح في توحيد الجبهة الداخلية لمملكته وتخلص من مناوئيه، لفكر بدون أدنى شك في التآمر على المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم بشتى السبل، مثلما فعل الروم، خاصة أن الوجود الإسلامي في إفريقية كان يهدد الحدود الجنوبية لمملكته بشكل مباشر، بعكس الدولة الرومية التي يفصلها عن هذه البلاد بحر شاسع. ومن ناحية أخرى، يمكننا الإقرار بأن البربر، الذين كانت لهم العديد من العلاقات التجارية مع إسبانيا، لعبوا دورا" لا يستهان به في لفت انتباه الفاتحين العرب إليها؛ لعلمهم

**بأهميتها وثرائها الكبيرين، واطلاعهم على حراجة الأوضاع السياسية والاجتماعية فيها، وقد برهنت الأحداث اللاحقة أنهم كانوا شديدي التحمس لفكرة فتح هذه البلاد، حيث كان لهم نصيب الأسد في ذلك.**

**وكان من بين العوامل التي شجعت المسلمين على غزو إسبانيا أن الروم كانوا منهمكين في تلك الفترة في الدفاع عن عاصمتهم نفسها، إذ أحكم المسلمون الحصار البري والبحري عليها، بحيث أنها كادت أن تسقط بيد مسلمة بن عبد الملك في سنتي (717 – 718 م)، وبالتالي فإن القسطنطينية لم تكن في موقف يسمح لها بتقديم العون إلى مملكة القوط، كما أن هذه المملكة لم يكن لها جيران أقوياء من الممالك المسيحية في غربي أوروبا، ولم تعمل هذه الممالك المتنازعة على توحيد جهودها لمواجهة المسلمين إلا بعد سقوط إسبانيا بيدهم، وعندما شرعوا في التوغل في (فرنسا) نفسها.**

كان الكونت يوليان (أو جوليان) النصراني الكاثوليكي، الذي ينسب بعض المؤرخين أصله إلى قبيلة غمارة البربرية، قد لجأ إلى سبتة وتحصن فيها، بعد أن طرده المسلمون من طنجة، وقد كان يدين بالولاء للقسطنطينية، وعندما فقدت هذه نفوذها في شمالي إفريقيا أخذ يتودد لجارته الشمالية مملكة القوط، فيما يبدو أنه محاولة ليحصل لمدينته على الحماية من الخطر الإسلامي، لكنه سرعان ما بدل موقفه بشكل مفاجئ، وشرع في التقرب من المسلمين، وإننا نعتقد أنه أدرك في نهاية الأمر أنه ليس بمقدور أحد أن يوقف عجلة التاريخ التي بدأت تسير لصالح المسلمين، فقرر أن يقف في صفهم قبل فوات الأوان، على أمل أن تدفعهم مساعدته لهم في فتح إسبانيا إلى الاعتراف به حاكما" (تحت دائرة نفوذهم) على سبتة، علما" بأن بعض المؤرخين يقولون أنه كان يهدف من وراء ذلك أيضا" إلى الاحتفاظ بسلطته المعنوية على نصارى إفريقية.

غير أن المؤرخين المسلمين، وعلى رأسهم المقري التلمساني صاحب كتاب (نفح الطيب)، يوردون سببا" آخر لتحول يوليان إلى صف المسلمين، وقد تحول هذا السبب إلى قصة أسطورية الطابع تعج بالتحولات الدرامية، حاول جرجي زيدان (1861 - 1914) الماسوني اللبناني الشهير، وصاحب الروايات التاريخية المبتذلة والمثيرة للجدل، بناء قصته (فتح الأندلس) عليها، ذلك أنه كانت العادة في تلك العصور أن يقوم حكام الأقاليم بإرسال أبنائهم وبناتهم إلى القصر الملكي في العاصمة بهدف صقل شخصياتهم، وتعلم عادات الطبقة الحاكمة، والتمهيد لإقامة علاقات مصاهرة بينهم، وكانت هذه العادة تنطوي على جانب آخر غير التقرب للقصر الملكي، إذ أن هؤلاء ليسوا في حقيقة الأمر سوى رهائن يضمن من خلالهم الملك إخلاص الحكام والأمراء التابعين له أو المتحالفين معه. وعندما شرع يوليان بالتقرب من رودريك عمد إلى إرسال ابنته فلورندا لتعمل كوصيفة في القصر الملكي في العاصمة طليطلة، ويبدو أن هذه الفتاة كانت فائقة الحسن فاعتدى الملك على شرفها، أثناء وجودها في حمامات دي

**لاكافا على نهر التاج، فعمدت إلى الكتابة لأبيها مخبرة إياه بما حدث، فما كان منه إلا أن سارع في القدوم إلى طليطلة وعاد بها إلى سبتة، متذرعا" بأن والدتها المريضة طلبت أن تراها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتشير الرواية إلى أنه عندما تقابل يوليان ورودريك طلب منه الأخير أن يرسل إليه صقورا" للصيد، فأجابه يوليان قائلا": " سأهديك صقورا" لم تر العين مثلها "، قاصدا" بذلك في قرارة نفسه جيوش المسلمين التي لا تقهر، حيث سارع يوليان إلى الاتصال بالأخيرين محرضا" إياهم على غزو إسبانيا.**

**والملاحظ أن المصادر الإسبانية لم تعترف بهذه الرواية، واعتبرتها نوعا" من الأساطير الأدبية الطابع التي وجدت طريقها إلى الأغاني الشعبية الإسبانية، وبغض النظر عن كون هذه الرواية صحيحة أم لا، فإنها لا تعدو كونها إحدى الحوادث الهامشية التي لا ينبغي لنا أن نمنحها حجما" يفوق حجمها الحقيقي في سياق الأحداث، فمن غير المنطقي أن يكون المسلمون غافلين عن وجود إسبانيا على الخارطة**

الدولية، وغير مكترثين بأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية، وغير معنيين بنشر الإسلام بين أهلها، ثم يأتي يوليان الحزين على شرفه الملطخ بالعار، فيحرضهم على احتلالها بهدف الانتقام من مغتصب ابنته. إن السياسة والحرب أكبر وأخطر وأعقد بكثير من أن تكون هذه الحوادث الصغيرة والشخصية الطابع محركا" أساسيا" وحاسما" لها، كما أننا نعتقد أن حاكما" بمثل عقلية يوليان لن يقوم بتسخير سياسة دويلته لتحقيق انتقام شخصي. والحقيقة أن التهويل من قيمة الأحداث الصغيرة، مع ما يواكبه من إهمال للأسباب والعوامل العميقة والكامنة، أو عدم إعطائها حقها من البحث والتمحيص، يعد أحد علامات القصور في البحث التاريخي. إننا لسنا في حاجة إلى تذكر حقيقة أن اختطاف هيلين لم يكن السبب الحقيقي الذي أدى إلى قيام حرب طروادة، كما أن اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند لم يكن العامل الرئيسي وراء اندلاع الحرب العالمية الأولى.

اقترح موسى بن نصير على الخليفة الوليد بن عبد الملك القيام بفتح إسبانيا، ويبدو أن أهل المشرق كانوا يظنون، لضحالة المعلومات الجغرافية في ذلك العصر، بأن هنالك بحرا" واسعا" يفصل هذه البلاد عن البر المغربي، فكتب الوليد إلى موسى يقول له: " لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال "، فرد عليه هذا: " ليس ببحر زخار، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما هو خلفه "، وقد كان موسى محقا" في ذلك، فقد كان المضيق الذي سماه العرب في البداية بحر الزقاق أو المجاز أو مضيق سبتة لا يمثل في حقيقة الأمر عقبة كبرى من الناحية العسكرية أو من ناحية الاتصال الحضاري، إذ أن عرضه في أضيق جهاته يبلغ حوالي 15 كيلو مترا" فقط، ولا شك أن هذا هو ما شجع المسلمين على العبور إلى إسبانيا، خصوصا" بعد أن تبين لهم ضعف الدفاعات الساحلية القوطية. وأخيرا" وافق الوليد على مواصلة الفتح باتجاه إسبانيا، وكتب إلى موسى يأمره بأن: " يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين " وفق ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب).

**في ذلك الحين كان الحزب المناوئ لرودريك قد بدأ يتطلع إلى التعاون مع المسلمين ويوليان للتخلص منه، وقد ركزت المصادر التاريخية الإسبانية على هذه النقطة، حيث تذكر أن أتباع هذا الحزب كانوا يطمحون إلى أن يرد المسلمون عرش طليطلة إلى ابن غيطشة، مقابل جزية سنوية تدفع لهم، وقد اتصلوا لهذه الغاية مع يوليان، الذي تحولت مدينته إلى ملجأ للفارين من بطش رودريك بعد أن أقره المسلمون حاكما" عليها، كما تذكر هذه المصادر أيضا" أن موسى بن نصير عقد معهم اتفاقا" سريا" بهذا الخصوص بوساطة من يوليان، ويقول مؤرخون آخرون أن أعداء رودريك كانوا يظنون أن المسلمين لا يهدفون إلا الحصول على الأموال والغنائم، وأنه ليس من ضمن أهدافهم ضم إسبانيا إلى دولتهم، وبصرف النظر عما يقال في ذلك فإن المسلمين على ما يبدو قد نجحوا في دبلوماسيتهم إلى أبعد حد، بحيث أقنعوا أعداء الملك القوطي بالوقوف إلى جانبهم في المعركة التي بثت الرعب في قلوب أبناء الغرب الأوروبي.**

شرع موسى في إرسال الدوريات الاستطلاعية إلى الساحل الجنوبي لإسبانيا؛ لجمع المعلومات ورصد حجم القوات القوطية المتمركزة هناك. وبهدف اختبار صدق يوليان في تحالفه مع المسلمين طلب منه موسى أن يقوم بشن غارة على تلك المنطقة، فقام بشن غارة في خريف سنة 709 م على الجزيرة الخضراء، التي سماها المسلمون بذلك لخصوبتها، حيث عاد منها محملا" بالغنائم، ثم أرسل موسى في رمضان سنة 91 ه (تموز 710 م) قوة استطلاعية بلغ تعدادها مائة فارس وأربعمائة راجل بقيادة طريف بن مالك النخعي، الملقب بأبي زرعة، والذي ينسبه أغلب المؤرخين إلى البربر، وقد نجحت هذه القوة في عبور المضيق على متن أربع سفن، والإغارة على بعض المناطق القريبة من الجزيرة الخضراء، ثم رجعت محملة بالغنائم والمعلومات الثمينة، ولا يزال المكان الذي نزل فيه طريف بجنوده يحمل اسمه إلى يومنا هذا.

والآن، وبعد أن تيقن موسى من ضعف الدفاعات الساحلية القوطية، قرر البدء بعملية الفتح التي كتم عالم

العصور الوسطى أنفاسه أمامها، وكان من حسن حظ المسلمين أن الملك القوطي كان مشغولا" آنذاك بإخماد ثورة البشكنس الغسقونيين في بمبلونة، على بعد مئات الكيلو مترات في أقصى الشمال الإسباني، ولعل هذا هو السبب الذي حال دون قيامه بإرسال الجيوش لحماية السواحل الجنوبية، خاصة بعد الغارات التي نفذها يوليان وطريف، وقد أشار المؤرخ الإسباني سافدرا إلى أن أعداء رودريك قاموا بإشعال هذه الثورة؛ لإلهائه عن الاستعدادات الحربية للمسلمين، وثمة سبب آخر يفسر فشل الإسبان في حشد قواتهم على وجه السرعة، وهو طبيعة الجيش الإسباني نفسه، وما يتسم به من ضعف في أسلوب التجنيد، وقد عزا المؤرخون ذلك إلى محاولة القوط تطبيق " المفهوم الجرماني للقبيلة أو الوحدة السياسية "، الذي لم تكن الأحوال السياسية والاجتماعية في إسبانيا ملائمة لاستخدامه.

قام موسى بتعيين نائبه على طنجة طارق بن زياد كقائد لجيش الفتح، وينتسب هذا القائد الفذ (وفق أغلب المؤرخين)

**إلى قبيلة نفزة البربرية، فاسمه الكامل هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورنجوم، غير أننا نجد أن بعض المؤرخين يرون أنه يعود إلى أصل فارسي همذاني، وأنه كان مولى لموسى بن نصير، بينما اعتقد آخرون أنه من أبناء أو موالي قبيلة الصدف اليمنية الأصل، وربما تكون النزعة القومية، التي تملكت بعض العرب خلال العهد الأموي، هي التي جعلتهم يتبنون هذا الاعتقاد، الذي شكك فيه المؤرخون.**

**وكان طارق قد خاض العديد من المعارك تحت راية موسى، حيث لفت انتباه الكثيرين إلى شجاعته وكفاءته، ومما تجدر الإشارة إليه أن تكليف بربري بمهمة خطيرة وفائقة الأهمية كفتح إسبانيا يعكس الكثير من الحقائق النيرة المتعلقة بسماحة الإسلام، وعالميته، وبعده عن العصبية والروح الاستعمارية، وقدرة أبنائه على استيعاب الشعوب الأخرى وضمها إلى بوتقته الحضارية والسياسية، وإننا نعتقد أن موسى بن نصير كان ذكيا" في تعيينه لقائد بربري على رأس الجيش الذي كان أغلبه في حقيقة الأمر من البربر، فمن بين**

سبعة آلاف جندي كان هنالك ثلاثمائة فقط من العرب، وإن اشتراك البربر، رغم حداثة عهدهم بالإسلام، في العمليات الحربية سهل دونما ريب عملية إدماجهم سياسيا" وروحيا" في النظام الإسلامي العالمي الجديد.

وفي الخامس من رجب سنة 92 ه (711 م)، أي بعد حملة طريف بأشهر قليلة، عبر طارق بقواته على عدة دفعات من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، في عملية استغرقت خمسة أيام، ومنذ ذلك الحين أصبح الجبل الصخري المشرف على المضيق، والذي كان يعرف بأعمدة هرقل (إضافة للجبل المقابل له على الساحل الإفريقي) أو جبل كالبي، يحمل، وإلى أيامنا هذه، اسم هذا القائد الكبير في جميع اللغات الحية، علما" بأن العرب أطلقوا عليه في البداية عدة أسماء أخرى هي الصخرة وفرضة المجاز وجبل الفتح، وقد قام يوليان بمرافقة طارق خلال الفتح ليكون له دليلا" ومستشارا"، كما أنه كلف رجاله بتسخير خبرتهم ومعرفتهم بإسبانيا في خدمة مشروع الفتح الإسلامي.

تشير الروايات التاريخية إلى أن جيش طارق قد تم نقله إلى الشاطئ الإسباني على متن سفن تجارية رومية، بقصد خداع جيش القوط، والملاحظ أن المصادر العربية لم تتحدث بإسهاب عن تفاصيل عملية العبور، مما خلق الكثير من اللغط والغموض حولها، إذ تشير بعض المصادر إلى أن طارق بن زياد أمر بإحراق السفن التي نقلت الجيش؛ بغية دفع الجنود إلى الاستبسال في القتال حتى الموت، لعلمهم بعدم وجود وسيلة لإعادتهم إلى إفريقية في حال اندحارهم أمام القوط، وقد أنكر عدد من المؤرخين هذه الواقعة، واستندوا في ذلك إلى عدة حقائق؛ فقد كانت السفن التي نقلت الجيش الإسلامي غير مملوكة للمسلمين وفق بعض الروايات، وإنما كانت أربع سفن تعود لحليفهم يوليان (وفق المقري وابن عبد الحكم)، أو لتجار من الروم (وفق ابن عذاري)، والجدير بالذكر أن المسلمين في إفريقية كانوا يملكون آنذاك أسطولا" حربيا"، ولو حدث فعلا" أن قدم يوليان لهم المساعدة الفنية في عملية العبور، الأمر الذي ينفيه بعض المؤرخين، فإن ذلك بدون ريب كان ـ فيما

نعتقد ـ بمثابة تعزيز لقواهم البحرية، خاصة أن سفنهم الحربية كانت مشغولة في حماية سواحل إفريقية الطويلة.

وبما أن سفن العبور لم تكن عائدة للمسلمين، فإن من غير المنطقي أن يأمر طارق بحرقها، والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين استندوا إلى فكرة غير دقيقة في نفيهم لاستخدام المسلمين لسفن يوليان، وهي أنهم ما كانوا ليغامروا بأرواح جنودهم عبر نقلهم على متن سفن عائدة لحليف الروم السابق، وفي نظرنا أن هذا الرأي صادر عن مؤرخين غير ملمين بفنون الحرب وتكتيكاتها وظروفها؛ لأنه كان من السهل على المسلمين الاستعانة بسفن يوليان وطواقم بحارتها دون أن يخشوا التعرض لأي غدر من قبلهم، وذلك من خلال تجريدهم من السلاح، وفرض الرقابة والحراسة عليهم، ومتابعة الإجراءات التي يقومون بها خطوة بخطوة.

ومن ناحية أخرى كانت هذه السفن بعد إتمام عملية العبور قد بقيت تتردد بين الشاطئين الإسباني والمغربي، حاملة

الأسلحة والإمدادات لجيش طارق، ومن المستحيل أن يقدم المسلمون، بعد الخبرة الحربية الطويلة التي حصلوا عليها عبر العقود السابقة، على حرمان قواتهم من الإمدادات والتعزيزات، التي كان من المحال أن تصل إليها إلا بالسفن، ومن المستحيل أيضا" أن يتبنوا إستراتيجية انتحارية بكل معنى الكلمة، ويضعوا أنفسهم في موقف لا يتاح لهم فيه الانسحاب في حال تعرضهم للهزيمة، ولا ننسى أنهم اضطروا مرارا" إلى الانسحاب خلال معاركهم في العراق والشام وإفريقية وغيرها، كما لاحظنا في الفصول السابقة، ومما لا يخفى على أحد أنه من غير المنطقي أن ننتظر من أي جيش من الجيوش أن يحافظ بشكل دائم على زخم تقدمه وهجومه خلال حرب واحدة وطويلة.

أضف إلى ذلك أن طارق بن زياد حرص حال وصوله إلى الشاطئ الإسباني على بناء قاعدة عسكرية؛ لاستخدامها في حماية مؤخرة قواته في حال تعرضه للهزيمة، واضطراره إلى الانسحاب والعودة إلى المغرب، مما يعني أنه لم يكن قائدا"

طائشا" ومغرورا" يعبث بأرواح جنوده، بل وضع خلال تخطيطه أسوأ الاحتمالات، وأعد الإجراءات الملائمة للتعامل معها.

ويرى بعض الباحثين أن من الأدلة على عدم صحة هذه الحادثة (إحراق السفن) أن القليل من المؤرخين قد اعترفوا بها، كما أن ابن خلكان والمقري لم يذكرا هذه الحادثة، ومن المعروف أن الأخير أسهب في الحديث عن تفاصيل فتح إسبانيا في كتابه (نفح الطيب)، وفي الحقيقة، فإن أغلب المؤرخين المعاصرين يميلون إلى إنكار صحة هذه الحادثة.

ورغم أن ظاهرة إحراق السفن بالطريقة التي تنسب لطارق قد تكرر حدوثها في التاريخ، حيث قام بها كل من أرياط الحبشي ووهرز الفارسي وكورتيز الإسباني، فإن طارق بن زياد وغيره من القادة المسلمين لم يكونوا في حاجة إلى وضع جنودهم أمام الأمر الواقع، ودفعهم إلى الإخلاص في القتال، ونبذ خيار التراجع والانهزام، عن طريق قطع طريق رجعتهم

**إلى بلادهم، فقد كان جنود طارق، شأنهم شأن جنود عقبة وموسى، يتمتعون بطاقة روحية ومعنوية نادرة المثيل، جعلتهم أشبه بأمواج البحر العاتية أمام أعدائهم.**

**يشير ابن الكردبوس في كتابه (الاكتفاء في أخبار الخلفاء) إلى أن المسلمين واجهوا مقاومة من قبل الإسبان، بقيادة الحاكم المحلي (تدمير)، فور عبورهم إلى شواطئهم، وأن المسلمين نجحوا في التخلص من هذه المقاومة من خلال تنفيذ الإنزال في منطقة غير متوقعة بسبب وعورتها، ومن ثم شن هجوم ليلي مفاجئ على المدافعين، وهكذا تم الاستيلاء على ما بات يعرف بجبل طارق، أما تدمير فقد فر إلى إشبيلية، واستنجد بالملك القوطي، الذي كان لا يزال غارقا" في صراعاته الداخلية في شمالي دولته الآيلة شمسها للغروب. ومن الملاحظ أن القوط لم يحرصوا على تأمين سيطرتهم على الشاطئ الشمالي للمضيق، ويبدو أن ذلك يعود إلى انشغال رودريك بالصراع في الشمال، كما سبق أن ذكرنا، وربما كان هذا الملك يعتقد أن المجهود الحربي الإسلامي ضد مملكته لن**

**يتجاوز بعض الغارات المحدودة والهجمات السريعة، كالتي قام بها يوليان وطريف.**

**وإذا كانت مسألة إحراق طارق للسفن قد أثارت الكثير من الجدل بين المؤرخين، فإن خطبته التي ألقاها أمام جنوده، فور وصوله بهم إلى الشاطئ الإسباني، كانت هي الأخرى من النقاط التي احتدم حولها الجدل، إذ يروى أنه ألقى في جنوده خطبة بليغة جاء فيها: " أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم. وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام "، وقد مال بعض الباحثين إلى إنكار نسبة هذه الخطبة بنصها الحرفي إلى طارق، استنادا" إلى كونه بربري اللسان لا يجيد التحدث بالعربية بهذه الفصاحة، إضافة إلى أن أكثر جنوده كانوا من بني قومه الذين ربما كان بعضهم لا يفقهون شيئا" من العربية، وإننا نميل إلى استبعاد إلقاء الخطبة بمضمونها الحرفي، ليس لأن صاحبها بربري اللسان، فمن المتوقع أن يقوم أحد معاونيه العرب بصياغتها له، وإنما لأن أغلب جنوده**

من البربر. وإننا نعتقد أن طارق بن زياد ألقى خطبته بلغة البربر، وأن المؤرخين الذين دونوها أخذوا معناها ونقلوه إلينا بعد أن صاغوه بفصاحتهم وبلاغتهم العربية.

أقام طارق وجنوده في (جبل طارق) عدة أيام، ولكي يكونوا في منأى من الغارات المفاجئة، أنشأوا في نفس المنطقة سورا" سموه بسور العرب، كما تم بناء قاعدة عسكرية ساحلية بالقرب من الجبل في منطقة الجزيرة الخضراء، وقد راعى طارق في اختياره لموقع هذه القاعدة أن تكون قريبة لشواطئ سبتة، التي كانت قوات المسلمين ستنسحب إليها في حال هزيمتها، ومن ناحية أخرى كانت القاعدة منعزلة عن الداخل الإسباني بسلسلة من المرتفعات، مما يجعل من الصعب اللحاق بقوات المسلمين في حال تقهقرها إلى الساحل، كما يتيح لهذه العبور إلى الساحل المغربي قبل أن تصلها القوات القوطية، وقد أُطلق على هذه القاعدة لاحقا" اسم جزيرة أم حكيم، نسبة إلى جارية لطارق كان قد تركها فيها

**قبيل مواصلته الزحف داخل إسبانيا، كما أقام طارق قاعدة أمامية أخرى كلف طريف بن مالك بقيادتها.**

**سارع رودريك إلى حشد جيوشه لمواجهة المسلمين، بعد أن بدا له بعد فوات الأوان أنهم يريدون هذه المرة عرشه ومملكته، وقد حاول أن يقنع خصومه الألداء من أتباع الملك السابق غيطشة، وعلى رأسهم قريبيه اللذين تسميهما المصادر أبة وششبرت، بأن يتحالفوا معه وينبذوا خلافاتهم السابقة معه، وقد أوهمه هؤلاء بالاستجابة له، بينما أضمروا الانقلاب عليه مع جنودهم في ميدان المعركة، بعد أن عقدوا اتفاقا" سريا" مع المسلمين. ويروى أن أقارب غيطشة، الذين كانوا قد تنبهوا لحقيقة أهداف المسلمين المتمثلة في ضم بلادهم لدولتهم، عرضوا عليهم أن يناصروهم في الحرب، على أن تعاد إليهم ضياع غيطشة التي بلغت ثلاثة آلاف ضيعة، وقد استجاب المسلمون لطلبهم هذا، وهكذا أصبحت إسبانيا في نظر زعمائها القوط مجرد ضياع وأملاك شخصية!**

**عندما علم طارق من جواسيسه بقيام رودريك بحشد جيوشه لمواجهته سارع إلى مواصلة التقدم شمالا"، وقد ورد في كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة أن طارق بن زياد كتب إلى موسى يطلب إمداده بالتعزيزات: " إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث "، وقد سارع موسى، الذي كان مسئولا" أمام الخليفة عن عملية الفتح، إلى إمداد طارق بخمسة آلاف جندي، فأصبح مجموع القوات الإسلامية المتمركزة في جنوبي إسبانيا إثني عشر ألفا".**

**قام طارق بإرسال قوة عسكرية يقودها عبد الملك بن عامر تقدمت بمحاذاة الساحل الجنوبي لإسبانيا؛ لحماية الجناح الأيمن لجيش المسلمين أثناء زحفه شمالا" لملاقاة جيش رودريك، وقد استطاعت هذه القوة أن تستولي على المنطقة الممتدة بين قرطاجنة الإسبانية والجزيرة الخضراء.**

**وفي الوقت نفسه تقدم طارق بقواته بين جبلي (سيليا دل بابا) و(سيرا دل رتين)، واقترب من بحيرة الخندق أو لاخندا،**

الممتدة لعدة كيلو مترات بموازاة ساحل البحر في منطقة كورة شذونة، ثم وصل إلى نهر البرباط (برباتي)، وعسكر على ضفته الجنوبية قرب قرية تدعى (لكة)، وقد كان موفقا" جدا" في اختياره لموقعه هذا؛ لأنه حمى بذلك جناحي الجيش بمانعين طبيعيين، هما البحيرة ومرتفعات رتين المجاورة، كما جعل ميدان المعركة مكانا" ضيقا"، فحرم الجيش القوطي من المناورة بتفوقه العددي، تماما" كما فعل الإسكندر المقدوني بجيش الفرس في إيسوس، وكما فعل خالد بن الوليد بجيش الروم في معركة اليرموك.

أما رودريك فيبدو أنه قرر أن يزج بجيوشه مرة واحدة في ميدان المعركة؛ لعلمه أن المعركة المرتقبة هي مسألة حياة أو موت بالنسبة لمملكته وله شخصيا"، وقد اختلف المؤرخون فيما إذا كان رودريك قد باشر بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد المسلمين منذ البداية، أم أنه أرسل عدة جيوش لهذه الغاية قبل ذلك، كما اختلف المؤرخون أيضا" حول حجم الجيش الذي حشده رودريك، فقد ذكر ابن خلدون أنه كان أربعين ألفا"، أما

**ابن خلكان فروى أن تعداده بلغ سبعين ألفا"، بينما يتحدث المقري عن مائة ألف جندي، ومهما كان الأمر فإن هذا الجيش كان جرارا" بكل معنى الكلمة بالنسبة لجيش المسلمين، وقد ضم معظم الطاقات العسكرية لدولة القوط، بدليل أنه، وعلى عكس فتوح بلاد الشام وشمالي إفريقيا وممتلكات الإمبراطورية الفارسية، كانت المعركة الأولى التي دارت بين المسلمين والقوط حاسمة بكل معنى الكلمة، وهي التي حددت بشكل نهائي وواضح مستقبل العمليات القتالية بين الطرفين، بحيث جعلت إتمام عملية الفتح سريعة وسهلة نسبيا"، بالمقارنة مع الفتوحات الأخرى.**

**واختلف المؤرخون كذلك حول المكان الذي دارت فيه المعركة الفاصلة بين الطرفين، مما يفسر الأسماء العديدة التي أطلقت عليها، حيث يرى ابن خلدون والمؤرخ الإسباني دي رادا الطليطلي أنها وقعت شمالي كورة شذونة بالقرب من شريش ووادي لكة، فسمياها لذلك بمعركة شريش أو معركة وادي لكة، علما" بأن الاسم الأخير هو الأكثر استعمالا" في**

أدبياتنا التاريخية، وفي المقابل يرى مؤرخون آخرون - من بينهم سافيدرا - أن المعركة احتدمت في جنوبي كورة شذونة عند وادي برباتي ومنطقة البحيرة، ويعتبر هؤلاء أن اسم (وادي لكة) ما هو إلا تحوير لاسم (وادي بكة) الذي كان يطلق أيضا" على وادي برباتي.

كان الجيش القوطي في حالة بالغة السوء، إذ كانت معنويات جنوده المختلفي الاتجاهات متردية، كما كان قائدا الميمنة والميسرة أبة وششبرت قد عقدا العزم على خيانة رودريك في أول فرصة تلوح لهما خلال المعركة، ويبدو أن الأخير لم يكن يتصور أبدا" أن يقدم ابنا جلدته على الغدر به؛ لأن الغزو الإسلامي يمثل خطرا" مباشرا" وجذريا" على مكانتهما السياسية في إسبانيا. ومن المثير للانتباه أن المؤرخ كليمان هيور يقول أن جيش رودريك كان يضم القليل من الفرسان، وأن أغلب جنوده كانوا مسلحين بالعصي والمقاليع، وإذا كان هذا صحيحا" فإن علينا أن نضع علامة استفهام كبيرة حول حجم الجيش الكبير الذي تحدث عنه المؤرخون؛

**لأن من غير المتوقع أن يتمكن رودريك من جمع جيش كبير الحجم، مع ما يتطلبه ذلك من تكاليف مادية، ثم لا يستطيع أن يسلحه بغير تلك الأسلحة البدائية.**

**لم يتح للإسبان أن يختاروا بأنفسهم مكان المعركة، التي ما أن بدأت في العشر الأواخر من رمضان سنة 92 ه (تموز 711 م) حتى تأخر جناحا الجيش القوطي، بتأثير من أبة وششبرت، ثم انسحبا من ساحة المعركة، بينما بقي القلب بقيادة رورديك مكشوفا" وصامدا" أمام الهجوم الإسلامي. وقد دار خلاف آخر بين المؤرخين حول المدة التي استغرقتها المعركة، فمنهم من قال أنها دامت ليومين أو ثلاثة، ومنهم من جعلها ثمانية أيام، ومهما كان الأمر فإن ذلك يعني أن المعركة كانت ضارية وحاسمة، بدليل أنها استغرقت عدة أيام، وإننا لذلك نؤيد المؤرخ أحمد مختار العبادي فيما ذهب إليه من أن ساحة المعركة شملت كامل منطقة كورة شذونة الواسعة، فربما تشرذم الجيش القوطي بعد انسحاب جناحيه إلى مجموعات صغيرة، أخذت تناوش المسلمين عدة أيام في تلك**

المنطقة إلى أن دحرت، وانسحب من تبقى منها إلى إستجة جنوبي غرناطة.

كما اختلف المؤرخون حول المصير الذي آل إليه رودريك، حيث يؤكد بعضهم أنه ألقى بنفسه في النهر طلبا" للنجاة من سيوف المسلمين، فابتلعته المياه ولم يعثر له على أثر، إلا على حصانه الغارق في الوحل وعليه سرج ذهبي مزين بالزبرجد والياقوت، إضافة إلى أحد خفيه المصنوع وفق ما روى ابن الأثير من الذهب والدر والياقوت والزبرجد! غير أن بعض الروايات تشير إلى أنه نجح في الفرار بجلده، حيث اتجه شمالا" وواصل القتال ضد القوات الإسلامية، إلى أن لقي مهلكه في معركة السواقي سنة 713 م جنوبي سلمنكة، ولعل ما يستند إليه أنصار هذا الرأي أنه يوجد إلى يومنا هذا في فيزيو شمالي البرتغال قبر منسوب إليه، غير أن هناك من يشكك بحدوث معركة السواقي من الأساس.

**بعيد المعركة لم يستغرق استيلاء الجيوش الإسلامية على أغلب شبه الجزيرة الإيبيرية سوى سنوات قليلة، رغم اتساع مساحتها، وصعوبة تضاريسها، وقسوة مناخها، والأسوار المنيعة لبعض مدنها، مما يجعلنا نعتقد أنه بعد معركة وادي لكة غدت أبواب هذه البلاد مفتوحة على مصاريعها أمام المسلمين، ولم تعد المقاومة القوطية منظمة كمقاومة دولة.**

**سارع القوط بعد الهزيمة المريرة التي لاقوها إلى جمع فلول جيشهم، بالإضافة إلى بعض التعزيزات التي أرسلتها مختلف المدن، قرب إستجة، على الضفة الشرقية لنهر شنيل أحد روافد نهر الوادي الكبير، وقد تمكن المسلمون من إلحاق هزيمة قاسية بها، واستولوا على قلعة إستجة، ليصبح استحواذهم على إسبانيا بعد هذه المعركة أيسر منالا"، خاصة بعد أن تشتت المجهود الحربي للأعداء، ووجدت كل مدينة إسبانية نفسها مضطرة للقتال منفردة ودون تنسيق مع المدن الأخرى.**

**ثم تابع طارق تقدمه شمالا" قاصدا" العاصمة طليطلة، ومحتلا" في طريقه مدينة جيان، وأرسل خلال ذلك جزءا" من جيشه للعمل على عدة محاور جانبية، فاتجهت قوة قوامها 700 فارس بقيادة مغيث بن الحارث الرومي مولى عبد الملك بن مروان إلى قرطبة فاحتلتها، مع ملاحظة أن بعض المصادر ذكرت أن هذه المدينة احتلت على يد طارق نفسه، وعندما وصل المسلمون إليها كان معظم أهلها قد هجروها واتجهوا إلى طليطلة، ولم يبق فيها سوى أميرها ومعه 400 جندي تقريبا"، تمركزوا جميعا" في حصن المدينة، ونجح المسلمون في مباغتتهم عبر تسلق سور الحصن واقتحامه في يوم شديد البرد والمطر، فاحتلوا المدينة، بينما تحصن الأمير وجنوده داخل الكنيسة الموجودة غربي المدينة لنحو ثلاثة أشهر، ثم اندحروا على أيدي المسلمين في أواخر سنة 711 م، وفي نفس تلك الفترة احتلت قوة أخرى منطقة البيرة، واتجهت قوة يقودها زيد بن قاصد جنوبا"، حيث استولت على مالقة وغرناطة.**

ومن المثير للاهتمام أن يهود إسبانيا ساعدوا قوات المسلمين خلال تقدمها، وقد حرص هؤلاء على أن يشكلوا منهم قوات محلية صغيرة لفرض السيطرة على المناطق المفتوحة؛ لكي يصبح من المتاح استخدام أغلب مقاتلي الجيش الإسلامي في مواصلة عملية الفتح، غير أن علينا في المقابل أن نلاحظ أن بعض المؤرخين بالغوا في حجم المساعدة التي قدمها اليهود للفاتحين المسلمين.

وأخيرا" وصل جيش الفتح بسرعة مثيرة للدهشة إلى طليطلة، المدينة الساحرة الجمال والمعروفة بعمائرها الجميلة، وكان أهلها قد فروا منها، فوجدها المسلمون خالية تقريبا" إلا من بعض اليهود، وقد تحدثت المصادر التاريخية بشيء من التفصيل عن الكنوز والنفائس التي عثر عليها المسلمون في قصور المدينة وكنائسها.

ثم تقدم طارق شمالا"، ووصل إلى وادي الحجارة واستولى على المائدة الأسطورية المعروفة زورا" وبهتانا"

**باسم مائدة سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ذات الـ 365 رجلا"، والمصنوعة من الذهب والفضة والزبرجد واللؤلؤ والياقوت، ويقال أن بعض الأساقفة كانوا قد هربوها من الإسكندرية عشية فتح مصر؛ لكيلا تقع في أيدي المسلمين.**

**لا نعرف إن كان طارق مخيرا" أم لا في شأن الإستراتيجية التي اتبعها في فتح إسبانيا، فقد تقدم شمالا"، وأرسل بعض قادته لاحتلال بعض المدن على المحاور الجانبية، غير أن اتساع البلاد، وتفرق أعدائه في عدة مدن، لم يتح له ترسيخ السيطرة الإسلامية على كثير من مناطقها الشرقية والغربية، ويبدو أنه كان حريصا" على الوصول إلى طليطلة في أسرع وقت ممكن؛ لكي يقضي على إرادة المقاومة وعزيمة القتال لدى القوط، إلا أنه في وضعه هذا بات محاطا" بالأعداء من كل صوب، وأصبح في مقدور أية قوة قوطية جريئة أن تهدد أجنحة جيشه.**

وقد كان طارق مدركا" لموقفه هذا، خاصة بعد أن اقترب فصل الشتاء القاسي، بما يحمله من صعوبات إدارية وتعبوية، وبعد أن استطالت خطوط مواصلاته وغدت ضعيفة، وأُرهق الجيش على أثر التقدم السريع والمعارك المتتالية، كما بات مثقلا" بالغنائم الثمينة، أضف إلى ذلك أن حجم الجيش لم يعد كافيا" لمواصلة الفتح، وحماية الأجنحة، وتأمين السيطرة على المناطق المفتوحة؛ لذلك سارع طارق إلى الاستنجاد بقائده موسى في الوقت المناسب، وقبل أن يحل بالمسلمين ما أصابهم في بعض مراحل فتح إفريقيا، هذه هي الحقيقة، وكل ما يقال عدا ذلك ما هو إلا هراء في هراء، أنتجته بعض الأقلام الجاهلة أو المغرضة.

فقد حاول بعض المؤرخين الإيحاء بأن صراعا" شخصيا" احتدم بين طارق وموسى، وأن الأخير شعر بالحسد وخشي أن ينسب فتح الأندلس إلى طارق، فسارع إلى التوجه على رأس جيش إلى هناك، رغم كبر سنه، ليظفر بنصيب من الكعكة، رغم أن هذا يتنافى مع ما عرف عن موسى من صفات

أخلاقية أهلته لقيادة أحد أهم جيوش الفتوحات الإسلامية، والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين كانوا على الدوام يتعمدون شخصنة أحداث التاريخ، والتركيز على الخلافات بين القادة المسلمين وتضخيمها، وإضافة أبعاد غير حقيقية لها، ويسمحون لأنفسهم أن يقرروا ما في دواخل النفوس من عواطف واتجاهات لا يعرفها إلا البارئ عز وجل، وفي نهاية الأمر، ليس من حق أحد أن يفترض إلا نظافة القلب وحسن النية لدى تناوله سيرة أي شخص بمكانة موسى وطارق، ما لم تثبت الأدلة التاريخية المؤكدة عكس ذلك.

وقد زعم الحميدي في كتابه (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس) أن طارق بن زياد غزا الأندلس دون الحصول على إذن من قائده موسى، الذي كتب إليه يتوعده، ويأمره بالثبات في مكانه، وعدم مواصلة التقدم حتى يوافيه في طليطلة، وإن هذا الزعم بالغ السخف، فليس من المعقول أن يقدم طارق على هذا الأمر وهو ينتمي إلى مؤسسة عسكرية لا مثيل لها في النظام والانضباط والطاعة، كما أن جميع الحقائق

السياسية والعسكرية تنسف هذا الزعم بشكل لا مجال فيه للشك.

جمع موسى 18 ألفا" أغلبهم من العرب القيسية واليمنية، ومن بينهم عدد من التابعين، وعبر بهم المضيق في رمضان 93 ه (حزيران 712 م)، أي بعد مضي سنة واحدة تقريبا" من بدء الفتح، وقد مكث في إسبانيا حوالي سنتين كان خلالهما بمثابة المتمم والمعزز لعملية الفتح، علما" بأنه كان يحلم بمواصلة الزحف عبر أوروبا وإسقاط القسطنطينية من الغرب، ليحقق ما بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن الملاحظ أن عملياته الحربية في هذه البلاد حامت حولها العديد من القصص المثيرة التي يشبه بعضها الأساطير.

إن بعض المؤرخين العازفين على نغمة الصراع الشخصي بين طارق وموسى بلغ بهم الأمر لدرجة أنهم زعموا أن الأخير، وحال وصوله إلى الأندلس، أبى – لغروره وعزة نفسه - أن يسير على نفس الطريق التي تقدمت عليها قوات

طارق، ولا يغيب عن عاقل أن هذا الزعم بعيد عن الصحة بعد السماء عن الأرض، فموسى لم يذهب إلى بلاد الإسبان ليتمتع وجنوده بمناظرها الطبيعية الخلابة، إنه أراد أن يستكمل فتح المناطق التي لم تصلها قوات طارق خاصة الغربية منها، ولم يكن من المنطق أبدا" أن يترك الأعداء يسرحون ويمرحون على جوانب المناطق المفتوحة، ويتقدم في مناطق سيطرت عليها قوات طارق! ويمكننا القول أن حملة موسى كانت ضرورية جدا"، ليس لإتمام إخضاع إسبانيا فقط، وإنما أيضا" للحفاظ على الإنجازات التي حققها جيش طارق، ومن الملاحظ أنه وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي قام بها طارق وموسى في سبيل فتح هذه البلاد نجد أنهما غادراها دون أن يتما فتح بعض أنحائها، فكيف سيكون الحال لو أن موسى لم يسارع بالعبور بقواته إليها؟ لقد كان من الممكن أن يفشل مشروع الفتح برمته، ويتكبد المسلمون هزيمة مريرة تقذف بهم إلى الساحل الإفريقي.

ولو نظرنا إلى الخارطة، وتتبعنا خط التقدم الذي سار عليه كل من طارق وموسى، لأدركنا على الفور أنهما طبقا معا" إستراتيجية تتسم بالذكاء وبعد النظر، تمثلت في الالتفاف حول مراكز المقاومة وتطويقها، قبل الالتقاء في طليطلة لمتابعة الزحف ضمن خطة موحدة.

لقد اتخذ موسى محور تقدم يقع غربي المحور الذي سلكه طارق؛ وذلك ليفتح تلك المدن والمناطق التي تركها هذا على شماله، فاستولى على شذونة، ثم تقدم شمالا" إلى قرمونة المعروفة بحصانتها، وفرض الحصار عليها، وقد لجأ إلى خدعة شبيهة بخطة (حصان طروادة) في سبيل فتحها، إذ تظاهر حلفاؤه من جنود يوليان أنهم من القوات القوطية المطاردة من قبل المسلمين، ففتح أهالي المدينة بابها المعروف باسم باب قرطبة لهم، فقاموا ليلا" بالاستيلاء على مدخل المدينة، وسهلوا للمسلمين الدخول إليها واحتلالها.

وبعد ذلك زحف المسلمون بقيادة موسى غربا" إلى إشبيلية، مدينة الرومان القديمة، وحاصروها لعدة أشهر، ثم ظفروا بها بعد أن هرب منها جنودها إلى باجة، ثم فرضوا الحصار على ماردة ذات الماضي العريق، وقد قام أبناء هذه المدينة بمواجهتهم خارج أسوار المدينة ثم عادوا إليها، وفي محاولة منهم لاحتلالها استخدم المسلمون دبابة تقدم المقاتلون تحتها حتى وصلوا إلى أحد الأبراج، وشرعوا في نقبه، فعانوا أثناء ذلك كثيرا" بسبب قساوة الصخور، وخلال ذلك نجح مقاتلو المدينة في قتل الكثير منهم، فأطلق المسلمون لاحقا" على ذلك البرج اسم برج الشهداء.

وأخيرا"، وبعد عدة أشهر من الحصار، بدأت وفود المدينة تقدم إلى موسى للتفاوض معه على استسلامها، وثمة قصة طريفة في هذا الصدد، إذ أن أعضاء الوفد عندما زاروا موسى في المرة الأولى، وفاوضوه دون جدوى، وجدوه شيخا" كبيرا" غزا الشيب شعره ولحيته، وعندما عادوا إليه في المرة التالية كان قد خضبهما بالحناء، ويبدو أنهم لم يكونوا

يألفون ذلك في بلادهم، فعجبوا منه أشد العجب، ثم وعندما حضروا إليه مرة أخرى كان قد سودهما، مما أثار دهشتهم، فعادوا إلى قومهم وقالوا لهم: " إنما تقاتلون أنبياء يتشببون بعد المشيب، قد عاد ملكهم حدثا" بعد أن كان شيخا" "، وإذا كانت هذه القصة صحيحة فإنها تدل على المهارة الفائقة التي أدار بها هذا القائد الحرب النفسية ضد أعدائه.

وبعد استسلام ماردة في مستهل شوال سنة 94 ه عاد موسى لإخضاع تمرد إشبيلية، الذي استشهد فيه ثمانون من جنود الحامية الإسلامية، كما قام بفتح لبلة وباجة، فأخضع بذلك الجزء الأكبر من غربي شبه الجزيرة الإيبيرية الذي كان يضم دولة البرتغال الحالية.

وقد اختلف المؤرخون في المكان الذي التقى فيه موسى وطارق، ففي حين يؤكد بعضهم أنهما اجتمعا في طليطلة، يتحدث الرازي عن خروج طارق من طليطلة لملاقاة موسى قرب طلبيرة، أما الطبري فيذهب إلى أنهما تقابلا في قرطبة،

**ومهما كان الأمر فإنهما قضيا شتاء سنة 95 ه (713 م) في الاستعداد لمواصلة الفتح معا" مع حلول فصل الربيع.**

**وقد كان بقاء طارق في موقع القيادة، ومشاركته موسى في العمليات اللاحقة، وتكليف هذا له بمهام حربية منفصلة، دليلا" لا لبس فيه على أن ما قيل عن غضب موسى عليه، وإقدامه على إلقائه في السجن، وضربه بالسوط، وحلق شعر رأسه، لا يتجاوز كونه أباطيل لا أساس لها من الصحة، وإن كنا نعتقد أن موسى لم يوافق على اندفاع طارق شمالا" دون التحسب لمخاطر تركه العديد من مراكز الأعداء وجيوبهم على جناحي جيشه، وأنه أنبه على ذلك، كما يقوم بذلك أي قائد تجاه أحد مرؤوسيه، فالخلاف بينهما في هذه الحالة تمحور حول سياسة الفتح وإستراتيجياتها، ولم يحمل في طياته على ما نعتقد أي بعد شخصي.**

**تابع موسى وطارق التقدم شمالا" نحو جبال البيرينيه، التي تفصل إسبانيا عن بلاد الغال، واستولى المسلمون خلال**

ذلك على سرقسطة وضواحيها ووشقة وليون وأسترقه، كما زحفوا شرقا" إلى برشلونة وسيطروا عليها، وقد توغلوا كذلك في بلاد البشكنس الوعرة ووصلوا إلى الساحل الشمالي، حيث التقوا هناك بقوم شبههم ابن عذاري بالبهائم، فيما يبدو أنه إشارة إلى حياتهم البدائية الغارقة في الجهل والتخلف والهمجية، وأخيرا" امتدت فتوحات المسلمين إلى لاردة وقادس، ولم يبق خارج سيادتهم سوى بعض الجهات الشرقية والشمالية الغربية.

لم يستطع المسلمون أن يخضعوا الأجزاء الشمالية الغربية من إسبانيا، المتمثلة بإقليم أشتوريش في منطقة جليقية (غاليسيا)؛ بسبب جبالها العالية ومناخها الشديد البرودة، وقد استغلت ذلك بعض فلول الجيش القوطي بقيادة بلاي، فلجأت إلى تلك الجبال الثلاثة الشاهقة المعروفة لدى القوط باسم قمم أوروبا، وقد حاول المسلمون مطاردة هذه الفلول، فحاصروها في القمة الغربية من تلك الجبال، والتي تدعى أونجا، وفي هذه القمة اختبأ بلاي وجنوده داخل أحد

الكهوف، واتخذوا من عسل النحل الذي كانوا يجدونه في الشقوق الصخرية غذاءا" لهم، وقد أطلق المسلمون على هذا الكهف اسم (صخرة بلاي)، ويبدو أنهم لم ينجحوا في تسلق القمة واحتلال الكهف، كما أنهم استهانوا بأمر هذه الشرذمة الصغيرة، وهم الذين طووا آلاف الكيلو مترات تحت رايتهم وأذلوا أعتى الجيوش، فانسحبوا عنها قائلين: " ثلاثون علجا" ما عسى أن يجيء منهم؟ ".

لقد تحدثت المصادر الإسبانية عن انسحاب المسلمين من أمام كهف أونجا (كوفادونجا) باعتباره نصرا" وطنيا" كبيرا"، أحاطته ببعض الأساطير، فقد اعتبر الإسبان بلاي الذي مات سنة 737 م بمثابة أحد القديسين، وبنوا في أونجا صرحا" كبيرا" لا يزالون يزورونه إلى أيامنا هذه لاستذكار ذلك المجد الرفيع! أما المصادر الإسلامية فقد اعتبرت أن المسلمين بعدم إصرارهم على القضاء على أولئك (العلوج) قد دفعوا الثمن غاليا"؛ لأن ذلك الكهف وتلك المنطقة الوعرة التي أهملوها واستهانوا بأمرها، لفقرها وقلة سكانها، شكلت فيما

بعد منطلقا" للمقاومة الإسبانية ضدهم، كما تأسست فيها سنة 718 م نواة لدولة نصرانية متطرفة هي مملكة أشتوريش، التي استولت على مدينة ليون، وسيطرت على كامل المنطقة الشمالية الغربية، ثم أخذت فيما بعد تستولي على أراضي المسلمين قطعة قطعة، مستغلة بعدهم عن دينهم وانشغالهم بخلافاتهم، إلى أن قضت تماما" وبشكل مأساوي على وجودهم السياسي في إسبانيا سنة 1492 م.

ويمكننا القول بأنه لو نجح المسلمون في القضاء على عصابة أونجو، وأحكموا سيطرتهم على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية، لربما نجحوا في الاحتفاظ بها وتحويلها إلى دولة ذات طابع عربي إسلامي إلى الأبد؛ لأن سواحلها وسلسلة جبال البيرينيه التي تفصلها عن باقي أوروبا ستجعل من الصعب جدا" على النصارى الإسبان شن عمليات مقاومة منظمة ضد وجودهم فيها.

عندما وصل موسى إلى سلسلة جبال البيرينيه كان يفكر بشكل جدي بمتابعة الفتح شمالا"، واختراق المناطق التي تتألف منها في عصرنا الحاضر دولة فرنسا، وتشير الروايات إلى أن الخليفة الوليد لم يوافق على هذا؛ لخشيته ربما من أن يؤدي استمرار التوسع الإسلامي على هذه الصورة إلى إلحاق هزيمة شاملة بالجيوش الإسلامية، وقد أرسل إلى موسى يأمره بالقدوم مع طارق إلى دمشق.

ولى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس، وكلفه بفتح ما تبقى من أنحائها الشرقية، ثم عاد إلى القيروان لينظم أمورها ويعهد إلى ابنه عبد الله بحكمها، وبعد ذلك قفل راجعا" إلى دمشق، التي كان قد غادرها شخصا" مغمورا"، ليعود اليها الآن بعد أن بلغ صيته الآفاق، وأصبح اسمه أشهر من نار على علم، وقد حمل معه الكثير من الكنوز والغنائم التي كانت مائدة سليمان عليه السلام المزعومة من بينها، وذكر بعض المؤرخين أن هذه الكنوز والغنائم حملت على 114

**عجلة، ويقول الليث بن سعد: " لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام ".**

**أثناء رحلة موسى إلى الشرق كان الخليفة مريضا"، وقد آلت شمس حياته إلى المغيب، وعندما وصل إلى فلسطين قابله مبعوث من ولي العهد الأمير سليمان بن عبد الملك، وطلب منه أن يتأخر في الوصول إلى دمشق، على أمل أن يموت الخليفة خلال ذلك ويرث سليمان حكمه، فيصبح في مقدوره التصرف بغنائم إسبانيا على هواه، غير أن موسى لم يوافق على طلبه، ودخل دمشق بينما كان الوليد يحتضر، فدفع ثمن ذلك غاليا" جدا".**

**وما أن آلت مقاليد الخلافة إلى سليمان سنة 96 ه (714 م) حتى انتقم من موسى أشد انتقام، تماما" كما فعل مع محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وغيرهما من قادة المسلمين، فقد كان هذا الخليفة حاقدا" على كل ما يمت لعهد الوليد بصلة، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن بذور سقوط الحكم الأموي قد**

نمت في عهده على وجه الخصوص، إذ كان محبا" للترف ومغرما" بالطعام والنساء.

لقد عمد سليمان إلى اضطهاد موسى بن نصير، واتهامه باختلاس أموال الفتح، كما صادر ثروته، ثم دعاه لمرافقته إلى الحج، وتروي المصادر أنه مات في الحجاز، ويبدو أن الخليفة كان مدركا" لمقدار الشعبية الكبيرة التي تمتع بها الأخير، فأراد إقصاءه عن موطن مجده في إفريقية وإسبانيا، رغم أنه كان بإمكانه أن يبقى هناك، ويحاول أن يتبنى لنفسه مشروعا" انفصاليا"، مستغلا" في ذلك الخلافات بين القبائل العربية التي طغت على كافة مراحل التاريخ الأموي، ويروى في هذا الصدد أن يزيد بن المهلب سأل موسى عن السبب الذي دفعه إلى القدوم إلى الشام، وعدم بقائه في المغرب حيث مقر سلطانه وموطن نفوذه، فرد عليه: " والله! لو أردت ذلك، لما نالوا من أطرافي طرفا"! ولكني آثرت الله ورسوله! ولم أر الخروج عن الطاعة والجماعة! ".

**أما طارق بن زياد، فبعد ذهابه إلى الشام برفقة موسى شاب الغموض مصيره أيضا"، ويقال أنه مات فقيرا" ومنسيا" سنة 720 م، بعد أن حرم من كل ثمار انتصاراته، فسبحان من بيده الملك، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء!**

**ويبدو أن المسلمين لم يكونوا قد اطمأنوا تماما" إلى سيطرتهم على إسبانيا بعد مغادرة موسى وطارق إلى الشام، ولا شك أن تجاربهم المريرة في شمالي إفريقيا قد أعطتهم درسا" كبيرا" حول احتمالية انقلاب الأوضاع السياسية والحربية رأسا" على عقب بين عشية وضحاها، فنجد أن الوالي الجديد عبد العزيز آثر أن يجعل من إشبيلية مركزا" لحكمه؛ لقربها من السواحل الجنوبية.**

**وقد استكمل هذا الوالي فتح الأجزاء المتبقية من شبه الجزيرة الإيبيرية، باستثناء المناطق الوعرة في الشمال الغربي، حيث اختلف المؤرخون حول ما إذا كان هو من فتح أوريولة (مرسية حاليا") أم طارق بن زياد، فبينما يقول**

**بعضهم أن جيش طارق وفور احتلاله غرناطة تقدم إلى أوريولة وضواحيها وفتحها، بعد أن هرب بعض أهلها الى أربولة، يؤكد آخرون أن هذه المدينة قد فتحت لاحقا" على يد عبد العزيز خلال حملة موسى أو بعد مغادرته الأندلس، وهم يسوقون قصة طريفة في هذا الشأن؛ ذلك أنه عندما فرض عبد العزيز الحصار على أوريولة المعروفة بحصانتها وجد حاكمها تيودومير (يسميه المسلمون تدمير) نفسه غير قادر على الصمود؛ بسبب قلة عدد جنوده، فلجأ إلى خدعة ذكية لإيهام المسلمين أن عددهم أكبر مما هو في حقيقة الأمر، إذ أمر النساء بحلق شعورهن والوقوف مع جنوده القلائل على أسوار الحصن والرماح في أيديهن، وقد انطلت الخدعة على عبد العزيز فوافق على التفاوض مع تيودومير، الذي قابله بنفسه متقمصا" شخصية أحد أنصاره، وقد أسفرت المفاوضات بينهما عن تسليم المدينة، مع الاعتراف بتيودومير حاكما" عليها وعلى بلنسية تحت راية المسلمين، وتعهد هذا بدفع الجزية، وبأن لا يتعاون مطلقا" مع أعداء المسلمين في الشمال.**

استمر الوجود الإسلامي في إسبانيا ما يزيد عن خمسة قرون، تحولت فيها هذه البلاد الجميلة والغنية إلى أحد أبهى المراكز الحضارية في العصور الوسطى، بعد أن أزيل النظام الاجتماعي والاقتصادي الجائر الذي كان قائما" على الاستبداد والاستغلال، وأصبح الإسبان يعيشون في ظل أجواء يسودها العدل والتسامح والحرية البناءة، في حين غرقت بلاد الغال والجرمان والسكسون والسلاف في دوامة هائلة من الجوع والجهل والاستبداد الديني والاستغلال الإقطاعي، حيث احتاجت لعدة قرون قبل أن تنعتق منها، ويروى في هذا الشأن أنه في الوقت الذي وصل فيه عدد سكان بعض المدن الإسبانية إلى ما يزيد بكثير عن النصف مليون نسمة، كان عدد السكان في أكبر مدن فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترة لا يتجاوز الخمسين ألفا".

بلغت الأندلس قمة عزها وذروة مجدها في العهد الأموي الذهبي الذي دشنه عبد الرحمن الداخل، الملقب بـ

(صقر قريش)، بعد سنوات قليلة من سقوط الخلافة الأموية في دمشق، ثم ازدادت حضارتها تألقا" في أيام أول خلفائها الناصر لدين الله عبد الرحمن الثالث (القرن العاشر الميلادي)، ومثلت بالنسبة لأوروبا الشعلة الأولى التي قادتها شيئا" فشيئا" إلى عصر النهضة، بعد أن مكثت في سراديب الجهل والفوضى لبضعة قرون.

ثم أصاب الأندلس ما أصاب غيرها من بلدان المسلمين من ضعف وانحلال، فتمزقت إلى ممالك وإمارات متنازعة، وقد كان ابن خفاجة دقيقا" جدا" في وصفه لأحوالها السياسية آنذاك:

مما يزهدني في حب أندلس
ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا" صولة الأسد

**ذلك أن مدنها سقطت لقما" سائغة بيد الإمارات النصرانية الواحدة تلو الأخرى، بدءا" بطليطلة سنة 1085 م، وانتهاء بغرناطة سنة 1492 م، ليبدأ بذلك عهد محاكم التفتيش السيئة الصيت التي أخرجت (لذريق) من قبره!**

**ومما يؤسف له، ذلك الإهمال الكبير الذي قابل به مؤرخونا تاريخ الأندلس بعد سقوطها، خاصة ما يتعلق منه بالمصير الأسود الذي لاقاه أهلها على امتداد عشرات السنين التي تلت سقوط غرناطة.**

رجوع للفهرس

# الفصل السابع
# الطريق إلى الهند والصين

باضمحلال الإمبراطورية الفارسية تحت سنابك خيول المسلمين، وانضواء أقاليمها المترامية الأطراف، وشعوبها المتعددة الأصول، تحت راية الدولة الفتية في المدينة المنورة، في سرعة ندر مثيلها في التاريخ، بات المجال مفتوحا" لمواصلة الفتوحات باتجاه الهند وبلاد ما وراء النهر.

والملاحظ أن أحداث الفتنة الكبرى التي عصفت بالدولة الإسلامية، في الفترة التي تلت استشهاد عثمان رضي الله عنه، قد دفعت المسلمين إلى تأجيل مشاريع الفتوحات، سواء في الشمال الإفريقي أو شرقي بلاد فارس أو آسيا الصغرى.

لم تكن بلاد السند والهند مجهولة بالنسبة للعرب إبان العصر الجاهلي؛ فقد كانت تجارتها تمر عبر بلاد العرب عبر

**طريقين تجاريين رئيسيين، كما قام التجار العرب بزيارتها عن طريق البحر والاختلاط بأهلها.**

**والسند، التي باتت في معظمها اليوم جزءا" من دولة باكستان، نظر إليها منذ القدم على أنها المدخل الشمالي الغربي لشبه القارة الهندية، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى نهر السند (الإندس) ودلتاه الخصيب.**

**لقد طمح المسلمون إلى ضم بلاد السند منذ وقت مبكر، وحال احتلالهم للأقاليم الفارسية المجاورة لها، خاصة منطقة مكران، ففي عهد عمر رضي الله عنه، وتحديدا" في سنة 15 ه، قام والي البحرين وعمان عثمان بن أبي العاص بإرسال أسطول حربي إلى سواحل السند، كما قام أبو موسى الأشعري والي العراق بإرسال حملة برية بقيادة الربيع بن زياد الحارثي إلى مكران وكرمان، ثم وفي عهد عثمان رضي الله عنه حدثت بعض المعارك بين القوات السندية وقوات المسلمين التي كان يقودها الحكم بن عمرو التغلبي، فأمر الخليفة واليه على**

البصرة عبد الله بن عامر سنة 29 ه بأن يبعث قوة استطلاعية الطابع إلى هناك، قام بقيادتها حكيم بن جبلة العبدي، وعندما آلت الخلافة إلى علي رضي الله عنه توجهت حملة إلى السند يقودها الحارث بن مرة العبدي، إلا أن السنديين تمكنوا من قتله مع الكثير من جنوده في أرض القيقان سنة 42 ه.

وقد كانت أول محاولة جدية في هذا المضمار قد حدثت في عهد معاوية بن أبي سفيان، حيث قام عبد الله بن سوار العبدي بقيادة حملتين انتهت الثانية باستشهاده، كما قاد المهلب بن أبي صفرة سنة 44 ه (665 م) حملة برية استطلاعية الطابع، فوصل إلى المنطقة البالغة الوعورة الواقعة بين كابول والملتان. وبعد أن قضى الأمويون على الفتن والانقسامات الداخلية، مع وصول الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى كرسي الخلافة، بات المجال مفتوحا" أمامهم لوضع مشروع فتح السند قيد التنفيذ.

وفي سنة 88 ه، أي في عهد الوليد، قام ملك جزيرة الياقوت (يعتقد بعض المؤرخين أنها سريلانكا الحالية) بإرسال

هدايا نفيسة إليه، تضم الكثير من العبيد، والتحف المرصعة بالجواهر الثمينة مثل الدر والياقوت، وقد بعث مع السفينة التي حملت الهدايا بعض النساء المسلمات اللواتي مات أولياء أمورهن التجار في تلك الجزيرة، ولا شك أن ذلك الملك كان يهدف من وراء هذا العمل إلى التودد إلى الدولة الأموية، التي كانت في ذلك الزمن قد أصبحت مركز الثقل وقطب الرحى على المسرح السياسي العالمي، وأخذت تتوسع في كل الجهات بحماس منقطع النظير؛ مما دفع ابن كثير إلى القول في كتابه (البداية والنهاية): " كانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله ". ومن الجدير بالذكر، أن عهد الوليد مثل الفترة الذهبية بالنسبة لقوة الدولة الأموية ولزخم الفتوحات، فقد تضاعفت مساحة الدولة في عهده، بعد إتمام إخضاع الشمال الإفريقي وفتح إسبانيا والسند وما وراء نهر جيحون (آسيا الوسطى).

وقد كانت السفينة بصدد الاتجاه إلى البصرة، بغية تسليم الهدايا إلى والي الخليفة على العراق منذ سنة 75 ه الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، إلا أنها انحرفت عن وجهتها تحت وطأة العاصفة إلى شواطئ الديبل، وهي بلدة مشهورة تقع على ساحل السند، وتبعد بضع عشرات من الكيلو مترات عن مدينة كراتشي الحالية، فأقدم بعض القراصنة الذين كانوا ينشطون في تلك الجهات على الاستيلاء على السفينة، وأسر من كان فيها، بينما هرب بعض ركابها وفق بعض الروايات إلى العراق، وأخبروا الحجاج بما حدث.

وقد كان الحجاج، الذي عرف بلقب أمير العراقين (العربي والعجمي)، قد باشر منذ ذلك الوقت العمل على تنفيذ مخططاته في توسيع رقعة الدولة باتجاه الشرق، ويبدو أن مخططاته هذه كانت تحمل في طياتها هدفا" آخر غير نشر الإسلام وفرض السيادة العالمية للدولة الأموية، فقد أراد الحجاج أن يوجه طاقات أهل العراق وفارس إلى الحروب الخارجية، فيشغلهم بذلك عن العصيان والتمرد، اللذين كانا هما

طابع الأوضاع الداخلية هناك، منذ أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أرسل الحجاج إلى داهر ملك السند يطلب منه إعادة الأسرى والهدايا المنهوبة وتسليمها إلى دار الخلافة، غير أن هذا ادعى أنه لا قدرة له على السيطرة على القراصنة، فقام الحجاج بالكتابة إلى الخليفة طالبا" منه بإلحاح أن يأذن له بإرسال حملة عسكرية إلى تلك البلاد.

وبعد حصوله على الموافقة من الخليفة، أرسل الحجاج عبد الله بن نبهان السلمي على رأس جيش إلى هناك، إلا أنه ما لبث أن هزم واستشهد، فأرسل قوة أخرى بلغ تعدادها - وفق ما ذكر المؤرخون - ثلاثة آلاف جندي، وذلك بقيادة بديل بن طهفة البجلي، الذي استشهد أيضا"، كما فشل في تحقيق أهداف الحملة، وعندئذ استقر رأي الوليد والحجاج على إرسال جيش أكبر حجما" وأكثر تنظيما"، وقد قام الخليفة بإمداد هذا الجيش بستة آلاف جندي من أبناء بلاد الشام.

وفي سابقة تاريخية أثارت دهشة المؤرخين، قام الحجاج بتعيين قائد للجيش لم يتجاوز عمره السبعة عشر عاما"، وهو أحد أبناء عمومته محمد بن القاسم بن محمد الثقفي، الذي يعد أحد أبرز وأنجح الفاتحين المسلمين.

ولد هذا القائد الفذ في مدينة الطائف عام 72 ه (حوالي 695 م)، في أسرة كان لها وزنها ومكانتها بين القبائل العربية، خاصة في زمن جده محمد بن الحكم، وعندما تسلم الحجاج مقاليد الأمور في أرض السواد عام 75 ه عمل على تعيين القاسم (والد محمد) واليا" على البصرة، فانتقل محمد معه إلى هناك، وتشبع روح الجندية منذ نعومة أظفاره، ولا ريب أنه نجح في سن مبكرة في لفت الأنظار إلى حنكته الحربية، خاصة خلال معارك الحجاج ضد الخوارج.

حرص الحجاج على تجهيز جيش محمد بن القاسم بكل ما يحتاج إليه من عدة وعتاد، ولم يغفل في سبيل ذلك عن أبسط الأمور، كالخيوط والقطن المحلوج، كما أمر الخياطين

بصناعة هياكل تمثل رؤوس الفيلة والسباع؛ لاستخدامها في بث الرعب في الجيوش السندية التي كانت تستخدم الفيلة الهندية في معاركها، وأوصى أيضا" ابن القاسم بالاهتمام بحفر الخنادق في ساحات المعركة، وحدد له مقاساتها بعمق 6 أذرع وعرض 12 ذراعا"، ويبدو أن الحجاج كان قد عقد العزم على أن تكون هذه الحملة الجريئة فتحا كاملا" لتلك البلاد (السند والبنجاب)، التي قدر لها أن تلعب فيما بعد دورا" كبيرا" في تاريخ الأمة الإسلامية، وتشير المصادر إلى أنه، بعد أن ألقى في جيش الفتح خطبة بليغة، قام بنفسه بإركاب ابن القاسم على فرسه؛ لكي يعطي الانطباع للجنود أنه محط ثقته، وبلغ من اهتمامه بتفاصيل الحملة أنه كان خلالها يبعث رسائل متتالية تتضمن تشجيعه وتوجيهاته.

عمل الحجاج على تحميل بعض السفن بالأسلحة والمنجنيقات، بغية نقلها إلى الديبل، ومن ثم فرض الحصار عليها برا" وبحرا"، أما ابن القاسم فقد قام بالزحف بقواته إلى شيراز حيث عسكر فيها بموجب توجيهات الحجاج، منتظرا"

وصول السفن إلى ساحل الديبل، وقدوم التعزيزات من الشام والعراق، والتي كان من بينها ثلاثة آلاف جمل كان المسلمون بصدد استخدامها في نقل العتاد والمؤن.

تحرك محمد بن القاسم من شيراز، على رأس حوالي اثني عشر ألف مقاتل، كانوا لا يقلون حماسا" عن أسلافهم الذين زحفوا من صحراء شبه الجزيرة الشاسعة منذ عقود قليلة، ليقذفوا بأعتى قوى ذلك الزمن إلى مقبرة الإمبراطوريات البائدة، وبعد أن أقام عدة أيام في مكران واصل تقدمه باتجاه قنزبور، ثم أرمائيل التي فشلت في التصدي له، وقد أصبح منذ تلك المرحلة من حملته قادرا" على إدامة الاتصال مع الإمدادات البحرية للجيش.

تقدمت القوات الإسلامية سنة 89 هـ (708 م) إلى سواد الديبل (الباكستان حاليا")، حيث بوشر على الفور في الاستعداد للمعركة الفاصلة، عبر حفر الخنادق ونصب

المنجنيقات حول مدينة الديبل، التي طالما صبت مطامح الأمراء والجنود المسلمين إليها.

قام المسلمون بفرض الحصار البري والبحري على الديبل، ونجحوا في خلخلة دفاعاتها، ولا شك أنهم زعزعوا الروح المعنوية لجنودها وأهلها، بتحطيمهم لمعبد الأصنام الكبير الذي كان يتوسط المدينة، بواسطة قذائف منجنيق ضخم تم شحنه من العراق، وقد أطلق الحجاج على هذا المنجنيق اسم (العروس)، ويروى أنه كان يتم تزويده بالحجارة من قبل قوة تعدادها خمسمائة رجل، كان يقودها جعونة السلمي.

وبعد أن استطاع المسلمون إحداث ثغرة في دفاعات المدينة، عملوا على اقتحامها، وأجبروا أمراءها على طلب الأمان سنة 93 هـ (712 م)، وقد قام ابن القاسم بتحرير الرهائن المسلمين من سجنها، وأمر بنقلهم إلى العراق على متن إحدى سفن الأسطول.

وبعد أن قام ابن القاسم بتنظيم أمور المدينة المفتوحة، والإيعاز بإنشاء مسجد فيها، تحرك بقواته في سرعة قياسية لفتح نيرون (حيدر أباد حاليا")، ونقل المنجنيقات إليها بالسفن عبر مياه نهر السند، وقد قرر حاكم نيرون الاستسلام وإعفاء جنده من قتال لا أمل بالانتصار فيه، ففتح أبواب قلعته، وأرسل الغذاء والأعلاف إلى المسلمين، كما شرع تجار تلك المنطقة بفتح أسواقهم أمام المعسكر الإسلامي، بينما دخل ابن القاسم إلى نيرون وهدم معبدها، وأمر ببناء مسجد على أنقاضه.

ولما أتم المسلمون السيطرة على نيرون تقدموا لاحتلال سيوستان، التي حاول حاكمها المقاومة ثم فر منها، بعد أن أخفق في التصدي لمنجنيقات ابن القاسم، ثم قام المسلمون بفتح حصن سيويس، ليعودوا بعد ذلك إلى نيرون، ويباشروا استعداداتهم لاجتياز نهر السند بغية خوض المعركة الفاصلة مع الملك داهر، أحد أقوى ملوك البراهمة، والذي كان يمثل العقبة الرئيسية أمام استيلاء المسلمين على تلك البلاد؛ إذ كان

**يقود جيشا" قويا" ومدربا" انتصر به على الآريين وطردهم من السند، بعد أن أخضعوها لحكمهم عدة قرون من الزمن.**

**استمرت مرحلة التمهيد لاجتياز النهر حوالي خمسين يوما"، عانى خلالها الجيش الإسلامي الكثير من المشاكل الإدارية، التي لا ريب في أنها كانت ستؤدي إلى تحطيم عزيمته للقتال، لولا الروح الإيمانية الصلبة التي كان يتحلى بها جنوده، إضافة إلى الكفاءة العالية التي تمتع بها قائدهم الشاب، فقد نفدت مؤونة المسلمين من الطعام والأعلاف؛ بسبب طول الزحف والمعارك المتتالية التي دامت نحو عامين، فاضطر الجنود إلى تناول لحوم الجياد المريضة، أضف إلى ذلك أن العديد من الجياد نفقت بسبب إصابتها بمرض الجذام، وقد سارع الحجاج إلى إمداد الجيش بألفين منها. ومن الجدير بالذكر في هذا المقام، أنه لولا الإدارة الحكيمة التي أبداها الحجاج في تهيئة موارد العراق لإسناد جيش الفتح، منذ وقت يسبق زحفه إلى الشرق، لكانت الحملة على السند قد تحولت إلى كارثة عسكرية كبيرة. وقد كان الملك داهر على علم**

بأحوال الجيش الإسلامي، وحاول استغلالها لصالحه، إذ أرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه أن يمده بالأطعمة والأعلاف، شريطة أن ينسحب بقواته من السند، غير أن المسلمين نجحوا في تجاوز ما هم فيه، خاصة بعد أن أخذ أهل السند بالاتجار معهم.

وبعد أن انتخب ابن القاسم نقطة مناسبة لاجتياز النهر، عمد إلى جمع السفن وربطها معا" لإنشاء جسر للعبور، بينما حاول جنود الملك داهر عرقلة ذلك، ولما نجح الجنود المسلمون في التقدم عبر الجسر باتجاه الضفة الأخرى قاموا بإجبار جنود داهر على التراجع، مما سهل عملية عبور الجيش الإسلامي برمته إلى الجانب الآخر، ومن ثم تقدمه إلى منطقة جيور، ووصوله إلى مقربة من نهر ددهاواه.

كانت المعركة التي دارت بين المسلمين وجيش داهر حاسمة وطاحنة بكل معنى الكلمة، ومن المرجح أنها ذكرت المسلمين بمعركة القادسية، خاصة أن جيش داهر كان يضم

بين صفوفه ستين فيلاً"، بل إن بعض المصادر رفعت عددها إلى مائة، وكان ابن القاسم قد عين محرز بن ثابت قائداً" بديلاً" له إذا ما ظفر بالشهادة.

لقد كان القتال بين الطرفين عنيفاً"، واستمر لعدة أيام، تقاتل خلالها الطرفان من الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من المساء، ثم كان كل منهما يعود إلى معسكره للاستعداد لجولة أخرى أشد ضراوة، وفي اليوم الخامس من القتال نجح المسلمون في صد هجوم الفيلة وتشتيت شملها، إلا أنه في اليوم التالي شن داهر هجوماً" جديداً" حمى خلاله جناحي الجيش بسلسلتين من الفيلة، وكان داهر يمتطي فيلاً" كبير الحجم، مما ساعد المسلمين على التعرف عليه واستهدافه، وقد سارع ابن القاسم إلى إعادة تنظيم جيشه، فقسم الفرسان إلى ثلاثة أقسام، وزعها على الميمنة والميسرة والقلب إضافة إلى الساقة، كما وزع حملة مشاعل النفط على تشكيلات الجيش، وقد بلغ حرصه على تثبيت جنوده في مواضعهم لدرجة أنه أمر السقائين بتوزيع الماء على العطشى؛ لكي لا

يضطر أي منهم إلى ترك موضعه للحصول على الماء، كما اختار مجموعة من خيرة فرسانه وشن بهم عملية التفاف وتطويق لمؤخرة الجيش السندي، مما أدى إلى ارتباك صفوفه وانقسامه إلى قسمين، وفي ذات الوقت، قام الجسم الرئيسي للجيش الإسلامي بالإطباق بعنف على الجيش السندي، غير أن داهر نجح في اليوم التالي في تنظيم جيشه من جديد، واستبسل في مقاومة المسلمين.

وأخيرا" نجح رماة السهام المسلمون في إشعال النار في الهودج الذي كان يحمل داهر على ظهر الفيل، فتراجع الفيل مذعورا" وسقط في ماء النهر، وأثناء محاولة داهر الخروج من الماء أصابه أحد سهام المسلمين، بينما قام عمرو بن خالد الكلابي (وفق ما يروي المدائني) بالتصدي له والإجهاز عليه بسيفه، فشق رأسه إلى نصفين، وقد أدى مصرعه إلى انهيار إرادة الصمود لدى الجيش السندي واندحاره في شهر رمضان 93 هـ.

تتبع ابن القاسم فلول الجيش المهزوم حتى حصن راؤر، وفور سيطرته عليه بادر إلى احتلال دهليله ثم برهمناباد، وواصل بعد ذلك اندفاعه في عمق مملكة داهر، التي كانت قد أصبحت شذر مذر بعيد مصرع ملكها. ويلاحظ أن ابن القاسم لم يكن على الدوام في حاجة إلى السيف لإخضاع المدن المفتوحة، إذ أن بعض هذه المدن آثرت السلامة وعدم المخاطرة بأرواح أبنائها، فسلمت مقاليد أمورها إلى المسلمين صلحا".

وعندما وصل ابن القاسم إلى الملتان، المدينة المحصنة والمقدسة بالنسبة للهنود، وجد نفسه في مواجهة عدو مصمم على المقاومة، فضرب عليها الحصار لعدة أشهر بلغت إبانها الأوضاع الإدارية للمسلمين درجة كبيرة من السوء، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى أكل الدواب.

وقد قام أحد عيون المسلمين بإرشادهم إلى نقطة واهنة في سور المدينة فنقبوها، وبعد قتال شرس دام أسبوعا" كاملا" أحكم المسلمون سيطرتهم على المدينة، ليباشروا بعد

ذلك ببسط السيادة الإسلامية على ما تبقى من تلك البلاد، حتى وصلوا إلى حدود كشمير حوالي سنة 94 ه، أي بعد عدة سنوات من الزحف المستمر، وليستولوا بذلك على المنطقة التي تعرف حاليا" بدولة باكستان. ويروي المؤرخون أن ابن القاسم كان يحرص على بناء المساجد في كل مدينة يقوم بفتحها، مما يفسر بعض أسباب الانتشار السريع للدين الإسلامي في تلك البلاد، التي تبعد عن مهبط الوحي وعن عاصمة الخلافة عدة آلاف من الكيلو مترات.

لقد استغرق فتح السند حوالي خمس سنوات ملأى بالبطولات والصعوبات، وقد بلغت تكاليفه وفق ما يروي المؤرخون 60 مليون درهم، وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الزمن، غير أن حجم العوائد المالية، كالغنائم وغيرها، التي حصل عليها المسلمون هناك لم يغط تكاليف الحملة فحسب، بل أمد أيضا" الخزينة الأموية بملايين من الدراهم.

كانت نهاية الحياة العسكرية والسياسية لمحمد بن القاسم الثقفي مثيرة للشفقة، شأنه في ذلك شأن طارق بن زياد وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم، ويبدو أن تحجيم القادة العسكريين الناجحين، وإنهاء دورهم بشكل مفاجئ وحاسم، كان سياسة متبعة لدى الخلفاء الأمويين في بعض مراحل تاريخهم، وهو أمر يعود في جانب كبير منه إلى معاناتهم في المراحل الأولى من حياة دولتهم من العديد من الثورات، التي قادها أشخاص يتمتعون بثقل سياسي كبير وقوة حربية لا يستهان بها، مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

لقد خسر ابن القاسم كثيراً" بوفاة الحجاج، قريبه وسنده ومصدر نفوذه السياسي، سنة 95 ه، وزاد الأمر سوءاً" بالنسبة له موت الوليد في السنة التالية، ولم تشفع له الإنجازات الهائلة التي قدمها للدولة الإسلامية، وفي الوقت الذي كان يخطط فيه لمواصلة التقدم عبر ذرى الهندوكوش واجتياح الصين جاءته أوامر الخليفة الجديد سليمان بن عبد

الملك بترك منصبه والعودة إلى العراق، وقد كان هذا الخليفة كما هو معروف يكن حقدا" شديدا" على الحجاج، الذي لو كان حيا" آنذاك لعزله عن ولاية العراق وأذاقه شتى ألوان العذاب والهوان، ومما يحسب لابن القاسم في ميزان التاريخ أنه لم يحاول مطلقا" استغلال الموارد الهائلة التي توفرها له السند، أو الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها بين جنوده، أو وجوده على بعد آلاف الكيلو مترات عن العاصمة دمشق، فيعلن العصيان على الحكم الأموي، فقد انصاع لأمر الخليفة، وسلم نفسه ليزيد بن أبي كبشة السكسكي الوالي الذي عينه سليمان بدلا" منه، وفور وصوله إلى العراق قام واليها صالح بن عبد الرحمن بمجازاته بـ " جزاء سنمار "، إذ أرسله مكبلا" بالسلاسل إلى سجن مدينة واسط، فأنشد ابن القاسم قائلا":

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر.

لقد لقي ابن القاسم شتى صنوف التنكيل، ومات في سجنه سنة 95 ه، ويمكننا الجزم أن رحلة بني أمية إلى النهاية بدأت عند هذه النقطة، فمنذ أن كفوا عن الفتح، ونكلوا برموزه،

وانغمسوا في خلافاتهم وشهواتهم، بدأت أركان دولتهم بالتصدع شيئا" فشيئا". والجدير بالذكر أنه بعد موت سليمان حاول خليفته عمر بن عبد العزيز إنقاذ ما يمكن إنقاذه، إلا أن مدة حكمه القصيرة ونفور المحيطين به من تقواه وورعه وتوجهاته الإصلاحية لم تتح له ذلك.

وبالتزامن مع تلك الملحمة الخالدة التي حققها أسود الإسلام في بلاد السند وعلى مشارف الهند، كانت تجري في الشمال، وتحديدا" في آسيا الوسطى، ملحمة أخرى لا تقل في عظمتها وروعتها ومدى تأثيرها على المسار العام للتاريخ الإسلامي عن غيرها من ملاحم الفتوحات، وقد ارتبطت هذه الملحمة الخالدة باسم قتيبة بن مسلم الباهلي، مثلما ارتبطت غيرها من الفتوحات بأسماء قادة آخرين تحولوا إلى نجوم لامعة في سماء التاريخ الإسلامي، ورغم أن هؤلاء القادة تحلوا بالعديد من الصفات الروحية والعقلية، التي أهلتهم لهذه المكانة، فإن علينا أن لا ننساق، في إعجابنا بهم وإشادتنا بفضلهم، إلى حصر الأحداث التاريخية – حسنها وسيئها –

**بشخص واحد، متناسين العوامل العميقة والمتشابكة، الروحية والمادية، التي أفضت إليها، وغافلين عن أولئك الأشخاص الذين سلخوا أعمارهم في غمارها، وقدم بعضهم روحه خلال ذلك.**

**بعد أفول نجم الفرس اتجهت جحافل المسلمين شمالا" بشرق، حتى وصلت إلى نهر جيحون، باسطة سيطرتها على جرجان وطبرستان وخراسان ومرو والطالقان والفارياب والجوزجان وغيرها، غير أن انشغال المسلمين بأحداث وتداعيات الفتنة التي بدأت في عهد عثمان رضي الله عنه أدى إلى قيام الثورات في هذه المناطق، ولما استقر الأمر لبني أمية شرعوا في تثبيت سلطان المسلمين فيها، تمهيدا" لمواصلة الفتوحات.**

**قام معاوية بن أبي سفيان بتعيين عبد الله بن عامر واليا" على البصرة، وكلفه بمواصلة الفتوحات في خراسان وسجستان (سيستان)، وفي حوالي سنة 41 ه (وفق الطبري)**

**كلف معاوية عبد الرحمن بن سمرة بقيادة العمليات الجهادية في سجستان، فقام بالتوسع من هناك باتجاه كابل وغيرها، ثم، وبعد سنوات قليلة، غزا المسلمون طخارستان وجبال الغور الكائنة في أفغانستان الحالية، وهكذا أصبح الطريق ممهدا" شيئا" فشيئا" لمد النفوذ الإسلامي بشكل فعال في آسيا الوسطى.**

**وفي سنة 54 ه قاد والي خراسان عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان حملة عسكرية عبر بها نهر جيحون، في تطور واضح للعمليات العسكرية الإسلامية في تلك الأنحاء، فقد ذكر الذهبي في (دول الإسلام) أن عبيد الله كان أول (عربي) عبر نهر جيحون، وإزاء ذلك وجدت خاتون ملكة بخارى نفسها مضطرة إلى طلب الصلح، وفي سنة 56 ه شن المسلمون حملة أخرى بقيادة سعيد بن عثمان بن عفان، فدخلوا بخارى، ثم أجبروا سمرقند على طلب الصلح، كما فتحوا ترمذ صلحا"، وفي عهد يزيد بن معاوية أقدم سلم بن زياد على قيادة حملة جديدة أعادت إخضاع بخارى بعد تمرد ملكتها خاتون.**

وقد توقفت الحملات الإسلامية في ما وراء النهر بعد موت يزيد، على أثر الفتن الداخلية التي عانى من نيرها المسلمون، وعندما عين المهلب بن أبي صفرة من قبل الحجاج واليا" على خراسان سنة 78 ه أرسل قواته للتوسع في تلك المنطقة، وقد فشلت جميع تلك الحملات في تثبيت السيطرة الإسلامية على بلاد ما وراء النهر، غير أنها مهدت لعملية الفتح الشاملة التي نفذها قتيبة بن مسلم الباهلي بعد سنوات قليلة.

كانت آسيا الوسطى، أو بلاد ما وراء النهر، تضم البلاد الواقعة بين نهري جيحون (أموداريا) وسيحون (سيرداريا)، وهي طخارستان (عاصمتها بلخ) والصفانيان والصغد (سمرقند وبخارى) وفرغانة وخوارزم وأشروسنه والشاش، وتشمل هذه البلاد حاليا" مجموعة الدول الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفييتي المندثر (كازاكستان وأوزبكستان وقرغيزستان وتركمنستان وطاجيكستان)، وكانت هذه البلاد مسكونة من أقوام وثنية شديدة المراس، إلا أنها غير موحدة

سياسيا"، ولا شك أن هذه الأقوام وجدت نفسها في موقف عصيب، بعد أن رأت المارد الفارسي العجوز يختفي فجأة، ليطل من خلفه مارد آخر فتي وطموح.

لم تستتب السيطرة الإسلامية على بلاد ما وراء النهر إلا على يد قتيبة بن مسلم، في عهد الوليد بن عبد الملك، وكان مما ساعد على ذلك أن الجبهة الداخلية للدولة الأموية كانت قد استقرت بعد فترة طويلة من الاضطرابات والانقسامات.

وفي سنة 86 ه (705 م)، أي في العام الذي توفي فيه الخليفة عبد الملك بن مروان، قام الحجاج بن يوسف بعزل المفضل بن المهلب عن ولاية خراسان وتعيين قتيبة بدلا" منه، وقد سعى هذا المجاهد الصنديد، وفور تسلمه منصبه، إلى البناء على إنجازات من سبقه من القادة، وقد قدر له أن يحسم السيطرة الإسلامية على تلك المنطقة، بعد مد وجزر استمر لفترة طويلة نسبيا".

تمتاز بلاد ما وراء النهر بشتائها القاسي؛ لذلك كان قتيبة حريصا" على بدء حملاته الحربية في هذه البلاد في فصل الصيف، ثم يسارع إلى العودة قبل حلول الشتاء إلى عاصمته مرو، ولا ريب أن هذا الأمر كان كفيلا" بتأخير حسم الصراع في تلك البلاد؛ لأن تجزئة المجهود الحربي لقوات المسلمين على عدة مراحل كان كفيلا" بإتاحة الفرصة أمام أعدائهم لالتقاط أنفاسهم وتنظيم قواهم.

وحال تسلم قتيبة لمهامه قام باستعراض جنوده، كما ألقى فيهم خطبة ذكرهم فيها بفضائل الجهاد في سبيل الله عز وجل، وعندما تقدم بقواته صوب نهر جيحون انضم إليه دهاقين بلخ وزعماؤها، ثم أعلن ملك الصغانيان تسليم بلاده إليه، وكذلك فعل ملك أخرون وشومان وملك الجوزجان.

كانت بيكند (أقرب مدن بخارى إلى نهر جيحون) من أولى الحواضر التي وصلتها قوات قتيبة سنة 87 هجرية، أثناء عملية فتح بخارى التي استغرقت قرابة الثلاث سنوات، وقد

رضخ أهالي بخارى للأمر الواقع وعقدوا مع المسلمين صلحا" تضمّنت بنوده دخولهم تحت سيادة الدولة الأموية، إلا أنهم استغلوا غياب قتيبة وجنوده وثاروا على الحامية الإسلامية وفتكوا بها وبقائدها، فسارع قتيبة إلى العودة لإخضاعهم بحد السيف، ثم واصل فتوحاته وأحرز نصرا" آخر في كرمينية (بين بخارى وسمرقند). وقد ذكر الطبري أن طرخون ملك السغد (الصغد)، ولما رأى هزيمة أهل بخارى المذلة، أرسل في سنة 90 ه إلى قتيبة عارضا" عليه الصلح والقبول بسيادة المسلمين فوافقه على ذلك، ونجح قتيبة أيضا" في إخضاع شومان وكس ونسف والفارياب، كما قام خلال تلك المرحلة بالهجوم على أهل الطالقان في خراسان؛ بسبب تقديمهم العون لأعداء المسلمين.

والجدير بالذكر، أن الحجاج بن يوسف، وكما هو شأنه في فتح السند، كان شديد الاهتمام بعمليات المسلمين في ما وراء النهر، ويروى في هذا الصدد، أنه عندما واجه قتيبة صعوبة في فتح بخارى كتب إليه الحجاج يطلب منه أن يبعث

إليه شرحا" مفصلا" عن طبيعتها الجغرافية، ولما أرسله إليه رد الحجاج بخطة لاحتلالها، سرعان ما قام قتيبة بتنفيذها بنجاح.

وبحلول سنة 93 ه (711 م)، كان قتيبة قد مضى في نجاحاته العسكرية أكثر بكثير مما وصل إليه القادة الذين سبقوه، فقد استولى على خوارزم، وسحق تحالفا" من الترك والصغد وأهل فرغانة، يقوده غوزك ملك الصغد، وبات المجال مفتوحا" أمامه لإخضاع سمرقند التي كانت تعتبر أعظم حواضر بلاد ما وراء النهر، وكان مما دفعه إلى توجيه قواته نحوها أن ملكها نقض الصلح الذي كان قد عقده مع المسلمين، وقد احتلها قتيبة بعد قتال شديد، وأمر ببناء مسجد فيها، كما أمر بجمع أصنامها وإضرام النار فيها، بعد أن جردت من الحلي التي زينت بها، ويقال أن المسلمين وجدوا من بقايا ما كان في هذه الأصنام من المسامير المصنوعة من الذهب والفضة ما بلغ خمسين ألف مثقال!

وفي السنة التالية، ومع حلول فصل الصيف، انطلق قتيبة من مرو لفتح المناطق الشرقية من تلك البلاد، حيث الشاش (طشقند حاليا") وفرغانة، وكاشغر التي وصفها الطبري بأنها " أدنى مدائن الصين "، ولاقى هنالك مقاومة شديدة، مما حدا بالحجاج إلى أن يأمر محمد بن القاسم بإرسال تعزيزات له من جبهة السند، وقد وصل قتيبة بقواته إلى خجندة على نهر سيحون، ثم احتل خوقند وكاشغر في سنة 95 ه، ويروى أن قتيبة أرسل إلى ملك الصين وفدا" يعرض عليه شروط التسليم، وأن هذا الملك، وبعد جولة طويلة من المفاوضات، آثر السلامة لنفسه ومملكته، وقبل بدفع الجزية للمسلمين. ونلاحظ أن الفتح العسكري الإسلامي في هذه المنطقة وصل شرقا" إلى نقطة موازية، على وجه التقريب، للنقطة التي وصل إليها الفتح في جبهة السند.

وكغيره من قادة الفتوحات الإسلامية، لم يكتف قتيبة بفرض السيطرة العسكرية والسياسية على المناطق المفتوحة، وإنما كان حريصا" على نشر الإسلام بين أهلها، الذين كانوا غارقين في معتقدات وثنية مثيرة للعجب، فاهتم ببناء المساجد،

وتكليف الدعاة، كمحمد بن واسع والضحاك بن مزاحم، بنشر الدعوة الإسلامية، ويقال أنه استخدم المال في تأليف القلوب، فكان يأمر بأن ينادى في الناس بأن كل من يشهد صلاة الجمعة يمنح درهمين، وقد يبدو لبعضنا أن هذا الأسلوب الدعائي سيجعل المسجد غاصا" بالانتهازيين والمنافقين، وقد يكون هذا صحيحا" للوهلة الأولى، إلا أنه على المدى المتوسط سيتحول الكثير من هؤلاء إلى مسلمين قلبا" وقالبا"، وهذا ما أثبتته الأحداث اللاحقة، بما لا يدع المجال لشك.

ويبدو أن قتيبة كان يحلم بأن يصل برايات المسلمين إلى أقصى الشرق الآسيوي، غير أن الأحوال السياسية في دمشق وضعت حدا" نهائيا" لملحمته العظيمة، مثلما حدث مع موسى بن نصير وطارق بن زياد وابن القاسم.

وقد كان من الطبيعي أن لا يأمن قتيبة جانب الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك، وأن يتوقع تنكيله به، خاصة أنه كان من المؤيدين لخلعه من ولاية العهد وتسليمها لعبد العزيز

**بن الوليد بن عبد الملك؛ لذلك سارع قتيبة إلى إعلان الثورة على الخليفة، مما أحدث أزمة كبيرة بينه وبين أتباعه، فثار عليه بعض الجند بقيادة زعيم بني تميم وكيع بن حسان بن أبي سود، وقتلوه مع عدد من أقاربه في ذي الحجة سنة 96 ه.**

رجوع للفهرس

# الفصل الثامن
# الطريق إلى باريس

إن متابعة الفتوحات عبر جبال البيرينيه، واكتساح بلاد الغال أو (الأرض الكبيرة) المعروفة اليوم بفرنسا، ومن ثم مواصلة التقدم شرقا" بجنوب، ووضع القسطنطينية بين طرفي كماشة من الشرق والغرب، كان حلما" يراود المسلمين في المغرب وإسبانيا، وعلى رأسهم موسى بن نصير، الذي نكل به الخليفة سليمان، كما سبق أن أشرنا، بدلا" من أن يسير على سياسة أسلافه، فيشجعه ويمده بالأموال والرجال والتوجيهات. ويبدو أن العرب والمسلمين لم تكن لديهم في تلك الفترة فكرة كافية عن تلك المسافة البرية الطويلة، الفاصلة بين الأندلس ومضيق البوسفور، الذي تتربع عاصمة الروم على شواطئه.

يبدو أن إرادة الحكيم جل جلاله قضت بأن يكون ما تبقى من عمر البشرية صراعا" لا هوادة فيه بين الغرب الأوروبي

المسيحي (ثم العلماني) من جهة، والشرق الإسلامي من جهة أخرى، فقد تمحور تاريخ العالم حول هذا الصراع في العديد من المراحل، لذلك بقيت أوروبا عصية على قوات المسلمين، رغم أنهم توغلوا إلى أعماقها في عهد الأمويين ثم الأتراك العثمانيين، كما احتلوا بعض أطرافها لفترات طويلة أو قصيرة، كإسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان، وما أن رحل القرن الحادي عشر الميلادي حتى باتت البلاد العربية والإسلامية نفسها، وخاصة بلاد الشام ومصر، هدفا" لغارات أولئك الأوروبيين الذين كانوا لم يخرجوا بعد من ظلام عصر ما بعد انهيار إمبراطورية الرومان. وقد كانت أسباب فشل المسلمين في ضم (فرنسا) إلى إمبراطوريتهم الكبيرة عديدة ومتداخلة، وسوف نسترسل في الحديث عنها عبر متن هذا الفصل.

تحدثنا بعض المصادر التاريخية أن عبد العزيز بن موسى سعى بتأثير من أرملة رودريك التي تزوجها – في محاولة لكسب ولاء قومها كما يبدو – إلى تقليد بعض المراسم الشركية التي كانت مطبقة في البلاط القوطي البائد، مما أثار

نقمة المسلمين عليه، فقتلوه في مسجد إشبيلية في رجب سنة 97 ه (716 م). ومن المثير للدهشة أنه في الوقت الذي يتحدث فيه المؤرخون المسلمون عن قطع الأمويين لرأس عبد العزيز، وإرساله إلى والده في معتقله، نجد أن المؤرخ الغربي ديورانت ينفي هذه الحادثة ويعتبرها مجرد (خرافة). وإننا نضع علامة استفهام كبيرة حول ما أشاعه بعض المؤرخين عن عبد العزيز؛ ذلك أننا لا نستطيع فصل مسألة قتله عن تنكيل سليمان بن عبد الملك بوالده، وخشيته من أن يقوم هو (أي عبد العزيز) بأي تحرك عدائي ضد الخلافة، مستغلا" شعبية والده، ووفرة موارده المالية، وكثرة الأنصار من حوله، والمسافة الشاسعة التي تفصله عن دمشق، ومن ناحية أخرى فإن الكثير من المؤرخين شهدوا بأنه كان واليا" صالحا" وتقيا"، وتحدثوا عن سقوطه ضحية مؤامرة رأت في التخلص منه تأمينا" لنفوذ بني أمية في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.

وفي ظروف كهذه، بالإضافة إلى أخرى سيأتي ذكرها، كان من الطبيعي أن يتجنب الأمويون صب طاقات الدولة

ومواردها باتجاه مواصلة الفتوحات في غربي أوروبا، خاصة أن سليمان بن عبد الملك لم يكن مهتماً" بتوسيع رقعة الدولة شرقاً" أو غرباً"، بعكس والده وأخيه الوليد؛ وذلك لانشغاله فيما يبدو بالصراع مع الروم.

ذلك أن الدولة الأموية كانت منهمكة في مواجهة دولة الروم، التي كانت لا تزال قوة دولية كبرى، وستبقى كذلك لعدة قرون من الزمن، ومما ضاعف اهتمام الأمويين بمحاربتها وتقليم أظافرها أن حدودها تقع على بعد عدة مئات من الكيلو مترات عن عاصمة الخلافة، مما يعني أن أية هزيمة حاسمة يواجهها المسلمون في الأناضول أو شمالي الشام قد تكلفهم مستقبل دولتهم برمتها، ولذلك لم يتمتع الجناح الغربي من الإمبراطورية الإسلامية المتمثل في المغرب وإسبانيا إلا باهتمام ثانوي من قبلهم، فلم يكن منتظراً" من هؤلاء خاصة بعد أن بدأ نجمهم بالأفول أن يزحفوا عبر جبال وغابات أوروبا المجهولة ليستولوا على القسطنطينية من الغرب، بدلاً" من أن يتقدموا عبر عدة مئات من الكيلو مترات ليفرضوا حولها

**الحصار من الشرق، ولا ننسى أنه في الوقت الذي بدأ فيه ولاة الأندلس بالتفكير في فتح (فرنسا) كانت القوات الإسلامية تحاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك.**

**ولكي ندرك إلى أية درجة كان الأمويون غير راغبين بمواصلة التوسع في الأطراف الغربية للدولة، يكفينا أن نعرف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي خلف سليمان في الحكم سنة 717 م، وبسبب خشيته على مصير المسلمين في إسبانيا، فكر في إجلائهم عنها، ولم يعدل عن ذلك إلا بعد أن تم إقناعه بأنهم قد أحكموا سيطرتهم عليها وملكوا زمام أمرها، ومما يذكر في هذا الشأن أنه بادر في وقت لاحق إلى فصل إسبانيا عن ولاية إفريقية؛ بسبب أهميتها وحساسية الوضع فيها، فبات ولاتها في تلك الفترة يعينون من قبل العاصمة دمشق لا القيروان.**

**ثم إن قوة الدولة الأموية كانت ومنذ عهد سليمان قد بدأت بالتراجع عاما" بعد آخر، وبدا أن عمر بن عبد العزيز،**

صاحب الإصلاحات العظيمة، والملقب لعدله وتدينه وورعه بخامس الخلفاء الراشدين، قد جاء بعد فوات الأوان، ففي حين أن المسلمين حاصروا القسطنطينية في سنتي 717 و718 م، حتى كادت أن تسقط بين أيديهم، لولا تضافر الشتاء البارد والنار اليونانية على دفعهم إلى الانسحاب، نرى أن الدولة الأموية منيت بهزيمة مريرة وساحقة في أكرونيون (في فريجيا) على يد قوات الروم سنة 122 ه (739 م)، وفي نفس تلك الفترة - ومنذ سنة 100 ه (718 م) - بدأ بنو العباس، بقيادة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، جهودهم السرية من الحميمة (في جنوبي الأردن) إلى خراسان لإعلان الثورة، التي هدمت الحكم الأموي ودكته دكا" سنة 750 م.

ومن ناحية أخرى لم تكن الأحوال السياسية في الأندلس مناسبة لاتخاذها قاعدة لمواصلة الفتوح، كما كان الحال بالنسبة للعراق ومصر فشمالي إفريقيا، فقد كان الجزء الشمالي الغربي منها قد تحول إلى ملاذ فقاعدة عسكرية للثوار من بقايا العهد السابق، كما ذكرنا سابقا"، كما أن الأحوال

السياسية تضعضعت بسبب الخلافات حول السلطة بين العرب والبربر، بل وبين العرب أنفسهم، لذلك نجد أنه خلال الأربعة عقود الممتدة بين ولاية عبد العزيز بن موسى وقدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل تتابع على ولاية الأندلس حوالي عشرين واليا"، أي بمعدل والٍ واحد كل سنتين، مما جعل المؤرخين يطلقون على هذه الفترة من تاريخ الأندلس اسم (عصر الولاة)، غير أن عدم ملاءمة الأوضاع الداخلية للتوسع الخارجي لم يحل دون قيام عدد من الولاة بذلك كما سيأتي بعد قليل، ولا شك أن تصريف طاقات الولاية البشرية والمادية في الحرب ساهم، إلى حد ما، في عدم حدوث تدهور كبير في الأوضاع السياسية والأمنية داخلها.

وقبل أن نتتبع معا" العمليات الحربية التي قام بها المسلمون شمالي جبال البيرينيه، علينا أن نتأمل الأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية والحضارية لغربي أوروبا في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ البشرية، فقد كانت هذه المنطقة غارقة في فوضى حضارية عامة لا حدود لها، في

الوقت الذي كانت فيه بلاد العرب والمسلمين هي محور الحضارة العالمية، ورمز التمدن والتقدم والازدهار، ووريثة أمجاد وإنجازات كل الأمم السالفة. ولن يتهمنا أحد بالتحيز وعدم الموضوعية إذا قلنا أنه كان من سوء حظ الفرنجة والجرمان أن مشروع الفتح الإسلامي لبلادهم قد فشل؛ لأن ذلك أدى إلى بقائهم مطحونين تحت رحى الإقطاع والكنيسة لقرون طويلة، وقد شهد بهذه الحقيقة الناصعة " شاهد من أهلها " هو المؤرخ الفرنسي المعروف غوستاف لوبون (1841 - 1931).

لم تكن فرنسا ككيان سياسي معروفة في ذلك الزمن، حيث كانت تسمى الأرض الكبيرة أو بلاد الفرنجة أو بلاد الغال أو غاليا، بل إن اللغة الفرنسية لم تكن قد تشكلت بعد، وكانت بلاد الفرنجة قد انقسمت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بيد قبائل البرابرة إلى مجموعة من الدويلات الضعيفة والمتنازعة والقائمة على حكم الإقطاع، ففي الشمال خلف نهر اللوار تكونت مملكة الفرنجة الميروفنجية، التي امتدت حدودها

**شرقا" عبر ألمانيا الحالية، وفي الجنوب ظهرت دولتي سبتمانيا (أي المدن السبع)، وأكيتانيا التي كانت على عداء مع الميروفنجيين، وإلى الشرق من وادي ردونة (نهر الرون) تأسست كل من برغونة (برجانديا) وبروفانس.**

**بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بقيت الأندلس لعدة أشهر بدون والٍ رسمي، في حين استقر رأي البربر على تعيين أيوب بن حبيب اللخمي (ابن أخت موسى بن نصير) واليا"، إلى أن عزله والي إفريقية بعد أشهر قليلة، وعين مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي، ونعتقد أنه قد عزل بسبب قرابته لموسى. وقد قام الحر بالزحف على رأس قواته عبر البيرينيه وهاجم إمارة سبتمانيا التي كانت فيما سبق جزءا" من دولة القوط، ولا شك أن مما شجع المسلمين على التقدم إلى شمال البيرينيه هو أن ممتلكات القوط كانت تضم بعض الأجزاء الجنوبية من فرنسا، وكان من الطبيعي أن يسارعوا إلى ضمها إلى المناطق المفتوحة.**

**ولم يتح للحر مواصلة مشروعه؛ بسبب اضطراره إلى العودة لقمع تمرد النصارى في شمالي إسبانيا، ثم إقدام الخليفة على عزله سنة 100 هـ (719 م)؛ لكثرة شكاوى الرعية المتعلقة بقسوته على ما تناقل المؤرخون، وقد سعى خليفته السمح بن مالك الخولاني (نسبة إلى قبيلة خولان اليمنية) سنة 102 هـ (721 م) إلى تأمين الحدود الشمالية من خلال فتح سبتمانيا، فتقدم بجيش كبير إلى عاصمتها ناربون (أربونة)، التي كانت بمثابة مفتاح بلاد الغال، وقد أخضعها السمح بعد حصار دام عدة أسابيع استخدمت خلاله المنجنيقات، ثم تقدم عبر الشمال الغربي حيث نهر الغارون، وحاصر مدينة تولوز (طولوشة)، كما توغل داخل أراضي دوقية أكيتانيا.**

**وفي 9 ذي الحجة (يوم عرفة) لسنة 102 ه (11 أيار 721 م) التقى المسلمون مع قوات هذه الدوقية بقيادة أودو بالقرب من تولوز، في معركة حاسمة أسفرت عن استشهاد السمح، واندحار الجيش الإسلامي، الذي نجح عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر الغافقي في إنقاذه من الإبادة، والانسحاب به**

**إلى ناربون، التي اتخذها المسلمون قاعدة لعملياتهم الحربية في تلك المناطق.**

**وبسبب الكفاءة الحربية والشجاعة المنقطعة النظير اللتين تميز بهما عبد الرحمن الغافقي، جرى تعيينه من قبل قادة الجيش خلفا" للسمح، ثم ما لبث أن جاءه إقرار بذلك من العاصمة دمشق، وكان هذا التابعي اليمني الأصل قد اكتسب الكثير من الخبرات أثناء مشاركته في فتح إسبانيا، إلا أن الخليفة قام بعزله بعد فترة قصيرة، وعين مكانه عنبسة بن سحيم الكلبي (يمني الأصل أيضا") الذي لم يقل عنه إقداما" وكفاءة، فنجح خلال سنوات ولايته الخمس في تحسين الأوضاع الداخلية، ومن ثم تطوير الموقف الحربي ضد ممالك الفرنجة، التي باتت تدرك شيئا" فشيئا" حجم الخطر الذي يهدد وجودها على الخارطة.**

**أمن عنبسة السيطرة الإسلامية على سبتمانيا، ثم زحف شرقا" حتى بلغ نهر الرون، واحتل إقليم بروفانس، وتقدم بعد**

ذلك شمالا" بمحاذاة مجرى الرون، واستولى على مدينة ليون التي تعتبر اليوم إحدى أهم المدن الفرنسية، واستمر في توغله شمالا" داخل أراضي برغونة (برجانديا)، ووصل خلال ذلك إلى مدينة أوتون الكائنة قرب منابع الرون، وتوقف على بعد حوالي 160 كيلو مترا" عن مدينة باريس، غير أن أعداءه نجحوا في قطع الطريق عليه أثناء عودته إلى إسبانيا للتصدي للاضطرابات التي كانت قد حدثت في بعض ربوعها، فوقع شهيدا" سنة 107 ه (726 م)، وقد اتسمت حملات هذا القائد الكبير بالتخطيط البارع، كما أشاد رينو القرطبي بحسن معاملته لسكان المناطق التي بلغتها قواته.

بعد استشهاد عنبسة وجدت قوات المسلمين نفسها مضطرة إلى الانسحاب من المناطق المفتوحة إلى ناربون. ويسود الكثير من الغموض تاريخ العمليات العسكرية الإسلامية في بلاد الفرنجة طوال الأربع سنوات التي سبقت تولي الغافقي زمام بلاد الأندلس من جديد، وقد اتسمت هذه السنوات بتعاقب الولاة الضعاف والفوضى السياسية والإدارية التي مرت بها

الأندلس، الأمر الذي أتاح لممالك الفرنجة التقاط أنفاسها، والاستعداد لجولة قادمة وحاسمة مع المسلمين.

ونعود إلى المشهد السياسي لبلاد الفرنجة، والحقيقة أن تأمل الأحوال المتردية فيها، والتي وصلت لدرجة أن الملك كان قد فقد السيطرة على رجال الدين، يجعلنا ندهش للوهلة الأولى إزاء قدرة المسلمين على تحطيم إمبراطورية كبيرة وقوية (الفرس)، وانتزاع أهم مستعمرات إمبراطورية أخرى لا تقل عنها قوة (بيزنطة)، وذلك في وقت واحد وخلال عدة سنوات، ثم يعجز هؤلاء عن تحقيق الأمر نفسه مع مجموعة من الممالك الضعيفة والمتصارعة، والتي لم تكن تمتلك جيوشا" نظامية، ولكي نعرف سبب هذا التحول المفاجئ علينا أن نتتبع العديد من العوامل المتشابكة، والممتدة عبر جميع مفاصل الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية للمسلمين، منذ عهد الخلفاء الراشدين، وحتى المرحلة الأخيرة من الحكم الأموي التي حدثت العمليات في بلاد الفرنجة خلالها، ولن نبالغ أبدا" إذا قلنا أن البحث في تلك العوامل يحتاج إلى عدة مجلدات.

لقد مثل شارل مارتل (688 – 741 م) الملقب بـ (المطرقة) بالنسبة لأوروبا العصور الوسطى المنقذ لها من خطر السقوط بيد الغزاة، تماما" كما نظرت روما القديمة إلى شيبيو الإفريقي أيام الغزو القرطاجي، وقد تسلم هذا الرجل سنة 714 م منصب رئيس البلاط الملكي في أوستراسيا، ثم استفرد بالنفوذ كوزير قصر سنة 719 م، في حين كانت السلطة الاسمية بيد الملك تيودوريك الرابع، وباشر شارل على الفور العمل على إنقاذ دولة الفرنجة من خطر الاندثار، بعد أن دب فيها الضعف منذ أكثر من مائة سنة، كما مزقها الصراع بين رؤساء البلاط في أوستراسيا ونستريا.

خاض شارل مارتل سلسلة من الحروب ضد جيرانه في الشرق؛ بهدف تأمين حدود دولته، فقاد عدة حملات ضد السكسون بدءا" من سنة 718 م، ثم غزا الفريزيين سنة 719 م، فالبافاريين في (725 – 728 م)، كما حارب الألمان سنة 730 م، وقد مكنته حملاته هذه من التفرغ لمواجهة التوسع الإسلامي في الجنوب، ورغم أن جيشه لم يكن منظما" أو

مدربا" بما فيه الكفاية، نجد أن جنوده كانوا يتحلون بالشجاعة والجرأة، الممزوجتين بكثير من الهمجية والوحشية، كما كان حال مقاتلي التيوتون والهون والقوط.

يمكننا الاعتراف بأن وجود قائد بمثل شارل مارتل على رأس الفرنجة كان من بين العوامل التي عرقلت نجاح المشروع الإسلامي في بلادهم، فقد حشد هذا الرجل كل طاقات الدولة للتصدي للمسلمين، فوحد النبلاء تحت رايته، ووضع يد الدولة على بعض أموال الكنيسة، كما استعان باللومبارديين (شمالي إيطاليا).

وفي سنة 112 ه (730 م) ولي عبد الرحمن الغافقي الأندلس مرة أخرى، وقد وضع نصب عينيه معاودة التوسع في بلاد الفرنجة الذين غدوا يهددون بشكل مباشر الوجود الإسلامي في إسبانيا، فقام بإصلاح نظام الضرائب، وتطوير الجيش، وتحصين الحدود الشمالية، والقضاء على المؤامرات والفتن.

كانت العلاقات بين العرب والبربر تعيش أزمة كبيرة، رغم أن الأخيرين أصبحوا مسلمين قلبا" وقالبا"، ذلك أنهم كانوا يرون أن العرب عمدوا إلى الاستئثار بالمناصب القيادية، بينما همشوهم سياسيا"، رغم أنهم لعبوا دورا" كبيرا" في فتح إسبانيا. وفي حقيقة الأمر كانت النزعة القومية، أو العصبية العربية وفق مصطلح ابن خلدون، تمثل إحدى الظواهر الجلية للمسرح السياسي الداخلي في العهد الأموي، الذي شابه أيضا" الصراع حول السلطة بين القبائل العربية الرئيسية أيضا"، وقد أدى التوتر بين العرب والبربر إلى التأثير سلبا" على المجهود الحربي للمسلمين في جنوبي فرنسا.

تقدم الغافقي في سنة 114 ه (732 م) على رأس جيش قوامه 80 ألفا" أو أكثر إلى أوش وبازاس، فعبر نهر الغارون، وطارد الكونت أودو حاكم أكيتانيا إلى عاصمته بوردو (يسميها العرب بردال أو برديل) التي ما لبثت أن سقطت، فلاذ هذا بالفرار، وطلب النجدة من عدوه شارل مارتل الذي سارع إلى

تلبية النداء، بعد أن رأى الخطر الإسلامي يقترب أكثر فأكثر من حدود مملكته بعد انهيار مقاومة أكيتانيا.

وبعد ذلك استمر الغافقي في تقدمه نحو الشمال طاويا" تلال وسهول فرنسا الجميلة تحت رايته، وواضعا" نصب عينيه هدف تدمير ممالك الفرنجة وعلى رأسها دولة الميروفنجيين، إلا أن طوفان الفتوحات الإسلامية الأولى كان قد وصل إلى نهايته، بعد أن هز الدنيا بأسرها لأكثر من مائة سنة.

وفي الوقت الذي حشد فيه شارل مارتل جيشا" جرارا" من الجرمان وغيرهم وصل المسلمون إلى بواتيه واستولوا عليها، ثم زحفوا إلى تور واحتلوها بعد أن فرضوا الحصار عليها، وأخذوا بعد ذلك يتطلعون بنفاد صبر إلى أورليان القريبة من باريس، وعندما كانوا يعدون العدة لاجتياز نهر اللوار وصل جيشا مارتل وأودو إلى ضفته الأخرى، فسارع الغافقي إلى الانسحاب بقواته إلى السهل الفسيح الكائن بين تور وبواتيه، ثم عبر مارتل النهر إلى الغرب من تور، وبات

الجيشان أمام بعضهما بعضا"، بينما وقفت أوروبا بكافة شعوبها ذاهلة العينين تنتظر ما ستتمخض عنه المعركة بكل رعب ووجل، أما المسلمون في الشرق فلا نعتقد أنهم تفاعلوا مع هذا الحدث بما ينبغي؛ لبعده عنهم ولعدم اكتراثهم بتلك الشعوب المتأخرة القاطنة بين غابات أوروبا وحقولها.

كان الجيش الإسلامي يتسم بنقطة ضعف خطيرة لعبت الدور الأكبر في هزيمته، ذلك أنه كان مثقلا" بالغنائم من الأولاد والنساء والأموال، وقد رفض الجنود التخلي عن قسم منها أو تركها في المدن المفتوحة، وكادوا أن يتمردوا على قائدهم عندما حاول إقناعهم بذلك، وأدى تراكم هذه الغنائم في مؤخرة الجيش إلى فقدانه جزءا" كبيرا" من سرعة الحركة والمرونة، اللتين تحلت بهما الجيوش الإسلامية وسهلتا لها على الدوام سبل النصر.

احتدم القتال بين الطرفين في رمضان 114 ه (تشرين الأول 732 م) عندما بدأ المسلمون هجومهم بكل

حماس، ولما حل الليل انتهى القتال بينهما دون أن يسفر عن اندحار أي منهما، وما أن أشرقت شمس اليوم التالي حتى عادا إلى الميدان من جديد، ويبدو أن الفرنجة الذين كانوا أكثر عدداً قد عرفوا نقطة ضعف المسلمين، فقد شن الدوق أودو هجومه على مؤخرة الجيش الإسلامي؛ بغية الاستيلاء على الغنائم التي كان المسلمون قد غنموا أكثرها من مملكته، فسارع الجنود إلى ترك مواقعهم والعودة إلى الخلف للدفاع عن الغنائم، مما أدى إلى إحداث خلل خطير في تشكيلات الجيش الإسلامي، وعند ذلك استغل الفرنجة هذه الفرصة الذهبية فاقتحموا صفوف المسلمين وفتكوا بهم، أما الغافقي فقد أصيب بسهم أثناء تنقله بين تشكيلات الجيش حاثاً جنوده على العودة إلى مراكزهم، فسقط شهيداً على الفور، لتنهار معنويات المسلمين، ويصبح هو ثالث القادة المسلمين الكبار الذين استشهدوا فوق الأراضي الفرنسية، وهكذا كرر المسلمون خطأ (أحد) وحرموا أنفسهم من فتح مبين، كان سيعفي أحفادهم من مآسٍ كثيرة، من بينها الحروب الصليبية،

**والعهود الاستعمارية الطويلة والمظلمة، وأزمات الهوية، والغزوات الثقافية الخطيرة...**

**انسحب الجيش الإسلامي تحت جنح الظلام بعد قتال دام عدة أيام، ولم يجرؤ شارل مارتل على استثمار نصره ومطاردة قوات المسلمين بغية إخراجهم من جنوبي فرنسا، وقد عرفت هذه المعركة في مصادرنا بمعركة بلاط الشهداء نسبة إلى طريق مرصوف ومبلط يعود إلى العهد الروماني، أما الأوروبيون فقد سموها معركة تور أو معركة تور ـ بواتيه، وفي حين أهملت المصادر العربية ذكر هذه الهزيمة ولم تشر إليها إلا باختصار اعتبرها الأوروبيون إحدى النقاط الفاصلة في تاريخهم؛ لأنها أنقذتهم من خطر العرب والمسلمين، وتحول شارل مارتل الذي حاز على لقب (المطرقة) بعد هذه المعركة إلى رمز تاريخي كبير بالنسبة لبني قومه.**

**وقد قلل بعض المؤرخين من أهمية هذه المعركة، بل وأهمية العمليات العسكرية الإسلامية في فرنسا بشكل عام،**

ونظروا إليها على أنها مجرد غارات محدودة لم ترق، سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ، إلى مستوى مشروع الفتح، وهم يرون أيضا" أن القادة المسلمين، ومن بينهم الغافقي، توغلوا في فرنسا دون أن يستندوا إلى مخطط إستراتيجي متكامل، وإننا نرى أنه من العبث أن نخوض في هذه المسألة؛ لأنه لو فشل طارق وموسى في إسبانيا لربما أدلى بعض المؤرخين بنفس رأيهم هذا، كما أنه من غير المتوقع أن يقدم عدد من ولاة الأندلس على ترك أمور الحكم والسياسة والإدارة لمجرد شن غارات محدودة وغير محسوبة النتائج. وفي نهاية الأمر لم تكن نتيجة الصراع في فرنسا مرتبطة بمعركة بلاط الشهداء أو بشخص عبد الرحمن الغافقي أو غيره أو بالأندلس فقط، وإنما أيضا" بالحالة العامة التي وصلت إليها الدولة الأموية قبل أقل من عشرين عاما" من سقوطها بيد العباسيين، ولا ننسى أن المجهود الحربي في فرنسا اعتمد فقط على إمكانيات ولاية الأندلس، بينما لم تقدم له دمشق شيئا"، على غير عادتها في سابق أيامها كعاصمة للمسلمين.

وما لا ينبغي أبدا" أن نتجاهله هو أن معركة بلاط الشهداء لم تكن حاسمة بمعنى أنها أوقفت التوسع الإسلامي في فرنسا؛ لأنه بهذه المعركة أو بدونها لم يكن في مقدور مسلمي الربع الثاني من القرن الثامن للميلاد القيام بأي مشروع كبير للفتح، فالخلافة الأموية كانت تحتضر، وقد انتشرت الأزمات السياسية في كافة أقاليمها من خراسان شرقا" وحتى إسبانيا غربا". إن محاولة بعض الباحثين اعتبار (بلاط الشهداء) بمثابة السكين التي بترت بشكل نهائي محاولات المسلمين لفتح فرنسا أمر يفتقد للدقة؛ لأن المسلمين سبق لهم أن هزموا في مواقع عدة في العراق وإفريقية وغيرها، ولكنهم سرعان ما امتصوا صدمة الفشل، واستعادوا زمام المبادرة واسترجعوا الأراضي التي فقدوها، ويرى محمد عبد الله عنان (وهو محق في ذلك) أن الجيش الإسلامي لم يسحق في بلاط الشهداء بل " ارتد من تلقاء نفسه "، وهي حقيقة تؤيدها بشكل ضمني الروايات الغربية، ولعل أبرز دليل على ذلك أن المسلمين قاموا سنة 734 م، أي بعد هزيمة بلاط الشهداء بحوالي سنتين، بالتوغل من جديد في الأراضي

**الفرنسية في عهدي الواليين عبد الملك بن قطن وعقبة بن الحجاج السلولي، ثم نجح شارل مارتل في الانتصار عليهم سنة 738 م، إلا أنه فشل في استرداد أربونة من أيديهم.**

**وفيما بعد، استغل الفرنجة الاضطرابات السياسية في الأندلس، التي سبقت وواكبت نجاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس الحكم الأموي فيها، فأخرجوا المسلمين بشكل نهائي من جنوبي فرنسا، ثم حاول شارلمان (حفيد شارل مارتل) غزو الأندلس سنة 778 م إلا أنه فشل في ذلك فشلا" ذريعا".**

**غير أن محاولات المسلمين في التوسع في أوروبا لم تتوقف أبدا"، فقد وصلوا إلى إيطاليا وسويسرا وغيرها، ثم جاء العهد العثماني لتبدأ مرحلة أكثر نجاحا" في هذا المضمار...**

رجوع للفهرس

# أبرز المصادر والمراجع


- ابراهيم حسن، حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 1، ط 14، 1996، دار الجيل، بيروت، ومكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق: الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، د.ت، دار المعارف، مصر.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 2000، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- ابن سعد، محمد، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، ط 1، 2001، مكتبة الخانجي، القاهرة.

●ابن عبد البر، يوسف، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، 1966، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

●ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، ط 1، 1983، دار الكتب العلمية، بيروت.

●ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد الحجيري، ط 1، 1996، دار الفكر، بيروت.

●ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط 3، 1983، دار الثقافة، بيروت.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، الإمامة والسياسة، 1904، مطبعة النيل، القاهرة.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تحقيق: مأمون محمد سعيد، ومحمود عبد القادر الأرناؤوط، ط 2، 2010، دار ابن كثير، دمشق – بيروت .

- ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: د. صالح بن عبد الله الغامدي، ط 1، 2008، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

- ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط 3، 1990، دار الكتاب العربي، بيروت.

- أبو الفداء، عماد الدين، المختصر في أخبار البشر، ج 1، تحقيق: الدكتور محمد زينهم عزب وآخرون، ط 1، د.ت، دار المعارف، القاهرة.

- أحمد، عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة :الدكتور أمين توفيق الطيبي،1980 ، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا.

- الأزدي البصري، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق :د. عصام مصطفى عقله، ود. يوسف أحمد بني ياسين،2004 ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، ط 3، 1987، دار ابن كثير، دمشق – بيروت.

- **أكرم، أ، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة :العميد الركن صبحي الجابي، ط7 ،1994 ، مؤسسة الرسالة، بيروت.**

- **الأمين، إسماعيل، العرب لم يغزوا الأندلس: رؤية تاريخية مختلفة، ط 1، 1991، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.**

- **البستاني، بطرس، معارك العرب في الشرق والغرب، 1987، دار مارون عبود، بيروت.**

- **بل، هـ .آيدرس، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة :الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، 1973، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.**

- **البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس**

الطباع،1987 ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت.

- بلوش، ن .أ، فتح السند، ط1 ،1991 ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.

- بيضون، إبراهيم، مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية، ط1 ،1995 ، دار المؤرخ العربي، بيروت.

- توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ج1 ، ترجمة :الدكتور نقولا زيادة،1988 ، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

- الثعالبي، عبد العزيز، تاريخ شمال إفريقيا: من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق: الدكتور أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، ط 2، 1990، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

- **الجزائري، أبو بكر جابر، هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يا محب، ط 3، 1989، دار الخاني للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.**

- **جلوب، جون باجوت، الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة: خيري حماد، د.ت، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.**

- **الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي :من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط2 ،1981 ، دار القلم، دمشق – بيروت.**

- **الحجي، عبد الرحمن علي، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ط3 ،1979 ، مكتبة الصحوة، الكويت.**

- **حسن، علي إبراهيم، التاريخ الإسلامي العام، ط3 ، 1963، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.**

- الحميدي، محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، 1966، الدار المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة.

- حوراني، ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، ج1 ، تعريب : أسعد صقر، ط 1،1997 ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.

- خان، ظفر الاسلام، تاريخ فلسطين القديم 1220) ق.م - 1359م(، ط3 ،1981 ، دار النفائس، بيروت.

- خطاب، اللواء محمود شيت، الشورى العسكرية في عهد الرسالة، ط1 ،1992 ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، السعودية.

- الخميس، عثمان بن محمد، حقبة من التاريخ، ط3 ، 2006، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية، مصر.

- الذهبي، شمس الدين، العبر في خبر من غبر، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت، 1960.

- الذهبي، شمس الدين، دول الإسلام، ج1 ، تحقيق :حسن إسماعيل مروة ومحمود الأرناؤوط، ط1 ،1999 ، دار صادر، بيروت.

- الربابعة، حسن محمد، أبرز المعارك التي اشترك فيها القعقاع في العراق، دورية كان التاريخية، العدد 12، حزيران 2011.

- زعرور، إبراهيم، وأحمد، علي، تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، 1995 - 1996 ، منشورات جامعة دمشق.

- السامرائي، خليل إبراهيم، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1 ،2000 ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

- ساليفان، ريتشارد، ورثة الإمبراطورية الرومانية، ترجمة :الدكتور جوزيف نسيم يوسف، ط1 ،1985 ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.

- سري، طارق، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، ط1 ،2006 ، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر.

- سليمان، حامد، من القبطية إلى الإسلام :قصة فتح مصر، 1988، المكتب العربي للمعارف، القاهرة.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، ط 1، 2003، دار ابن حزم، بيروت.

- شاكر، محمود، موسوعة الفتوحات الإسلامية، ط1 ، 2002، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

- الصلابي، علي محمد، السيرة النبوية :عرض وقائع وتحليل أحداث، ط 7، 2008، دار المعرفة، بيروت.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري(، د.ت، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، والرياض، السعودية.

- الطنطاوي، علي، والطنطاوي، ناجي، أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، ط8 ،1983 ، المكتب الإسلامي، بيروت.

- **عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، د.ت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.**

- **عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط3 ، 1983، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.**

- **العبادي، أحمد مختار، وسالم، السيد عبد العزيز، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، 1972، جامعة بيروت العربية.**

- **العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، د.ت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.**

- **عبد المسيح، بيشوي، تاريخ العالم القديم ليوحنا النقيوسي، د.ت، د.م.**

- عبد الهادي، جمال، فتح مصر، 1999، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

- العروي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط 5، 1996، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب.

- العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، ط1 ،1996.

- العقاد، عباس محمود، عمرو بن العاص، د.ت، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

- العمري، أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة :محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، د.ت، مكتبة العبيكان.

- عنان، محمد عبد الله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ط5 ،1997 ، الناشر :ورثة المؤلف -حسين عنان.

- القمني، سيد محمود، حروب دولة الرسول، ط2 ، 1996، مكتبة مدبولي الصغير، مصر.

- كلير، كلاوس، خالد وعمر :بحث نقدي في مصادر التأريخ الإسلامي المبكر، ترجمة :محمد جديد، ط1 ، 2001، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.

- كمال، أحمد عادل، الفتح الإسلامي لمصر، ط1 ،2003 ، الشركة الدولية للطباعة، مدينة 6 أكتوبر، مصر.

- الكندي، محمد بن يوسف، ولاة مصر، تحقيق: دكتور حسين نصار، د.ت، دار صادر، بيروت.

- **كولان .ج .س، الأندلس، كتب دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة :إبراهيم خورشيد والدكتور عبد الحميد يونس وحسن عثمان، ط1 ،1980 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة.**

- **مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، ط1 ،1987 ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.**

- **المزروع، وفاء عبد الله بن سليمان، جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، ط1 ،2003 ، مكتبة دار القاهرة، القاهرة.**

- **المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد، أطلس الخليفة أبي بكر الصديق، ط1 ،2004 ، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.**

- **المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، د.ت، دار صادر، بيروت.**

- **الندوي، أبو الحسن علي، السيرة النبوية، ط 8، 1989، دار الشروق، جدة.**

- **هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ط14 ، د.ت، دار المعارف، القاهرة.**

- **وات، مونتغمري، في تاريخ إسبانيا الإسلامية) مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا(، ترجمة :محمد رضا المصري، ط 2، 1998، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.**

- **الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، فتوح الشام، ضبطه وصححه: عبد اللطيف عبد الرحمن، ط 1، 1997، دار الكتب العلمية، بيروت.**

- **وتر، محمد ضاهر، الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، اتحاد الكتاب العرب،.1999**

- **وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، ط3 ، 1971، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.**

- **الوكيل، محمد السيد، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين :دراسة وصفية تحليلية لأحداث تلك الفترة، ط 5،2002 ، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، السعودية.**

- **ياسين، عبد علي، تاريخ صدر الإسلام: من البعثة النبوية إلى نهاية الدولة الأموية، ط 1، 2001، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.**

رجوع للفهرس

# السيرة الذاتية للمؤلف

**ماجستير دراسات السلام وفض النزاعات، الجامعة الهاشمية، الأردن.**

**بكالوريوس تاريخ، جامعة مؤتة، الأردن.**

**له رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان " المنع الوقائي للصراعات داخل النظام السياسي من منظور إسلامي ".**

**له عدد من المقالات المنشورة في مواقع مختلفة على شبكة الإنترنت.**

**له عدة كتب وروايات قيد النشر.**

**للتواصل: هاتف رقم (0772373984).**

رجوع للفهرس



إن التاريخ مليء بالمفارقات المذهلة، والتناقضات العجيبة، والتحولات الكبيرة، وهي جميعا" تظهر لنا، على نحو جلي، حكمة الله سبحانه وتعالى، الذي بيده أسباب كل شيء، ولا شك أن تقلبات الأيام وتصاريف الأقدار هي، في جانب منها، أكثر مدعاة للتفكر بآلاء الله سبحانه وتعالى من أشياء كثيرة في هذه الدنيا الفانية

**المؤلف**